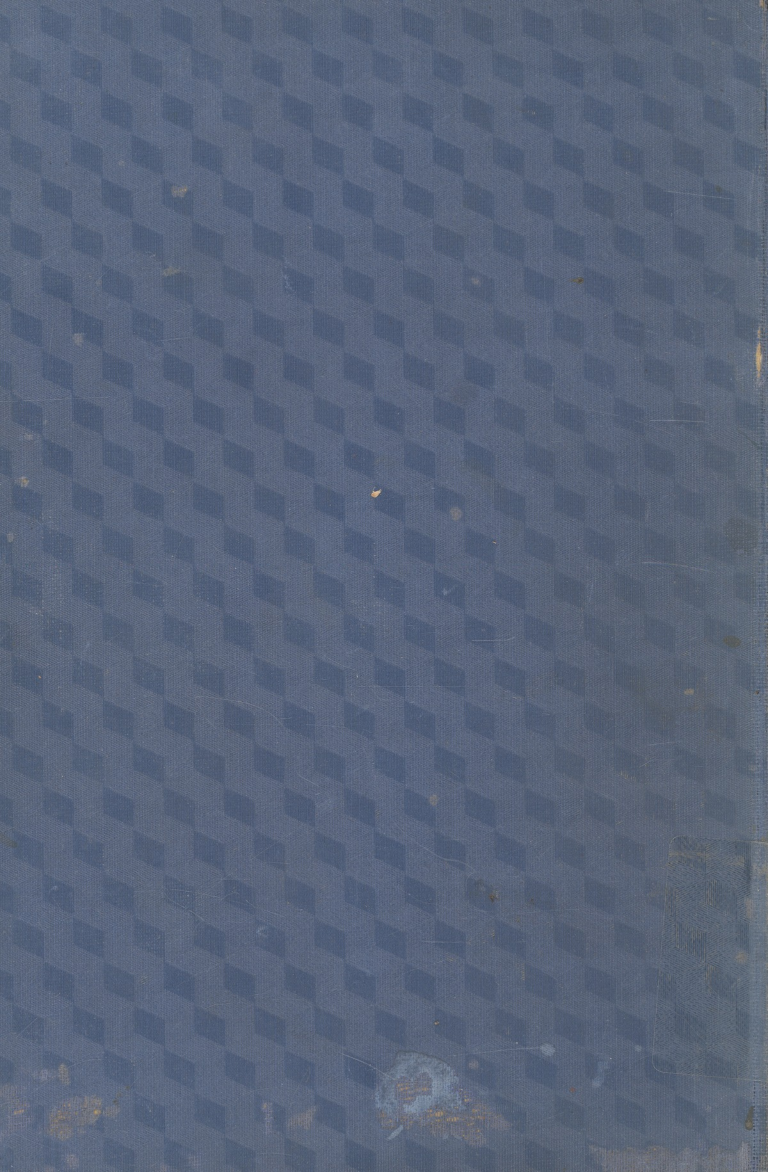




بول هرفيو وفرنسوا دي كوريل والفريد كابو وهنري برنستين

بقلم

طه حسين

الأستاذ بالجامعة المصرية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها مصطفى محمد

(المطبعة التجارية الكبرى بشارع عابدين بحارة فايد رقم ٣)

إلى زوجى التى جعل الله لى منها نوراً بعد ظلمة ، وأنساً بعد
وحشة ، ونعمة بعد بؤس ، أرفع هذا الكتاب .

طه حسين

مقدمة

هذه فصول فى النقد والتحليل ، تناولت بها طائفة من آيات التمثيل الحديث ونشرتها « السياسة » متفرقة. ثم طلب إلىّ بعض القراء أن أجمعها فى أسفار فأجبتهم إلى ذلك دون أن أغير فيما نشرته «السياسة» قليلا ولا كثيراً. ولقد كتبتها وجمعتها لا أريد من ذلك إلا أمرين اثنين : الاول أن أظهر قراء هذه اللغة العربية على نحو من أنحاء الادب الغربى ، الثاني أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الادباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربي خاصة يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشىء فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصبا مفيدا . فان أوفق إلى ما أريد بعضه أو كله فأنا سعيد .

القاهره فى ٣١ مايو سنة ١٩٢٤ — طه حسين

التيه

Le Dédale (par Paul Herivieu)

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى (بول هرفيو)

قد لا يكون هذا العنوان ظريفاً ، وقد لا يجرى به اللسان فى سهولة ، وقد لا يسيغه السمع، ولكنه مع ذلك صحيح ، وهو مع ذلك ترجمة دقيقة لعنوان هذه القصة بالفرنسية ، وهو يختصر القصة كلها . فهى تيه بالمعنى الصحيح ، مهما تفكر ومهما تمعن فى التفكير فان تجد منه مخرجاً ، ولن تجد فيه هدى .

هذه القصة جهاد لا نتيجة له بين العواطف والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى . بين العواطف والشعور الفردية من ناحية ، وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى ، بين العواطف وبين الواجب ، وبين العقل وبين الدين ، ثم بين القانون وبين الدين أيضاً . هى جهاد عنيف لا نتيجة له ولا مخلص منه ، بين ما يكوّن الفرد وما يكوّن الجماعة من ضروب العواطف والشعور ومن ألوان الاوضاع والقوانين .

وهى ليست جهاداً متكلفاً ولا منتحلا ، ليست شيئاً اخترعه الكاتب اختراعاً وعقده عمداً وافتناناً فى التعقيد ، وانما هى شىء

طبعى يقع كثيراً ومن الممكن أن يقع فى كل يوم . قد يلتفت الناس إليه وقد لا يلتفتون، ولكنه فى نفسه حق إن لم يقع بالفعل فى كل زمان وفى كل مكان فمن الممكن جداً أن يقع فى كل زمان وفى كل مكان . . .

فى كل زمان وفى كل مكان ! قد لا يكون هذا حقاً وقد لا يخلو من المبالغة، لأن هناك أمكنة أو قل إن هناك جماعات فيها من قواعد الدين ونظم التشريع ما يحول بين الناس وبين التورط فى هذا الجهاد الأليم العقيم ، فالمسلمون مثلا لا يتورطون فيه لأن الله أباح لهم الطلاق وأباح للمرأة المطلقة أن تعود إلى زوجها الأول بعد استيفاء شروط وقيود معروفة. وأظنك الآن تحس أن هذه القصة تدور حول الزواج وحول الطلاق . فلست أريد أن أطيل عليك ولا أن أسرف فى تشويقك إلى حوادث هذه القصة ، وإنما أنا مبتدىء فيها راج أن تكون هذه القصة موضع بحثك وتفكيرك ، فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً وإنما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويلذ العقل أو يدعو إلى العناية والتفكير . وفى هذه القصة كل هذه الخلال .

« فيلار دوفال» (Vilard-Duval) رجل أقرب إلى الشيخوخة
منه إلى الشباب ، حسن الحال ، موسر مرتفع المنزلة ، كان قاضياً
وقاضياً ممتازاً ، خدم القانون وحماه من عبث العابثين ، فأصبح
شديد الايمان بالقانون يكاد يتخذه ديناً أو قل إنه يتخذه ديناً
ويتخذ إكباره وتقديسه مقياساً لكرامة الرجل بل لرجولته
وله زوج شديدة الإيمان بدينها المسيحى الكاثوليكى ، شديدة
الايمان أو مسرفة في شدة الايمان، لا تفكر الا فى الدين ولا
تصدر إلا عن الدين ولا تقيس شيئاً من الاشياء فى الحياة إلا
بمقياس الدين . تحب زوجها حباً شديداً، ويحبها زوجها حباً شديداً
ولهما ابنة هى « مريان » (Marianne) بارعة الجمال فتانة شديدة
الذكاء ساحرة اللفظ معتدلة المزاج، قد ورثت عن أبيها حب
القانون وإكباره ، وورثت عن أمها حب الدين واحترامه
ولكنها لا تسرف فى شيء من ذلك ، فهى معتدلة فى كل شيء
تزوجت فتي غنياً جميلا هو (مكس دى بوجيس) (Max de Pogis)
وتزوجته بعد أن أحبته وكلفت به وبعد أن أحبها وكلف بها
فعاشا فى الحب والصفاء حيناً وكان لهما غلام . ولكن الزوج
الشاب خان امرأته فى ساعة طيش ونزق ، فكانت الصدمة ...
هذه المرأة شديدة وساء الظن بين الزوجين ، أسرفت فى الغض...

وأسرف هو فى عدم الاكتراث حتى ساءت الصلة ثم انقطعت. ثم كان الطلاق رغم الأم المؤمنة التى تكره الطلاق بحكم إيمانها . ثم تزوج الشاب من صاحبته التى كانت مصدر شقائه، وظلت «مريان» بين أبويها مقسمة الوقت والحياة بين حب ابنها واللوعة عما أصابها فى حب زوجها . ولكن لهذه الأسرة صديقا كان بعيداً عن فرنسا يعيش فى الاقطار النائية لأمر من الأمور نتوهمه ولا نتبينه فى وضوح . عاد هذا الصديق إلى فرنسا واسمه « جيليوم لابرول »(Guillaume Le Breuil) ورأى مريان فأحبها وفتن بها وقدسها تقديساً ، وطلب إليها أن تكون زوجه، فقبلت لا لأنها تحبه ولكن لأنها تحترمه وتثق بصدقه وإخلاصه وبأنها ستكون سعيدة فى بيته، فقبلت أن تكون زوجه وقبل أبوها هذا الزواج مغتبطاً به مطمئناً على مستقبل ابنته ، ولكن الأم رفضت هذا الزواج رفضاً قاطعاً . رفضته لأنها تجحد الطلاق ولا تعترف به . فهى إذن مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بأن الزواج الأول لم تنفصم عروته وأن ابنتها ما زالت مدينة بحياتها لزوجها الاول وأن الزوج الأول مازال مديناً بحياته لزوجه الأولى . وإذا كان هذا قد خالف الدين وتزوج مرة ثانية فتورط فى الخطيئة فليس ينبغى لابنتها أن تخرج على قانون

الكنيسة وأن تقطع صلة أنشأتها كلمة الدين . وإذن فالجهاد قائم منذ الآن بين الدين والقانون ثم بين الدين والعاطفة ، ثم بين الدين وشعور الانسان بحقه فى أن يكون سعيداً . القانون يبيح لهذه المرأة أن تتزوج ، وسعادتها تقتضى أن تتزوج ، بل حاجاتها الطبيعية تقتضى أن تتزوج ، وهناك رجل يحبها حقاً ويريدها على أن تكون زوجه ، وهناك أبوها الذى أنفق حياته فى خدمة القانون يرغب فى هذا الزواج ويحرص عليه ، ولكن هذه المرأة تحب أمها وتجلها ولا تريد أن تخرج عليها ولا أن تخالف أمرها، فهى تستعطفها وتتوسل إليها بكل وسيلة ، تذكر شبابها وحاجاتها إلى الحياة وإلى السعادة فى الحياة ، وان الله لا يمكن أن يقضى على هذه الزهرة النضرة بهذا الذبول ولا أن يقضى على هذه المرأة بالشقاء فى العزلة حينما هو يبيح لغيرها من الرجال والنساء الحياة الاجتماعية السعيدة المعقولة . تتوسل بكل هذا ولكن أمها لا تسمع لها ولا تأذن بهذا الزواج . وبينما هذا الجهاد فى أشد أطواره من العنف يقع شىء يزيده عنفاً ويحمل هذه المرأة الشابة على أن تثور فتخرج على أمها وتخرج على الدين وتتزوج . ذلك أن امرأة أخرى تقبل لزيارة « ماريان » وبينهما صلة قرابة ، فتطلب إلى « ماريان » أن تعينها على أمر منكر

فهى قد غابت أمس عن زوجها ولا تستطيع أن تنبئه أين كانت فكذبت عليه وزعمت أنها كانت عند « ماريان » . والزوج مقبل الآن وقد يسأل « ماريان » عن أمس فان لم تكذب عليه كما كذبت زوجه فيسوء الأمر بين الزوجين ، وقد يكون ذلك مصدر الطلاق . تتمنع « ماريان » وتأبى الكذب ، ويدور بينها وبين صاحبتها « بوليت » (Poulette) حوار لا بأس به : أى المرأتين أشد إثماً : التى تخون زوجها وتخفى عليه الخيانة ، أم التى لا تخون أحداً ولكنها قد طلقت وتريد أن تتزوج زوجاً آخر ؟ فأما « بوليت » فترى أن الخيانة أيسر من الزواج بعد الطلاق . ذلك لأن الخيانة مجهولة أو يجب أن تكون مجهولة ، وقد تعمد الناس أن يجهلوها ويتكلفوا جهلها ومضوا على ذلك فى آدابهم وأوضاعهم ، حتى أصبحت المرأة فى بعض الطبقات تستطيع أن تعيش بين زوجها وخليلها دون حرج ولا جناح بينما المرأة التى تطلق ثم تتزوج من جديد تثبت بصفة رسمية أمام القانون وفى دفاتر الحكومة أنها قد قسمت نفسها بين رجلين ، فلا يكاد يراها أحد إلا ويشعر بهذه الشركة أو بهذه القسمة أو بهذا التبادل ، وفى هذا ما فيه من الخزى ، وفى هذا ما فيه من انتهاك حرمة الحياء . .

فأنت ترى إلى هذا النفاق الاجتماعى الذى يبيح الخيانة

ويقرها وإن أنكرها القانون والدين وحظراها ، والذى يحظر الزواج بعد الطلاق وإن أباحه القانون وأقرته المنفعة واستلزمته العواطف والسعادة فى كثير من الاحيان .

تثور « ماريان » على هذا النفاق الاجتماعى ولكن شيئاً آخر يزيد ثورتها عنفاً وهو أن أمها المؤمنة التقية قد اشتركت فى هذا الكذب فأخفت الامر على الزوج مخافة أن تنهدم حياته الزوجية . وإذن فقد أقرت شيئا يحظره الدين فما لها لا تقر ابنتها على الزواج إذ كانت المصلحة تبيح مخالفة الدين ؟ فتجيبها الام بأن خطيئة صاحبتها قد وقعت بالفعل فهى لا تستطيع لها استدراكا وقد أصبح أمرها إلى الله وحده ؛ فالرحمة بالانسان تقتضى أن تظل هذه الخطيئة مكتومة ، أما أنت فلم تخطئى بعد وأنت تريدين أن تخطئى ، وحرام على أن أعينك على الخطيئة . ثم تنصرف الام بعد أن تعلن إلى ابنتها أنها لا تسمح بهذا الزواج ولكنها لن تستطيع أن تجحد ابنتها مهما تفعل . هنا يستقر رأى « ماريان » على أن تخالف أمها فتتزوج .

* * *

فاذا كان الفصل الثاني رأيت « ماريان » وزوجها الجديد وقد مضى على زواجهما عامان وهما فى زيارة يتغديان عند « بوليت »

التى مر بك ذكرها ، فيتحدثون فى كثير من الشئون ثم ينفصلون قليلا . فأما ماريان فتتحدث إلى زوج صاحبتها واسمه « هوبير » وأما « بوليت » فتتحدث إلى « جيليوم » زوج ماريان .

ولست تسمع إلا حديث ماريان وصاحبها ، فاذا صاحبها يشكو إليها ويستعينها . ذلك أن زوجه أحست منه بعض النزق فهجرته فهو يستعطف ويتوب ويتوسل بماريان . ثم تخلو المرأتان وتتحدثان فتلح ماريان على صاحبتهـا أن تعفو عن زوجها وأن تذكر خطيئتها ، فتأبى بوليت ويتبين من حديثها أنها ما زالت فى خطيئتها وأنهـا مغتبطة بهذه الخطيئة وأنها تؤثر الحب على الزواج ، تكره من الزواج هـذه الاباحة التى ترفع الكلفة بين الزوجين وتجعل الصلة بينهما شيئاً مألوفا وتجعل للرجل على المرأة حقا يشبه حق المالك المتسلط ، وهى تحب فى الحب أنه غير مباح وأن فيه هذه المشاق والاخطار التى تجدها فى كل محظور والتى تضطرك إلى أن تتكلف الاهـوال وتتجشم الخطوب فتختلس الوقت وتسترق اللذة تخفى ذلك كله وتكذب فيه ولا تصل إلى شىء منه إلا بعد حيلة وجهاد . فهو إذن شىء لا يكفى أن تمـد إليه يدك لتناله : وهما فى هذا الحديث وفى هذا الحوار تبيح إحداهما محظورا وتدافع إحداهما عن مباح وبوليت تتعجل صاحبتها لأنها

تريد أن تذهب الى ميعاد. وبينما هما فى هذا كله اذ يدخل الخادم ومعه بطاقة وهذه البطاقة هى التي تعقد القصة وتجعلها أدنى إلى الشر والنتائج السيئة حقا مما كانت أول الأمر

هذه البطاقة من مدام « بوجيس » أم الزوج الاول « لماريان » . فيها أنها أقبلت تتوسل إلى « بوليت » أن تتوسط عند ماريان فى أن تبيح لزوجها القديم الإشراف على تربية ابنه أكثر مما كان ذلك له مباحا من قبل . تطلب ذلك لمنفعة ماريان نفسها ولمنفعة ابنها ولمنفعة حفيدها ، فقد أصبح ابنها أرمل لأنه فقد زوجه الثانية حينما أصبحت ماريان متزوجة ، واذن فالأب أحق بابنه من الام لان الاب وحيد والام تعيش مع رجل غريب يمكن أن يكون له تأثير سيء فى نفس الغلام . تقرأ بوليت هذه البطاقة وتتحدث بها إلى ماريان ولكنها متعجلة تريد أن تذهب لموعدها ، واذن فلا بد لماريان من أن تلقى هى مدام بوجيس وتتحدث إليها فى هذا الامر الجديد .

فاذا جاءت مدام بوجيس وتحدثت إلى ماريان فهمت من حديثها أنها تحب ماريان وتحب ابنها وتحب حفيدها وتحب الخير لهؤلاء جميعاً وأنها كأم ماريان تجحد الطلاق ولا تعترف بالزواج الجديد ، لكنها لاتقنع ماريان رغم ما تذكره لها من آراء المحامين

ورغم ما تخوفهـا من وصول الامر الى القضاء وانتصار زوجها الاول وتحدث الناس بذلك فى الصحف والاندية، لا تقنعها فترغب إليها فى أن تسمع لابنها وهو قريب يمكن أن تشير اليه من النافذة فيجيب ، وهو قادر على إقناعها لانه يعلم من الامر مالا تعلم ، وهو لم يكره زوجه الاولى قط ولم يخنهـا إلا فى ساعة خفة وطيش ، والامر بعد هذا كله فوق الام وفوق الاب لانه يتعلق بحيـاة الابن وهما جميعاً يقدسان هذه الحياة . تتمنع ماريان أول الأمر ولـكنها تسمح أخيراً . وتشعر أنت من هذا التمنع وهذا القبول أن هنالك جهادا بين قلب هذه المرأة وواجبها ، فهى ما زالت تحب زوجها القديم ولـكنها تريد أن تؤدى واجبها لزوجها الجديد . هـذا الجهاد موجود عنيف ولـكنها تخفيه على نفسها لانها تجل نفسها عن أن تحب من خانها من جهة وعن أن تخون ولو بالضمير من أحبها من جهة أخرى . يقدم الزوج الاول . . . ويتحدثان فاذا الزوج الاول محق واذا هو يخشى على ابنه الخطر كل الخطر من عشرة الزوج الثانى ، لان هذا الزوج الثاني يلقى فى روع ابنه من الخواطر والآراء مالا يلائم مزاج الغـلام ولا صحتـه ولا مستقبله ولا آمال أمه وأبيه فيه . تقتنع ماريان ويتفقان على أن يذهب الغلام مع أبيه الى الريف يقضى فيه أسابيع . ولـكن أحست

ماريان عجزها عن مقاومة هذا الحب القديم، وأحست من جهة أخرى، أن زوجها الاول ما زال يحبها رغم خيانته ورغم زواجه الثاني

* * *

فاذا كان الفصل الثالث علمت ان الغلام لم يكد يذهب الى الريف حتى أصابته علة الديفتريا فأشرف على الموت ودعيت أمه بالبرق فأقبلت وأقامت في قصر زوجها الاول خمسة عشر يوماً تشارك هذا الزوج في العناية بهذا الغلام وفي دفاع الموت عنه. وقد أحسا غير مرة ألما واحداً وخوفا واحداً، وأحسا غير مرة لذة واحدة وأملا واحداً، أحسا الالم والخوف حين كانت حياة الغلام في خطر، وأحسا اللذة والامل حين كان الطبيب ينبئهما بحسن حال المريض، أحسا أن بينهما صلة مادية ومعنوية، صلة حية ليس لاحدهما أن يقطعها، أحسا أنهما قد يفترقان وقد يقع بينهما الطلاق وقد يتزوج كل منهما ولكنهما رغم هذا كله متحدان معنى ومادة، متحدان في هذا الغلام الذى يوحد بين جسميهما وبين خلقيهما بل وبين ما ورثا في حياتهما المادية والمعنوية. ثم أحسا أنه يوحد آمالهما وآلامهما، أحسا هذا كله وكلاهما يحب صاحبه حبا لا يكاد يخفيه، فما عسى أن تكون نتيجة هذا الاحساس ؟ ! . .

أما في نفس الزوج فشيء واحد هو استئناف حياته الزوجية

مع زوجه الاولى ، وأما فى نفس ماريان فشيئان متناقضان : إجابة الحب إلى دعوته ، وإجابة الواجب إلى دعوته. والحب صادق لانها تحب زوجها حقا ولم تنس حبه فى يوم من الايام ولانها تحب ابنها فتحب زوجها فى ابنها . والواجب صادق أيضاً فهى تحترم القانون وتحترم زوجها الثاني وتحترم نفسها ، وترى أن الواجب هو أن تظل محترمة للقانون ولنفسها وفية لزوجها الجديد . واذن فيجب أن تشعر بحب زوجها الاول ، ويجب أن تقاوم هذا الحب وفاء لزوجها الثاني وللقانون ولكرامتها . وهى عن ذلك كله فى شغل مادام ابنها فى خطر ، ولكن الطبيب قد أعلن أن الغلام أخذ يبل من مرضه وأن أمه تستطيع أن تفارقه دون أن تخشى شيئاً ، فلا بد إذن من الفصل فى هذا الجهاد . وماريان قوية معتزمة أن تفى للواجب وإن ضعفت صحتها واختل مزاجها العصبى أو كاد ، فهى تعلن إذن أنها معتزمة على السفر غداً ، فاذا طلب إليها البقاء لتستريح أعلنت أن الواجب يكلفها ألا تظل فى هذا البيت حين لا تدعوها الضرورة الى الاقامة فيه . وهى فى هذا الجهاد العنيف اذ تعلم شيئاً يزيد هذا الجهاد عنفاً ، تعلم أن صديقتها بوليت التي كانت تخون زوجها وتؤثر الحب المحظور على الزواج المباح قد فقدت ابنها ، ولا تكاد تتحدث إلى هذه الصديقة

البائسة حتى ترى أن مرض هذا الغلام الذى مات قد أصلح نفس أمه، فاستيقنت أن الزواج حق، وأن الذى يجعله حقاً ونفعا وخيراً بل الذى يجعله الحق الذى ليس دونه حق والنفع الذى ليس دونه نفع والخير الذى ليس دونه خير إنما هو وجود الابناء. ذلك لما قدمنا من أن الابن يجمع الابوين حقاً ويوحد بينهما توحيداً لا سبيل إلى تفريقه، فقد أحست بوليت هذا حين كان ابنها مريضا، وازداد إحساسها إياه حين مات ابنها، فكرهت الحب المحظور وأخذت لا تتمنى على الله ولا على الحياة إلا شيئاً واحداً وهو أن يولد لها من هذا الزوج الذي كانت تخونه أمس ابن يزيد الصلة بينهما توثيقاً وقوة، تتحدث بهذا إلى ماريان فاذا لهذا الحديث صداه الصادق في نفس ماريان، واذا هى تشعر أنها غريبة من زوجها الثاني لان الابن لا يصل بينهما، وأنها متصلة بزوجها الاول لوجود هذا الابن، واذن فكلتا المرأتين تعسة: إحداهما فقدت ابنها والاخرى فقدت زوجها حقاً. ولكن ماريان مصرة على الوفاء للواجب، وقد تفى لهذا الواجب لولا أن زوجها الاول أقوى منها، فهو يدخل عليها فى هذه الغرفة التى هى فيها الآن والتى رآها فيها لاول مرة يوم تزوجا والتى تركها فيها يوم الخيانة. يدخل عليها وهى تستعد للراحة، قد نزعت ثيابها أو كادت:

وأرسلت شعرها فيراها الآن كما رآها يوم تزوجا ، يدخل عليها وقد علم أنها تريد أن تسافر وهو يأبى أن تسافر حتى تسمع له وتعفو عنه . فيأخذ فى التحدث إليها واستعطافها وتذكيرها أيام الحب . ثم يذكر خيانته وأنها لم تصدر الاعن ضعف وطيش وأنه كان إلى ضعفه وطيشه أحمق مغروراً ، ساءه أن امرأته علمت بخيانته فاغتاظ لذلك ولج فى الخيانة طيشاً وحمقاً ، ثم تتحدث إليه ماريان فاذا هى حين أغضبتها الخيانة وملأتها حقداً وغيظاً لم تكن تتمنى إلا شيئاً واحداً وهو أن يعود زوجها تائباً مستغفراً فيترضاها ويستأنف معها الحياة ، إذن فقد كان غضبها كاذباً ، وإذن فقد كانت خيانته كاذبة أيضاً ، وإذن فقد كان كلاهما يحب صاحبه حقا. وقد أظهر مرض الغلام أن هذا الحب لم يزدد إلا قوة وعنفاً . . ألما معا وجزعا معا وقد برىء ابنهما فيجب أن يسعدا معا ؛ وهما الآن فى الغرفة التى شهدتهما زوجين لأول مرة ، هنا تضعف الارادة ويضعف أثر الواجب وينتصر سلطان الحب والامومة على سلطان الزواج والقانون .

فاذا كان الفصل الرابع رأيت أبا ماريان وأمها بمنزلهما فى باريس يتحدثان بأن الغلام قد برىء وبأن ماريان عائدة الى باريس بعد قليل من اللحظات وبأن زوجها قد ذهب يستقبلها

ثم يطلب الشيخ إلى امرأته أن تذهب معه إلى بيت ابنتها فتأبى لأنها لا تريد أن تدخل هذا البيت الذى يقوم على الخطيئة ويتركها زوجها حيناً . ثم تقبل ماريان والهة ذاهلة فى شكل مخيف ، فلا تكاد تستقر بها الدار حتى تكون قد قصت على أمها كل شىء فأنبأتها بأنها خانت زوجها الثاني مع زوجها الاول ، وأنها تستبشع هذا استبشاعاً فظيعاً وترى أنه جرم لا يعدله جرم ، أما أمها فلا ترى فى هذا إثما ولا خطيئة وإنما ترى أن ماريان قد ردت الامانة إلى صاحبها ، وأنه إن تكن هناك خطيئة حقا فهى حياتها مع زوجها الجديد . ويقبل الشيخ وقد سمع هذا الحديث فتناله هزة نفسية عنيفة يرثى لابنته لأنها لم تفعل ذلك وهى قادرة على ألا تفعله ، ويرثي لزوجها الثاني لانه مظلوم ويريد أن يلتمس حلا لهذه العقدة ، فاما الام فتقترح الحل وهو أن هذا الزواج الثانى قد قام على الطلاق فيجب أن يهدمه الطلاق وأن تعود ماريان إلى زوجها الاول . ولكن الشيخ رجل قانوني وهو يعلم أن القانون الفرنسى لا يبيح للمطلقة أن تعود إلى زوجها الاول إلا اذا مات زوجها الثاني ، فليس للمسألة إلا حل واحد وهو الكذب ، هو أن تخفى الحقيقة على الزوج الثانى ، ولكن ماريان عاجزة عن إخفاء هذه الحقيقة . لا تريد أن تكذب ولا تريد أن تخدع زوجها الثاني

والحق أنها لا تحب زوجها الثانى ولا تستطيع أن تعيش معه وإن كانت تكبره وتجله ، فهى إذن قد عزمت على أن تصارح زوجها بكل شيء ، يلح عليها أبوها وأمها ألا تفعل فتأبي ثم يصلان إلى إقناعها بأن تستخفى الآن حتى لا يلقاها زوجها فى هذه الحال . ولا تكاد تستخفى حتى يقبل «جيليوم» مضطربا لانه ذهب لاستقبال زوجه فلم يجدها ، فاذا علم أنها قد عادت إلى باريس وأنها ذهبت إلى بيت أبيها لا إلى بيت زوجها ازداد اضطرابا ، وإذا طالب أن يرى زوجه فأجيب بأن الخير فى أن ينتظر الآن خرج عن طوره وألح وأنذر حتى تخرج له ماريان . ويخلو الزوجان فيسألها فلا تجيبه إلا بضروب من الإيماء ؛ والرجل واثق بزوجه فهو يعتقد أنها ضعيفة متأثرة الاعصاب فيريد أن يأخذها باللطف والحنان فيدنو منها ويريد أن يضمها إليه ، ولكنه لا يكاد يطالب شفتيها حتى تصيح فى وجهه بأنها خائنة ! . . .

هنا يثور ثائر الرجل ولكنه لا يريد إلا أن ينتقم من هذا الزوج الاول الذى أهانه وانتهز إقامة امرأته عنده وضعفها ففعل ما فعل ، يخرج وهو عازم على قتله فتستغيث ماريان بابيها وامها وتتوسل إليهما فى أن يدفعا هذا الشر الذى يريد أن ينزل بهذين الرجلين . فقد رأيت أن المؤلف قد أحكم العقدة فبلغ

بالجهاد أقصى أطوار العنف بين هذه العواطف المختلفة وبين هذه الاهواء المتباينة وبين الدين والقانون . بلغ بالجهاد أقصى اطوار العنف حتى أصبح جهاداً خارجياً بين رجلين مسلحين ، كلاهما يريد الشر بصاحبه ، وأحدهما يمثل القانون والحب ، والآخر يمثل الدين والابوة والحب .

* * *

فاذا كان الفصل الخامس رأيت أسرة ماريان قد انتقلت من باريس الى قصر لها فى الاقاليم ، وظهر لك المسرح فى موضع من حديقة هذا القصر تشرف على مكان خطر من النهر ، ورأيت ماريان وأمها تتحدثان ، فتفهم من الحديث أن أم ماريان قد أسرعت الى الزوج الاول فانبأته بمكان الخطر على حياته ، ومازالت به حتى حملته على ان يستخفى . ثم تفهم شيئاً آخر وهو أن هذا الزوج الاول لم يستخف حقاً ، وانما انتقل من قصره الى حيث تقيم ماريان ، فليس بينها وبينه الا النهر فهو يبعث اليها فى كل يوم بكتاب يريد ان يستأنف الصلة بينها وبينه ، وماريان تقرأ كتبه ولا تجيب . وهما فى هذا الحديث اذ يقبل أبوها فينبئهما بانه لقى فى طريقه « جيليوم » وهو الزوج الثاني ، وعلم منه أنه أقبل يريد أن

يتحدث الى ماريان. فتقبل ماريان أن تتحدث اليه ،ويذهب الرجل ليأتي به ، وتذهب ماريان مع أمها لتتخذ لها معطفاً تتق البرد لان المساء قد أمسى . يقبل « جيليوم » ويخلو حيناً فى المسرح ، وهو ينتظر اذ يدخل غلام من القرية معه كتاب من «مكس » الزوج الاول ، فيأخذ « جيليوم » الكتاب ،وقد علم من الغلام مكان «مكس» وعلم منه ايضاً أن هذا الموضع من النهر شديد الخطر . ينصرف الغلام، ويقرأ جيليوم الكتاب فيفهم كل شيء : يفهم أن مكس يريد استئناف الصلة مع ماريان وأن ماريان لا ترد على كتبه . وهو كذلك اذ تقبل ماريان فيعرض عليها جيليوم العودة الى الحياة القديمة وأنه يريد أن ينسى ماكان ولا يذكر من أمر الخيانة شيئاً وأنه لن يستطيع أن يعيش بدون ماريان ولن يستطيع ان ينسى شرفها وأمانتها حين أنبأته بالحق ولم تخف عليه شيئاً وكانت تستطيع ان تداهن وكانت تستطيع ان تصطنع الرياء . ولكن ماريان تشكر له ذلك وتعلن اليه أنه قد يستطيع أن ينسى كل شيء ولكنها هى لاتستطيع أن تنسى ، وقد تزوجته على أن تكون له وفية فى السر والجهر وفى الدقيق والجليل من امرها ، فاما وقد خانت هذه الامانة فهى لاتستطيع أن تعود اليه ، وهى لا تطلب الا شيئاً واحداً ، لا تطلب الا أن تفرغ لابنها تقف

حياتها على تربيته والعناية به ، لايصدقها جيليوم ، وتملكه الغيرة فيظن أنها تريد أن تخلص منه لتستأنف الحياة مع الزوج القديم . ثم تهدأ غيرته حين يراها باكية ملتاعة ، ويعلن اليها أنها ستظفر بما تريد فسيستخفى هو أو سيموت وتستطيع أن تعود الى زوجها الاول . يعلن اليها ذلك فى صدق واخلاص، فتجيبه هى فى صدق واخلاص ايضاً أنه اخطأ قصد السبيل وأنها تريد أن تعيش عيشة الراهبات لأنها فقدت بحكم الخيانة حقها فى السعادة الزوجية ، حقها فى أن تكون امرأة ، وهى تريد ان تكفر عن سيئاتها ، فتستأنف حياة العذارى ، وهى تقسم أنها لن تعود الى الزوج القديم ، وهى تعلم أنها تحبه وأنها قد تعجز عن مقاومته ، ولكنها تعلم أنها ستقتل نفسها قبل أن يظفر منها هذا الزوج القديم بشىء . تقسم على ذلك فيصدقها « جيليوم » ويعدها بانها ستحيا ، وستحيا لابنها دون ان تجد فى ذلك ما يعرضها للانتحار الذى هو عمل غليظ جاف لايليق بالنساء الحسان ؛ ثم يودع بعضهما بعضاً . تنصرف ويبقى وهو يسأل نفسه لم لايلقى بنفسه فى النهر ؟ وانه لفى هذا التفكير اذ يقبل « مكس » فيلتقى العدوان . يهم مكس أن يتراجع فيقفه جيليوم معلناً اليه أنه قد فر أمامه مرتين . هنالك يدور حوار قصير ولكنه عنيف بين هذين الرجلين . يطلب مكس الى

صاحبه أن يدعو شهوده وان يقتتلا كما جرت بذلك العادة ، فيأبي جيليوم قائلا: إن بينك وبيني حسابا يجب أن لا يطلع احد عليه . ثم يعرض عليه ما يأتي : وهو أنه قد رد الى ماريان حريتها فلن تراه ولن يراها . ولكن ماريان تريد ان تعيش حرة ، تريد ألا ترى زوجها القديم كما أنها لن ترى زوجها الجديد . واذن فكس بين اثنتين : إما أن يعطى على نفسه العهد أنه لن يرى هذه المرأة ولن يتتبعها بإلحاحه وأثقاله وإما أن يموت . أما مكس فيرفض ما يعرض عليه ويعلن أنه يحب ماريان وأن ماريان تحبه ، وأنه لا يستطيع أن يعرض عنها ولن يعرض عنها ، وأنه لن يقضي بينه وبين صاحبه فى هذه الخصومة الا الموت . فهو ذاهب يدعو شهوده ولا بد ان يقتتلا ، ثم يريد ان يخرج فيمنعه جيليوم ، ويكون بينهما صراع عنيف ينتهى بهما الى النهر . فما اسرع ما تضمهما أمواجه وما أسرع ماتلتئم هذه الامواج كأنها لم تضم شيئا .

ولا تكاد تمضي لحظات على هذا الموت حتى تسمع صوت ماريان تدعو ابنها وحتى تراها تدخل المسرح من ناحية ويدخل ابنها المسرح من ناحية وفى يده طاقات من الزهر ، فتضمه اليها وتمر به حيث مات زوجاها ، وتقوده الى القصر حيث تعده ليحتمل نصيبه مما تضمر الحياة من خير أو شر للاحياء .

شوط القبس

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى (بول هرفيو)
La Coursedu Flambeau par Paul Hervieu

قد يكون هذا العنوان غريباً، وقد لايخلو من بعض النفرة، بل قد يكون غامضا بعض الشيء. ولكن توضيحه يسير وترجمته صحيحة، ومتى فهمت معناه وقرأت القصة أو ألممت بها فقد أحسب أنك تقره ولا تنكره.

كان للاتينيين عيد ديني يحتفلون فيه حفلة اختلف فى تأويلها الفلاسفة والشعراء. كان أعضاء المدينة يصطفون على مسافة بعيدة ويبدأ أحدهم فيقتبس من النار المقدسة جذوة ينقلها مسرعا إلى من يليه، ثم ينقلها هذا إلى من بعده، ومازال الجذوة تنتقل فى سرعة من يد إلى يد حتى تبلغ آخر الصف. وقد فسر أفلاطون و«لوكريس» هذه الحفلة الدينية بأنها كانت رمزا لحياة الاجيال المختلفة من أبناء الانسان. وعلى هذا التفسير اتخذ صاحب القصة عنوان قصته، فسماها شأو القبس، أو تستطيع أن تقول: تنقل هـذا القبس فى سرعة من يد إلى يد. وهو لا يريد بعنوانه ولا بقصته إلا أن يشرح هـذه الفكرة التى خطرت لأفلاطون

ولو كريس ويثبتها فى وضوح وجلاء . فقصته فى الحقيقة فصل من فصول الفلسفة أو درس من الدروس العامية،ليس يعنيه فيها جهاد العواطف من حيث هو،وليس يريدبها أن يخلبك أو يستهويك أو يؤثر فيك هذا التأثير المختلف الذى يخرجك من لذة إلى ألم ومن ألم إلى لذة ،ليس يريدأن يذيقك لذة الانفعال حسنا كان أم سيئاً،وإنما يريدشيئاً آخر ،يريدأن يقنعك بقضية من القضايا ورأى من الآراء.هو اذن لا يتحدث الى قلبك ولا الى عاطفتك : وإنما يتحدث الى عقلك . ولكنه فى هذا الحديث إلى عقلك لا يصطنع منطق ارسطاطاليس،ولا يتكلف ضروب القياس والاستقراء ،وإنما يسلك سبيل العاطفة ليصل إلى إقناع العقل ، أو هـو يعدل عن المنطق النظرى إلى منطق الحياة الواقعة، أوهو يكشف أمامك هذه الحياة الواقعة حتى تلمس منطقها بيدك،وحتى تقتنع حين تلمس هذا المنطق بأن قضيته صادقة وأن رأيه صحيح . وهذه القضية فى نفسها قيمة نافعة ، لو اقتنع الناس بها وأحسنوا التفكير فيها لأعفوا أنفسهم من ضروب من الآلام وفنون من الغرور،ولكانوا بمأمن من اليأس وخيبة الأمل فى كثير من الاحيان . نعم لو آمن الناس بهذه القضية لقبلوا الحياة كما هى ؛ لا يكبرونها أكثر مما ينبغى ؛ ومن استطاع أن يفهم الحياة كما هى ويقبلها كما هى فهـو

الفيلسوف الذى يستطيع ان يريح ويستريح حقا ؛ ولكن الناس لن يفهموا الحيـاة كما هى ولن يقبلوها كما هى ؛ وسيظلون أبداً يفهمون الحيـاة كما يحبون ان تـكون ؛ وسيظلون لهذا فى شقاء ينتقلون من رجاء الى يأس ومن فشل الى خيبة أمل .

* * *

بدأ الـكاتب قصته كما يبدأ الخطيب خطبته أو كما يبدأ العالم فصلا من فصول العلم ؛ فيضع نظريته موضع البحث ثم ينفق خطبته أو فصله العلمى فى اثبات هذه النظرية . فانسلك سبيله ولنشرح نظريته؛ وهى سهلة سائغة ليس فهمها بالعسير . نظريته هى أن حياة الاجيال الانسانية ليست إلا سلسلة من التضحية المتصلة غير المنقطعة؛ يضحى كل جيل من اجيال الناس بنفسه وحياته وقوته وآماله فى سبيل الجيل الذى يليه دون أن يجد من هذا الجيل شكراً أو ينال منه جزاء ، كما أنه لم يقدم الى الجيل الذى سبقه شكراً ولم يعوض عليه جزاء حياة الاجيال الانسانية إذن هى كأمر هؤلاء اللاتينيين يوم كانوا يحتفلون بعيدهم المقدس فلا يزيد أحدهم على أن ينقل الجذوة من يده الى يد من يليه مكتفيا بعد ذلك بأن ينظر الى هذه الجذوة تسرع فى انتقالها من يد الى يد دون ان يستطيع شيئاً أكثر من أن يصل بها عينيه مشفقا عليها أن تخمد وتسقط بين

الذين يتناقلونها . نحن إذن حملة هذه الجذوة التى هى الحياة ورثناها عن الجيل الذى سبقنا ونورثها الجيل الذى يلينا ، لاعمل لنا فى الحياة إلا هذا ، ولا أمل لنا فى الحياة إلا هذا . نحن ننظر أمامنا أبداً دون أن ننظر وراءنا فى يوم من الايام . نحن آباء بررة ، ولكننا فى الوقت نفسه أبناء عاقون ، نقف برنا على أبنائنا ولا يظفر آباؤنا منا إلا بالعقوق والتقصير .

تجد هذه النظرية منك معارضة قوية ؛ لانها تخالف ما ألفت من جهة وتخالف ماتريد من جهة أخرى ؛ ولانها فوق كل شىء تصدمك باظهار ما فيك من نقص ؛ فأنت تكره أن تكون عاقا وتريد أن تكون وفيابرا ؛ وأنت أثر تحب نفسك وتريد أن يشعر ابنك بأنه مدين لك بالحياة ؛ تخدع نفسك فتعتقد أنك برا بأبيك وأمك ؛ وتضلل نفسك فتريد ان يكون ابنك برا بك ووفيا لك . تجد هذه النظرية منك معارضة قوية ؛ ولكنها فى الحق صحيحة صادقة . فمها تعارض ومهما تنكر فلن تستطيع أن تجحد شيئاً واقعاً وهو أنك تحب ابنك أكثر مما تحب أباك وأنك تستطيع بل تلزم نفسك — حين تشعر بالحاجة — الفناء لافى سبيل حياة ابنك بل فى سبيل لذته وراحته ليس غير .

والكاتب يأخذك بحجة اخرى لاتخلو من دعابة ولكنها

صيحة قوية : مابال الديانات لم تأمرك بأن تحب ابنك وأن تعطف عليه ؛ لانها ليست فى حاجة الى هذا الامر ، فأنت تحب ابنك وتعطف عليه بحكم الطبيعة ، وما بال الديانات تأمرك أن تكون براً بأبويك وتلح عليك فى هذا الأمر وتبسط أمامك من الرجاء ما يرغبك فى البر بأبويك ، وتضع أمامك من النذر مايخفيك من العقوق ؛ لانك لست برا بأبويك بحكم الطبيعة ، وانما البر بالابوين خلق ينبغي أن تتكلفه وتجد فى تحصيله ، ومهما تفعل فلن توفق منه إلى ماتريد .

الانسانية اذن، بطبعها كما يقول الكاتب، أم برة وبنت عاقة وهى تتكلف الخطوب وتتجشم الاهوال لتصف نفسها بما ليس فيها من فضيلة البر

ولكني لا أريد أن أغلو فى بسط هذه النظرية فلا ننتقل بك الى مذهب الكاتب فى اثباتها ؛ وسترى أن هذا الاثبات على صدقه وصحته لا يخلو من لذة وألم يهزان العواطف هزاً عنيفاً ويؤثران فى النفس تأثيراً شديداً

* * *

مدام « فونتيه » Mme. Fontenais عجوز ارملة ؛ فقدت زوجها منذ عهد طويل وكانت تحبه حباً شديداً ؛ فهى وفية له مقيمة

على عهده حتى انها لتقرأ الصحف التي كان يقرأها لها ؛ لا لانها تحب هذه الصحف أو تعنى بما فيها ، بل لانها تريد ان تتلمس بعينيها فى هذه الاحرف المكتوبة أمامها صوت زوجها العزيز عليها . هى تحب زوجها ، وهى غنية قد ترك لها هذا الزوج ثروة لا بأس بها ؛ وترك لها ابنة هى « سابين ريفيل » Sabine Revel وهى امرأة نصف ، فيها جمال وسحر ، وهى أرملة كأمها ، تزوجت من شاب غنى ، ولكن حظ هذا الشاب كان سيئاً فنزلت به المحنة بعد المحنة ، ثم مات وترك امرأته فقيرة معدمة لولا ثروة أبويها . ولم يتركها وحدها بل ترك لها ابنة هى « مارى جان » Marie - Jeanne وهى فتاة جميلة خلابة حسنة الخلق قوية النفس فى السابعة عشرة من عمرها ، ولكن فيها خلالا تفوق سنها رغبة فى الجد وقدرة على الاحتمال .

أمامك الآن ثلاث نساء يمثلن ثلاثة اجيال : أمامك العجوز تحب ابنتها ولا تحيا الا لها . وأمامك المرأة الشابة يخيل اليها أنها لا تفرق بين أمها وبنتها فى الحب . ثم أمامك هذه الفتاة لا تفكر فى شىء من هذا وانما هى أمل ورجاء ؛ هى زهرة تبسم للحياة وقد بدأت شمس الحياة تشرق عليها ، فهى تستجمع كل ما فيها من قوة وشباب لتستمتع بضوء هذه الشمس المشرقة . وهى تحب

شابا اسمــه « ديديه مارافون » (Didier Maravon) حسن الصورة قوى الارادة مؤمن بقدرته على العمل وحسن حظه فى الحياة. أحبته الفتاة وأحبها وتعاهدا على الزواج ، واختارت الفتاة عيد ميلادها لتظهر أمها على هذا الحب وعلى ماتعقدبه من أمل

* * *

فاذا كان الفصل الاول فنحن فى بيت هؤلاء النسوة وهن يحتفلن بعيدهــذه الفتاة ، وقد دعون الى هذا الحفل طائفة من أصدقائهن فيهم رجال وفيهم نساء ، فيهم بنوع خاص امرأة جميلة مفتونة بجمالها حريصة على أن تستمتع بحياتها ؛ لاتبخل من لذات الحياة على نفسها بشىء ، ولها ابنة شابة تهملها اهمالا ، أو قل إنها تضحى بشبابها فى سبيل لذاتها الخاصة ، أو قل إنها تنساها نسيانا تاماً حتى إنها لتداعب فتى تحبه ابنتها ويحب هو هذه الفتاة ؛ وحتى أنها لتكلف ابنتها الشابة أن تصلح من شأنها . وترتب زينتها له وفيهم امرأة أخرى جميلة ولكنها تضحى بجمالها وحياتها ولذتها وبزوجها وقوته ولذته فى سبيل ابنتها الفتاة الجميلة التى استشعرت حب أبويها إياها فأسرفت فى الدل والتحكم حتى انهــا لتكلفهما ما يطيقان وما لا يطيقان كأنهما لا يعيشان الا لها . فاذا دخلت « ساين » رأت هذا المنظر العجيب ؛ رأت فتاة قد جثت على

الارض تصلح ثوب أمها ، ورأت أما قد جثت على الارض تصلح زينة ابنتها . فاذا خرج هؤلاء الناس وخلت «سابين» الى صديق لها هو «مارافون» تحدثت اليه فى أمر هؤلاء واسرافهن ؛ هذه تضحى بابنتها ، وهذه تضحى بابويها . فيشرح لها صاحبها هذه النظرية التى بسطتها لك فى أول هذا الفصل يزعم ان الام التى تضحى بابنتها انما هى استثناء يثبت القاعدة ، وأن الفتاة التى تضحى بابويها انما هى المثال الصادق للانسانية العامة ـ تنكر سابين هذه النظرية انكاراً شديداً ولكن حياتها كلها استقنعها بأنها كانت مخطئة فى هذا الانكار . ذلك أن « سابين » تحب رجلا امريكيا غنيا عرفها منذ الصبا ، تحبه حبا جما ولا تطمع إلا فى أن تكون له زوجا ، وهذا الرجل يحبها ، وقد ألح عليها فى الزواج ولكنها رفضت دون أن تبين لهذا الرفض سبباً . فاذا كانت هذه الليلة أقبل هذا الرجل الامريكى واسمه « ستانجى » (Stangy) واعلن اليها أنه مسافر الى حيث لا يعود مسافر الى امريكا ، معتزم ان يجد فيها من العمل ما يجعل العودة عليه أمراً مستحيلا . تنكر ذلك وتحاول ان تحمله على العدول عنه وتنبئه بأنها تحبه وتطمع فى أن تكون زوجه ، ولكن شيئا واحداً يمنعها من ذلك وهو ابنتها ، تريد ألا تتزوج ولا تغير من حياتها شيئا قبل ان تجد لابنتها زوجا ، فان ثروتها محدودة والناس يعلمون من

أمرها ما يعلمون ؛ فاذا تزوجت فقد تصبح أما وقد توجد لابنتها شريكا فى هذه الثروة فينصرف الناس عن هذه الفتاة لقلة ثروتها ؛ وهى تريد أن تكون ابنتها سعيدة وأن تجد زوجا كفؤا ؛ وهى تأبي أن تكون سعادتها الخاصة عقبة فى سبيل هذه الفتاة . يفهم الرجل هذا كله ويبذل ما يستطيع من قوة ليملأها أمنا وطمأنينة على مستقبل الفتاة وثروتها ؛ فهو غني ومهما يرزق من ولد فلن تخشى هذه الفتاة على ثروتها الحاضرة . ولكن «سابين» تأبي وتلح فى الاباء حتى ينصرف عنها الرجل ويمضى الى حيث لا يعود . فقد بدأت اذن بتضحية سعادتها فى سبيل ابنتها . ولا يكاد هذا الرجل ينصرف حتى تقبل الفتاة فتنبىء أمها بحبها وتطلب منها ان تقر هذا الزواج . تتمنع الأم لانها لم تستمتع بعد بابنتها ولانها تخشى المستقبل ولكن حب الفتاة أقوى من تمنع الام . فما أسرع ما تنتصر عليه .

* * *

فاذا كان الفصل الثاني رأيت الفتاة قد تزوجت من صاحبها وهما يعيشان وحدهما والفتاة سعيدة كل السعادة ؛ وتفهم من حديثها مع صاحبة لها أن امها ليست سعيدة وأنها قد شقيت كل الشقاء حين اعتزم الزوجان ان يسكنا وحدهما . ثم يقبل زوجها كئيبا

كاسف البال ؛ فما تزال به تسليه و تعزيه وهى تجهل مابه ولا تظن الا أنه متعب لكثرة العمل . ثم تتركه ويأتي أبوه، فيظهر لك أن الفتى سيء الحظ فى عمله وأنه مشرف على الافلاس وأنه قد أخفى هذا كله على زوجه ضنا براحتها وأملها فى الحياة، ولكنه قد بعث أباه يتوسل الى أم زوجه وجدتها فى أن تقرضاه مقداراً ضخما من المال يصلح به من أمره، فذهب الرجل وقص الامر على هاتين المرأتين وهما مقبلتان . فينصرف الشيخ ليظهر زوج ابنه على جلية الامر ؛ وتقبل « ساين ». فاذا قص عليها صهرها جلية أمره وأنبأها بأنه لايستطيع أن يحتمل الافلاس ولا أن يعرض زوجه لآلام هذا الافلاس وما يتبعه من الأعمال القضائية ولا أن يعرضها للفقر والفاقة، وأنه يؤثر الموت على بعض هذا جزعت الأم وأعلنت الى صهرها أنها ستعينه . ولكنها عاجزة عن معونته فهى لاتملك شيئاً وانما الثروة كلها ملك العجوز . فستتوسل الى العجوز اذن فى ان تقرضه هذا المال . ينصرف الفتى وتقبل العجوز، وهنا موقف من أشد المواقف تأثيراً فى النفس ! تعرض « ساين » الامر على أمها وتطلب اليها المعونة ؛ ولكن العجوز تأبي كل الاباء . تأبي لانها قد عرفت عبث الاصهار بأموال الاحماء وتذكر ابنتها بما كان من أمر زوجها ؛ وأنه أضاع على الاسرة اكثر من نصف

مليون فرنك ولكن « سابين » تلح على امها ، وتبالغ فى الالحاح ثم تغلظ القول حتى تخرج عن طور الاجلال لامها ، فتشعر بان هذه المرأة قد أخذت تضحى بامها فى سبيل ابنتها . تلح فلا تزداد العجوز إلا إصرارا على الرفض . ثم تعلن العجوز الى ابنتها أنها لن تستطيع أن تنفق شيئاً لانها عاهدت زوجها وهو يموت على ألا تعرض مابقى من الثروة لخطر قليل أو كثير ، ثم تنصرف وتترك ابنتها فى شيء من الذهول يشبه اليأس . وتأتي بعد ذلك مارى جان ، فاذا عرفت رفض جدتها أخذها شيء من الجزع عظيم ، وظلت تتوسل الى أمها فى أن تخلص زوجها من هذه الضائقة . وتشعر بان هذه الفتاة لاتفكر الا فى زوجها ولا تنظر الى أمها ألا من حيث هى وسيلة ممكنة لتفريج الكربة عن هذا الزوج ولكنها لاتشعر بذلك ولا تحسه ، فتبالغ فيه حتى تعرض على امها ان تكتب الى صاحبها الامريكى القديم تسأله هذا المال . تثور الام لهذا العرض وتأباه ، لان فيه امتهانا لكرامتها ولانها لا تستطيع ان تكتب الى هذا الرجل سائلة مستجدية بعد ان أساءت اليه ورفضت الاقتران به ، ولكن ابنتها جزعة والهة وهى لاتحتمل جزع ابنتها ، فما أسرع ماتجيب الى الكتابة ، وفى نفسها مع ذلك شيء من الامل ضئيل ، فهى ترجو ان يعيد كتابها

فى نفس صاحبها ذكرى الحب القديم فينجذ صهرها من جهة ويفكر فى الزواج من جهة اخرى .

فأنت ترى هذه المرأة تسيء لاول مرة الى امها فى سبيل ابنتها ، ثم تضحى بكرامتها الخاصة فى سبيل ابنتها ايضا ، وهى مع ذلك لاتشعر بما تفعل لأنها تفعل شيئا طبيعيا

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فقد بلغت الأزمة اقصاها وانتهى الخطب الى غايته . لم يجب الامريكى ولم تغير العجوز رايها فأعان أفلاس الفتى وحجز على مابقى له من ثروة ولامراته من متاع ، وهو يعيش مع امرأته فى بيت العجوز ترزقهم وتعولهم فى غير ضجر ولا من ، لأنها لا تحب الثروة للثروة ، وانما تريد أن تكون هذه الثروة موئلا لابنتها وذويها لاينالها العبث . هى اذن تضحى بصهرها فى سبيل ابنتها .

ولكن لهذا الصهر بقية من أمل فقد يستطيع ان يتفق مع الدائنين فيسترد شيئاً من شرفه التجارى ، وهو فى ذلك محتاج الى مائة الف فرنك يرضى بها هؤلاء الدائنين ، والعجوز وحدها تستطيع أن تقرضه هذا المقدار ، ولكن العجوز تأبى بعد خصام عنيف . وكانت الفتاة قد احتملت هذه الخطوب كلها فى شجاعة

وجلد واشتركت فى جهاد عنيف لتمنع زوجها من الانتحار . فلما رأت جدتها تغلو فى الاباء حتى كادت تقضى على كل أمل لزوجها الذى تحبه خانتها القوة وأعوزها الجلد فأصابها إغماء ، ودعى الطبيب فانبأ بأنها فى خطر وان مصدر هذا الخطر اضطراب الاعصاب

هنا تخرج «ساين» عن طورها فلا تفكر الا فى شىء واحد هو إنقاذ ابنتها من الموت. وقد ضرب الدائنون للفتى موعداً ظهر اليوم الذى نحن فيه ، ونحن فى الساعة العاشرة صباحا ، والفتى يتحدث الى أبيه ينبئه بهذا كله ، ولكنه ينبئه أيضاً بأن الله قد أراد إنقاذ الفتاة من الموت ، فقد أقبلت أمها فرحة مبتهجة وأنبأتهما بأنها قد وجدت المال وأنها ذاهبة الى المصرف لقبضه ، ثم يأتي الطبيب وينصرف مع الفتى لعيادة المريضة ، وتقبل ساين فى ذهول يشبه الجنون ، فلا يكاد الشيخ يستنبئها حتى تنبئه انها رأت ابنتها مشرفة على الموت فاقترفت الاثم وارتكبت الجريمة ، سرقت أمها وأمها نائمة ، سرقت طائفة من الاوراق المالية وأمضت بقية الليل تقلد إمضاء أمها حتى أجادت التقليد . فلما كان الصباح أنبأت ابنتها بأنها وجدت المال ، وذهبت الى المصرف فلم يشك أحد فى صدقها ودفع اليها المال فقبضته ، ولكنها أرادت أنه

تمضى الوصل فكتبت اسم امها مكان اسمها الخاص ، وفطن لذلك صاحب المصرف فاسترد المال،ولولا صلة سابقة بينه وبين الاسرة لألقى بهـا فى أعماق السجون . وهى مع ذلك مضطرة الى أن تكذب على ابنتها ، فلو قد أنبأتها بالحق لصعقها النبأ وقضى عليها ثم يعود الطبيب فينبيء بأن الفتاة ما زالت فى خطر وبأن العناية القوية قد تنقذها ، ولا بد من نقلها من باريس الى جبال الألب لتقضى فيها الصيف ، ولا بد من العناية بأعصابها . ولكن الشدة لم تبلغ أقصاها بعد ، فالطبيب يعلن الى سابين أنهـا اذا وافقت ابنتها فلا بد من أن تترك أمها فى باريس لأن أمها تشكو مرض القلب ، وهى اذن لا تستطيع أن تعيش فى الاماكن المرتفعة

ينصرف الطبيب وتقبل العجوز، فلا تكاد تعلم بأن ابنتهـا تريد السفر حتى تعلن أنها سترافقها فيه . تأبى سـابين ، وتلح العجوز وحجتها ناهضة ، فسابين لا تريد أن تفارق ابنتها ، وهى أيضاً لا تستطيع أن تفارق ابنتها . فاما أن ترافقها فى السـفر ، وإما أن تبقى معها فى باريس وأن تترك الفتاة تسافر مع زوجها . وهى تفترض ذلك وتنذر بقطع النفقة عنهم جميعاً اذا لم تجب اليه . ثم تنصرف مغضبة ، وتقبل الفتاة ومعها زوجها وفيهما شىء من الأمل يحيى نفس هذه المريضة . ولا يكادون يتحدثون ولا تكاد

الفتاة تشعر بشيء من التردد فى صوت أمها حتى يعاودها الاغماء ، فاذا أفاقت أعلنت اليها أمها أن الأزمة قد انحلت وأنها تحتمل تبعة ذلك وأن زوجها يستطيع أن يطالب الى الدائنين أجلا فلا ينقضى هـذا الأجل حتى تكون قد حصلت على المال . ثم تنبىء ابنتها بأنها ستبقى فى باريس مع أمها العجوز ، فتأبى الفتاة وتتوسل الى أمها وتلح فى التوسل، ويكاد يعاودها الاغماء ، فلا تستطيع سابين الا أن تجيبها إلى ما تريد . هى اذن قد ضحت بأمها تضحية أخيرة فستحملها إلى حيث تلقى الموت ، وهذا كله فى سبيل ابنتها .

* * *

فاذا كان الفصل الرابع فالقوم جميعاً فى ناحيـة من جبال « الألب » ، وقد جعلت آثار هذا الجو تظهر فى العجوز فيلاحظ ضعفها واضطرابها ، ولكن هـذا الفصل هو موضع العظة وموضع اقتناع « سابين » بالنظرية التى بسطها الكاتب فى أول القصة . ذلك أن صاحبها الامريكى يلقاها فى هذه الناحية ، يلقاها لأن كتابها اليه كان لم يصل اليه أمريكا وقد وصل اليه هنا صباح هـذا اليوم ، ثم بحث عنها فعلم أنها تقيم فى هذا الفندق ، فأسرع اليها معتذراً مقدماً ما طلبت اليه من معونة . تشكره « سابين » ثم لا تلبث أن ينالها شىء من اليأس عظيم لأن صاحبها ينبئها

بأنه تزوج ورزق غلاما وفقدهذا الغلام،فهو لايستطيع أن يعيش في البيت الذى فقد فيه هـذا الغلام وامرأته كذلك لا تحتمل هذا البيت . ولهذا ترك أمريكا الى فرنسا . يكاد يصعقها نبأ الزواج ، ولكن قصة هـذا الطفل تنسيها يأسـها فتفكر في ابنتها وما تعرضت له من خطر ،وتعزى صاحبها ويشترك هـذان العاشقان في عاطفة واحـدة هى تلك التى تفنى الآباء فى الأبناء . ويقدم الصهر فيقدم اليه الامريكى معونته ، ثم تنصرف ساين ويقترح الامريكى على هـذا الفتى أن يذهب الى أمريكا ليعمل فى أرضـه حيث يصلح من أمره ويصـل من الثروة والغنى الى ما يريد فى زمن قصير . ولا تـكاد امرأته تسمع هذا كله حتى تغتبط به وتبتهج له وتشجع زوجها ، وتنبىء بذلك أمها فتغتبط به أيضـاً ولـكنها تنبئها بأنها سـترافق زوجها فى السـفر الى أمريكا . هنا تجزع الأم جزعا شـديداً وتتوسل الى ابنتها فى أن تبقى، ولـكن الفتاة ترفض فى غلظة أن تترك زوجها لتبقى مع أمها. تضرع الأم وتقسو الفتاة،ثم يثور ثائر الأم فتذكر صهرها بالمكروه وتنذرها ابنتها فلا تحفل بالنذير . هنا تعلن الفتاة سخطها وتنتهر أمها فى عنف ، ثم تتركها الى حيث لا تعود ، وتدعو الام ابنتها فلا تجيبها فتلتفت وراءها مستغيثة بأمها العجوز فتقبل العجوز ، وما تـكاد

تسمع النبأ وترى ابنتها تبكى وتعول حتى تعلن الى ابنتها أنها تنزل عن ثروتها كلها لتحول بينها وبين هذا العذاب . فليبق الزوجان اذن ، ولكن الزوجين لن يبقيا ؛ فلقد فتح الامريكى أمامهما باباً من الأمل تحقر دونه هذه الثروة . تبكى ساين وتشعر الآن بأنها قد ضحت بأمها ونفسها وكرامتها، فى سبيل ابنتها ، وأن ابنتها لم تحفل بشىء من ذلك بل ضحت به كله لتسافر مع زوجها ، تشعر بهذا فتستغفر أمها ، وتشعر بأن أمها وحدها هى التى أحبتها ، ولكن أمها قد سقطت ! فهى لا تجيب ، وتلتفت ساين فاذا نوبة من مرض القلب قد أصابت العجوز فقضت عليها . تنظر الى ذلك فتجزع وتصيح : « قتلت أمى فى سبيل ابنتى » ! .

القيد

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « بول هرفيو »

Les Tenailles par Paul Hervieu

لعلك تذكر قصة التيه وتذكر موقف تلك المرأة بين زوجها القديم والجديد و بين ابنها ؛ وما نشأ عن هذا الموقف من مصاعب وعقاب لم يكن الى تذليها من سبيل . فى تلك القصة طلب الطلاق فظفرت به المرأة التى طلبته ، ولكنها لم تسعد بالطلاق بل كان كل مصدر شقائها ، ولم يسعد بالطلاق زوجها القديم ، ولم يسعد به زوجها الجديد وإنما لقيا منه ضروبا من المحن والالام انتهت بهما الى الموت ، ولم يسعد الطفل بهذا الطلاق وإنما شقى الشقاء كله ، تنازعه رجلان ثم أصبح يتيما . أبيح الطلاق اذن ولكنه لم يستطع ان يضمن الخير للزوجين اللذين ساءت بينهما العشرة . فاضطرا الى أن يفترقا

وفى هذه القصة التى نعرض لها اليوم نظرية أخرى تناقض هذه النظرية مناقضة تامة ، ولكنها مع ذلك صحيحة صادقة . نظرية تثبت أن حظر الطلاق أو عسره لا يضمنان الخير ولا يوصلان الى السعادة ايضاً ؛ وإنما قد يستلزمان من الشقاء والآلام

مثل ماتستلزمه إباحة الطلاق أو يسره . وإذن فالطلاق لايضمن الخير ، وحظر الطلاق لايضمن الخير ، والانسانية مضطرة الى أن تحمل الحياة على مافيها من خير وشر دون ان تجد السبيل الواضحة الى اتقاء الشر أو الاستزادة من الخير ؛ هى مضطرة الى أن تحتمل الحياة كما هى ، والى أن تؤمن بأن فى هذه الحياة قوة قاهرة ليست هناك سبيل الى ان تحملها على ماتريد فتجعلها خيّرة أبداً أو تمنعها أن تكون شريرة أبدا . ومهما نشرع من قانون ، ومهما نبتدع من حيلة فلن نصل الى اتقاء الشر ولن نجعل الحياة خيراً خالصاً . وهذه القوة القاهرة ليست شيئاً مستقلا بنفسه منفصلا عن أنفسنا مبايناً لطبيعتنا ،وإنما هى طبيعتنا نفسها ؛ هى هذه الطبيعة التى تجهل نفسها أو تنكر نفسها فيضطرها هذا الجهل الى أن تقدم على مالا تعلم ، ويضطرها الانكار الى أن تتورط فيما لاينبغى أن تتورط فيه. وستظل هذه الطبيعة على ماهى عليه من تورط فى جهل نفسها حينا وفى انكار نفسها حيناً وفى تضليل نفسها حيناً آخر ، ستظل كذلك فتسعد مرة وتشقى مرة أخرى ؛ ستظل كذلك لأنها ضعيفة بفطرتها ليست معصومة من الجهل ولا من الخطأ ولا من الضلال . ليحظر الطلاق أو ليبح فليس الطلاق مصدر سعادة ولا مصدر شقاء ، وانما النفس

الانسانية وحدها هى مصدر السعادة ومصدر الشقاء . الى هذه النظرية يرمى الكاتب فى قصته هـذه ، والى تلك النظرية رمى الكاتب فى قصته تلك ؛ وكلتا النظريتين صحيحة ؛ واذن فالكاتب من المتشائمين ، أو قل إنه من الشاكين ، والشك والتشاؤم قد يحدثان فى النفس الانسانية أثراً واحداً ، وهو سوء الظن بالحياة وقلة الأمل فى السعادة . غير أن الشك أهون احتمالا من التشاؤم فهو لا يخلو من ابتسامة قد تكون مرة ولكنها ابتسامة على كل حال ، ولا يخلو من سخرية قد تكون مؤلمة ولكنها تؤلمك وتضحكك فى وقت واحد ، وقد يكون من الخير أن تألم ضاحكا لا أن تألم باكياً . وفى الحق أن هذا الكاتب النابغة يؤثر الشك على اليقين ، وهو يسخر من الحياة الاجتماعية وما استحدث فيها من نظم وشرائع ، هو شاك وهو مستهزىء ، ولكن شكه واستهزاءه لا يتناولان كل شىء ؛ وانما يتناولان غرور الانسان وثقته بنفسه وإيمانه بالرقى وبأن هـذا الرقى قادر على أن يصلح من حاله ويخفف من آلامه . يشك الكاتب فى هذا كله ويسخر الكاتب من هذا كله ، ويضع هذه القصص التمثيلية المختلفة يبين بها هذا الشك ويؤيد بها هذه السخرية ، ويثبت للانسان فى طائفة من أطواره المختلفة أنه يجهل نفسه جهـلا تاما ، وهو يجهلها أشد

الجهل حين يعتقد أنه يعلمها أحسن العلم ، ولكن! ماغاية الكاتب من هذه القصص؟وما الذى يريد أن يصل اليه حين يضع يد الانسان على شقاء الانسان ويبين للانسان أنه عاجز مهما يفعل ومهما يبالغ فى الحيلة عن أن يحقق السعادة ويظفر بها كما يحب ويرضى؟ ليس للكاتب حظ من هذه القسوة الشيطانية التى تبتهج وتلتذ حين ترى الناس يشقون ويشعرون بأنهم أشقياء ويؤمنون بأن ليس لهم من هذا الشقاء مخرج ، ليس للكاتب حظ من هذه القسوة الشيطانية التي تبتهج وتلتذ حين ترى الناس بائسين ، وأكبر ظني أن الكاتب انما يرمى بهذه القصص كلها الى شيئين اثنين كلاهما خير : الاول أن يشعر الانسان بانه مغرور ، وبأنه مسرف فى الايمان بقوته وعقله وشرائعه وقدرته على إصلاح أمره ؛ واذا شعر الانسان بأنه مغرور مسرف فقد يكون من الخير أن يخفف من هذا الغرور ويقتصد بعد إسراف . الثانى أن هذا الغرور وهذا الاسراف يغرسان فى نفس الانسان آراء شديدة قاسية خطرة يتخذها مقياسا للحياة فتنغص عليه الحياة ، ويؤمن بأن الطلاق مباح وبأن فى إباحته الخير فيسرف فى الطلاق ويبالغ فى الاستمتاع بحقه منه ، فلا يجر ذلك عليه إلا شقاء وألما ، ولو أنه فكر وروى واقتصد لاستطاع أن ينفى هذا الالم وهذا الشقاء

ويؤمن بان الطلاق محظور وأن الخير فى حظر الطلاق فيتشدد فى ذلك ويأبي الطلاق على نفسه وعلى الناس فلا يجر عليه هذا الاباء إلا شقاءو بؤسا. ولو أنه لان ولم يتشدد ، ولوأنه اقتصدولم يسرف لاستطاع ان يتقى الشقاء والبؤس وأن يعصم منهما نفسه وغيره أيضا . الى هذين الشيئين يرمى الكاتب فيما أظن ، واذن فهو ليس متشائما كل التشاؤم ، ليس يائساً من الخير مادام يرى هناك سبيلا الى الخير هى التواضع والاقتصاد . وهو ليس شا كا أو ليس مسرفا فى الشك مادام يرى أن هناك خيرا ممكنا وأن هناك شراً واقعاً وأن هناك سبيلا الى اتقاء هذا الشر الواقع وتحقيق هذا الخير الممكن . هو اذن لايتخذ الشك المطلق ولا التشاؤم المطلق مذهبا ولا عقيدة ؛ وانما يتخذهما منهجا من مناهج البحث ووسيلة من وسائل التحليل النفسى والاجتماعى . وقد رأينا وسنرى ان هذا المنهج قد يؤدى الى النتائج الصحيحة المعقولة . على أن الكاتب حين ينهج فى بحثه وتحليله منهج الشك وسوء الظن لايجاوز العصر الذى كان يعيش فيه؛ بل هو لايعدو الروح العلمى الذى انتصر فى هذا العصر الحديث والذى يعتمد قبل كل شىء على أن الحق ليس مطلقا . وإنما هو اضافى ؛ وعلى أن الشك هو

الوسيلة المعقولة الى اليقين الاضافى وعلى أن التواضع العقلى وحده هو الخلة التى تليق بالعلماء .

* * *

«ايرين فرجان (Irine Fergan) امرأة فى الثامنة والعشرين من عمرها ، بارعة الجمال ، متوقدة الذكاء ، حادة المزاج ، عصبية تشعر بكل شىء شعوراً قويا ، لا تعرف الهدوء فى شىء ، حياتها اضطراب متصل ، هى جذوة ملتهبة ولكنها تأكل نفسها ، غنية تزوجت من رجل كغيره من الناس ، وربما كان مسرفا فى الهدوء وجمود الطبع وفتور الشعور ، وربما كان بايسداً ، وهو على كل حال رجل كغيره من الناس ، مؤمن إيمانا قويا بنظام الجماعة التى يعيش فيها ، يرى أن كل خروج على هذا النظام أو مجاوزة للمألوف منه إثم لا ينبغى أن يغتفر ولا ينبغى ان يتورط فيه الرجل الذى يريد أن يعيش عيشة سهلة محترمة . وهو ضيق العقل محدود الذكاء قد اتخذ من الحياة الاجتماعية التى حوله قيودا تقيد عقله وتفكيره ، هو نقيض امرأته إلا أنه غني مثلها . وقد تزوج امرأته هذه وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، لم يكن لها اختيار فى هذا الزوج وانما تأثرت فيه بأختها » بولين (Pouline) التى كانت لها عليها سلطة أمها والتى كانت قد تزوجت من رجل يشبه هذا

الرجل شبها قويا ، فقبلت الحياة معه واطمأنت وقدرت أن اختها ستكون مثلها راضية مطمئنة ؛ ولكن الحياة أظهرت أن الاختين لاتتفقان فى المزاج ولا فى التصور ولا فى الحكم على الاشياء ، وأن ماترضاه « بولين » وتطمئن اليه قد تكرهه « إيرين » وتنفر منه أشد النفور

تزوجت « ايرين » من زوجها غير مختارة ، ولو أن لها الخيار أو لو أن لها قدرة على أن تفكر وتقارن وتحكم لتزوجت من شاب آخر « مشيل دافرنييه » (Michel Daverenier) الذى كان جارها وكان صديق طفولتها وصباها . ولكنها لم تكن تقدر الحب يومئذ ولا تعرفه فتزوجت من زوجها ، وأتم الفتي دراسته ثم شعر بأنه لايستطيع الحياة فى باريس فسافر الى بلاد اليونان والتحق بالمدرسة الفرنسية فى أثينا ، واشتغل هنالك بالبحث عن الآثار زمناً ثم عاد الى باريس وقد صلح أمره وأصبح ذا مكانة فى الجامعة وعادت الصلة بينه وبين « ايرين »

* * *

فاذا كان الفصل الاول فقد مضى على هذا الزواج عشر سنين ، وقد انتهى الامر بين الزوجين الى فساد ليس بعده فساد « فايرين » تغاضب زوجها مغاضبة متصلة ، لا تستطيع أن تحتمله

ولا أن تطمئن الى جواره ، بل يكفى أن تراه لتعبس ، وأن تشعر بأنه منصرف لتفرح . وقد جلست اليها أختها فى هذه الليلة بعد عشاء حضره صديق صباها ، وأخذت أختها تتحدث اليها تريد أن تصرفها عما هى فيه من مغاضبة لزوجها وتقنعها بأن ترضى ماقسم لها من الحظ ، ولكنها لاتجد منها الا إباء ونفوراً لأنها لاتستطيع أن تجد شيئاً ولو قليلا يوجد بينها وبين زوجها صلة ما . هما مختلفان فى الطبع ، مختلفان فى المزاج ، مختلفان فى العاطفة ، بل قل إن « ايرين » ليست إلا عاطفة متوقدة وأن زوجها يخلو من العاطفة خلواً تاماً . هى تبغض زوجها فاذا سئلت عن مصدر هذا البغض أجابت : أبغضه لأنه لايستطيع أن يجعلنى أحبه ، وأبغضه لأنه لا يستطيع أن يبعث فى نفسى عاطفة ما حتى عاطفة الاشفاق عليه ، وأبغضه لأن الصلة بيني وبينه ليست إلا هذه الصلة الممقوتة صلة السيد بالعبد ، فهو يعتقد أنه مولاى ، وهو مقتنع بأنه محق فى كل شيء ، يصبح وقد اعتقد بأنه سيكون محقاً حتى يمسى ؛ محق حين يخالف الخدم ؛ محق حين يخالف الناس ، محق حين يخالف امرأته ، محق فى كل شيء ومع كل انسان . ثم تنصرف لتصالح من أمرها ويأتي الزوج فتتحدث اليه « بولين » فيما بينه وبين زوجه من خلاف فاذا هو يرى الخلاف ويشعر به ، ولكنه لايفهمه لأنه

مطمئن أمام ضميره ، يعتقد أنه قد وفى بعقد الزواج وضمن لامرأته حياة صالحة منظمة فيجب عليها أن تضمن له حياة كحياة غيره من الناس ؛ وهو لا يطلب شيئاً غير هذا لأنه لا يفهم شيئاً غير هذا ؛ وهو لم يتغير وانما امرأته هى التى تغيرت فيجب عليها أن تعود كما كانت وأن تشعر بواجب الزوجية وتؤدى هذا الواجب كما ينبغى .

يظهر لك أن التناقض بين هاتين الطبيعتين شديد ، وأن ليس لما بينهما من الخلاف حل إلا أن يفترقا أو أن يكون أحدهما من القوة بحيث يستطيع أن يرغم الآخر على الخضوع لسلطانه وعلى أن يكون له أسيراً ينصرف الزوج ويأتي « ميشيل » الصديق القديم ومعه زوج « بولين » واسمه « فرنان فالانتون » Fernand Valanton وهما يتحدثان فى أمر الزواج فيأبي ميشيل أن يتزوج ؛ لأنه يعتقد أن الزواج شىء لا ينبغى أن يختاره الانسان وإنما ينبغى أن يخضع له ، فالانسان لا يولد لأنه أراد أن يولد ، ولا يموت لأنه أراد أن يموت ؛ وانما يولد ويموت لأن الطبيعة أرادت ذلك ، فيجب أن يتزوج لا لأنه أراد أن يتزوج بل لأن الطبيعة أكرهته على أن يتزوج لأنها ملأت قلبه حباً وملأت قلباً آخر حباً ؛ فيضطر هذان القلبان الى أن يقترنا . هذا وحده هو

الزواج المعقول الذى تقره الطبيعة وترضاه . والناس قد يكرهون الطبيعة على ما لا تريد أحياناً فيتزوجون فى غير حب ؛ ولكن الطبيعة منتصرة أبداً فهى ترغم الناس على أن يحبوا ، فاذا اقترن اثنان دون أن يحب أحدهما الآخر فاما أن تنتهى العشرة بهما الى الحب فتنتصر الطبيعة ، وإما أن تنتهى العشرة بهما الى البغض فينصرف كل منهما الى الشخص الذى كان ينبغى أن يحبه وكان ينبغى أن يتزوج منه ، وتنتصر الطبيعة ايضاً .

يبسط الفتى هذه النظرية فتطمئن اليها « إيرين » لأنها ساخطة ؛ وتدهش « بولين » لأنها راضية بحظها فى الحياة ؛ ولهذا تسأله فى شىء من السخرية : أتعلمت هذا فى المدرسة الفرنسية فى أثينا ؟ كلا ! يا سيدتى وانما تعلمته فى الحياة

ينصرف الزوجان وقد أعلن اليهما ميشيل أنه مستأنف سفره الى اسيا الصغرى لأنه كلف البحث عن الآثار فيها ؛ فاذا خلا الى صاحبته سألته عن هذا السفر ، فلا تلبث أن تتبين أن مصدره الحب فهو يحبها ويعلم أن ليس له عليها سبيل ، وأنه لا يستطيع الحياة فى باريس مع هذا الحرمان ، ولكنها أيضاً تحبه ولا تفهم أن يفترق المحبان مهما يحتملا من الخطوب . فكل شىء أهون من الفراق .. وهى تلح عليه فى أن يبقى ليكون لها أملا وعونا

على احتمال الحياة . هو يريد ذلك، ولكنه لايستطيعه لأنه شديد الغيرة يؤذيه أن يرى زوجها وأن يفكر فيما بينه وبينها من صلة الزواج . هنا تعده بما يهدىء غيرته ، تعده بأنها لن تكون لزوجها أبداً ، وأنها ستستأنف حياة العذارى ، تعد وتقسم ، فيطمئن وينصرف وقد وعد بالبقاء

تلبث وحدها حيناً ، ثم يعود زوجها فيدخل دون أن تشعر بعودته ، ولكنه قد عاد لطيفاً ظريفاً فهو يتملقها ويتحبب إليها ، ويريد أن يخاصرها وأن يرافقها الى غرفتها ، فتدفعه دفعاً شديداً ثم تفلت منه الى حيث تستخفي وتوصد من ورائها الباب ، فينطلق لسانه مغضباً بهذه الجملة : « ستدفعين ثمن هذا »

* * *

فاذا كان الفصل الثاني فقد مضت أشهر على هذا الموقف . وازداد الأمر فساداً بين الزوجين ، انقطعت بينهما كل صلة حتى استيأس الرجل وظن بامرأته المرض أو الجنون فأزمع أن ينقلها من باريس الى الريف ، وأقبل يعلن اليها ذلك على أنه أمر لا يقبل المناقشة ولا الجدال ، ثم يتركها لتفكر ، ولكنها لا تريد أن تفكر ولا تريد أن تأتمر ، وإنما تريد أن تفارق زوجها ، تفارقه بالطلاق إن رضي الطلاق ، وبالموت إن رفض الطلاق

وتأتي أختها فلا تبلغ من تهدئتهـا شيئاً وانما تقتنع بوجوب الطلاق وتأخذ نفسها بالسعي فيه ؛ تذهب لتلقى الزوج وتتحدث اليه فى الطلاق ، ويأتي ميشيل فإذا هو لا يطيق صبراً على هذه الحال ، وإذا هو قد اعتزم السفر من جديد ؛ فتضرع اليه فى أن يبقى ؛ وتنبئه بأنها جادة فى الطلاق وأنها ستظفر به وستكون له زوجاً ، وان ذلك قد يتقرر الآن ، فلينتظر ولينتظر فى مكان قريب لتستطيع أن تنبئه النبأ بعد حين

ينصرف الفتى وقد تمت بينهما الخطبة ، وتأتي أختها فتنبئهـا بأن زوجها يرفض الطلاق ، ويأتي الزوج نفسه فيعلن اليها فى عنف وشدة انه لن يطلقها مهما تفعل ؛ وان القانون يؤيده فى ذلك ؛ فهو لم يقترف اثما ولم يسيء الى زوجه ؛ وانمـا أدى واجبه كما ينبغى ؛ واذ كان قد أدى واجبه فهو يحتفظ بحقه ؛ وبحقه كاملا ، لا يريد أن يطلق ؛ ولن يطلق مهما تتكلف زوجه من حيلة أو نذر

وفى الحق أن زوجه تتكلف الحيلة فتضرع وتستعطف ؛ ثم تنذر باقتراف الآثام ، ثم تضرع وتستعطف فلا تجد منه الا اباء ورفضا . يتركها وقد أعلن اليها اصراره على أن ينقلها من باريس ، يتركها وقد ملكها الغيظ ثم الهلع ثم شيء يشبه الذهول فتسرع الى

الباب وتدعو صاحبها ، فاذا أقبل تلقته بهـذه الجملة : « أما أنت فافعل بي ما تريد » .

*
* *

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هذا الموقف عشر سنين، ونحن فى قصر من قصور الريف يعيش فيه الزوجان وقد عاد الى حياتهما شيء من الهدوء والدعة ، ويعيش بينهما غلام فى العاشرة . فاما الزوج فسعيد مغتبط ، يعلم أن زوجه لا تحبه ، ولـكنه يعلم أنها قد عادت الى الطاعة وهذا يكفيه . وأما إمرأته فكئيبة كاسفة البال لا تبسم لشيء ولا تحفل بشيء ولا تحيا الا لابنهـا

وقد نزل على الزوجين ضيفان هما بواين وزوجها ، فترى الرجلين يتحدثان فيـذكران ما كان منذ عشر سنين ، ولـكنك تشعر بأن هنالك خلافا جديداً قد نشأ بين الزوجين وهو شديد الخطر ، أشرف الغـلام على العاشرة فلا بد من أن يذهب الى المدرسة ، وأمه تأبي ذلك كل الاباء ، وستفتح المدرسة غداً فلابد من ارغام الأم على فراق ابنها . والأب مصر على أن يسلك فى هذه المسألة مسلكه فى غيرها من المسائل ، على أن يحتفظ بسلطته الا بوية كما احتفظ قديماً بسلطته الزوجية ، ثم ينصرف صاحبه ويبقى هو ، وتقبل الاختنان فيتركهما حينا لأمر ما ، فتذكران الماضى

وتفهم من حديثهما أن ميشيل قد مات لأنه كان مسلولا قد ورث السل عن أبيه ، فاذا ذكر لفظ السل رأيت على وجه الأم وفى لفظها ألما ظاهراً ، ثم يقبل الصبي فاذا هو نحيف ضعيف ، واذا هو يذكر سفراً قريباً قد وعده به أبوه فلا تحفل أمه بشيء من ذلك وإنما تأخذ فى مداعبته وتأنيبه لأنه عاد اليها قذر الثياب وقد كان نظيفاً . وهى فى هذا إذ يقبل الزوج فينصرف الغلام مع خالته لتصلح من أمره . ويتحدث الزوجان فى أمر الغلام والمدرسة ، فتأبى الأم وتلح فى الاباء ، ويريد الأب ويلح فى الارادة ، ثم يستحيل الامر بينهما الى العنف ، فاذا أعلنت أن ابنها ضعيف رد الأب بأنها مصدر ضعفه لانها تسرف فى العناية به واذا أعلنت الام أن الاطباء يلحون فى حاجة الطفل الى أمه رد الاب بأنها قد أفسدت الاطباء . ثم يعلن اليها آمراً عنيفاً ، ان الغلام يجب أن يسلك سبيل أبيه وأن ينشأ كما نشأ وأن يذهب الى المدرسة ، وأنه ذاهب اليها الليلة ، وأن عليها أن تعد متاع الطفل اثناء يأمر هو باعداد العربة

هنا تثور الام وتعلن اليه فى ثورتها أن الطفل ليس ابنه ! لا يكاد الرجل يصدق ، ولكن الحقائق البينة لا تزال تفجأه واحدة بعد أخرى حتى يتبين أن امرأته قد خانته ، وأن الطفل

ليس ابنه . وهو لا يعلم من أبو الطفل ، ولكنك أنت قد علمت من أبوه .

فانظر الى هذا الرجل العنيف القاسى الذى لم تكن تعرف الرحمة ولا الضعف الى نفسه سبيلا ، هو الآن يبكى لأنه قد جرح فى كبريائه ، هو يبكى وزوجه جامدة العين مرفوعة الرأس لأنها الآن ليست زوجا وليست امرأة خائنة ، وانما هى أم بائسة تدافع عن ابنها . ويقبل الصبي فرحاً مبتهجاً فيسأل : متى السفر ؟ فاذا رأى الرجل يبكى والمرأة تنتصر سأل : ما بال أبيه يبكى الان ولم يكن يبكى قط ؟ وما بال أمه لا تبكى وقد كانت حياتها بكاء ؟ تجيبه أمه لاني فقدت الدموع يا بني . ثم تصرفه ويخلو الزوجان أو العدوان ،فاذا الرجل يطلب الطلاق واذاالمرأة تأباه ؛ يطلبه لانه أهين ، وتأباه لانهـا تريد أن تحتفظ بمستقبل ابنها ، واذا الرجل مرغم بحكم القانون على أن يعترف ببنوة هـذا الطفل الذى ليس له ، واذا هو مرغم بحكم الاوضاع الاجتماعية التى يقدسها على ألا يعلن الى الناس أن امرأته خانته وانه عاش فى الخيانة عشر سنين

فيرجان : ـ وإذن فكيف تريدين أن أعيش معك وجها لوجه دائما دائما ؟ ! أى حياة تريدين أن أحيا ؟ !

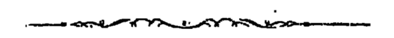
ايرين : ـ الحياة التى كلفتنى أن أحياها الى اليوم ، لقـد أخذنا فى قيد واحـد ، فلتشعر الآن بثقله ولتجره أيضـاً فقد جررته وحدى زمناً طويلا !!

فيرجان : ـ ليس فى الحياة عدل !

ايرين : ـ فى الحياة عدل الشقاء المشترك !

فيرجان : ـ أنت مجرمة وأنا برىء !!

إيرين: ـ نحن شقيان ، واذا نزل الشقاء فالناس جميعاً سواء!!



قانون الرجل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « بول هرفيو »

لعلك تسأل نفسك : ما باله لا يجد سبيلا الى مفارقة هذا الكاتب والانتقال منه الى غيره ؟ فقد حللت له قصصاً ثلاث وكنت استطيع أن أكتفي بهذه القصص الثلاث . والحق أني لا أجد سبيلا، أو لا أكاد أجد سبيلا الى مفارقة هذا الكاتب ؛ لأن صحبته لذيذة ولأن إعجابي به واطمئناني اليه لا يكادان يحدان . صحبته لذيذة وإعجابي به شديد لأني لا أعرف تمثيلا أخصب من تمثيله ولأني لا أعرف قصصاً أغنى من قصصه ولأني أجد في صحبته لذة العقل ولذة الشعور معا ولاني أجد في صحبته هذه اللذة التي يجدها من يسمع لفيلسوف وفني في وقت واحد ، فهذا الكاتب الذي أوثره قد جمع بين الفلسفة والفن فارضى العقل وأرضى الشعور . هو فيلسوف فلا تكاد تقرأ له قصة الا رأيتها يدور حول فكرة فلسفية أو نظرية من نظريات الاجتماع ، يدرسها درسا متقنا ويحللها تحليلا دقيقا فيردها الى أصولها ويصل بها الى نتائجها المعقولة . وهو في الوقت نفسه فني لأنه على إيثاره

للمنطق وقواعد النظر العلمي فى البحث والتحليل يتخذ الفن وسيلة الى هذا البحث والتحليل ؛ فيثير عواطفك ويؤثر فى شعورك بحيث لا تستطيع أن تقول إنك قرأت كتابا علميا وبحيث لا تستطيع أن تقول إنك قرأت آية من آيات الفن ليس غير ، هو يضطرك ان تقول انك قرأت علماً وفناً واستمتعت بالعلم والفن مجتمعين ؛ ومن يدرى ؟ لعل هذا الفن هو الفن حقاً بل هو الفن من غير شك ، فليس من الحق أن هنالك تناقضا بين الجمال وبين الحقيقة ، وإنما الحق الذى لا شك فيه والذى قاله الناس وآمنوا به منذ سقراط أن الحق والجمال شيء واحد ، فالكاتب الفني حقا هو الذى يستطيع أن يظهر الناس فى غير تكلف ولا عنف على أن الحق جميل وعلى أن الجمال حق . وبهذا يمتاز هذا الكاتب الذى لا أجد الى مفارقته سبيلا. يمتاز بهذا وبشيء آخر لعله هو الذى يحببه الىّ ويجعل اتصالى به شديدا ؛ وهو انه يمثل تلك الفكرة القديمة التى أوجدت فن التمثيل عند اليونان القدماء والتى مهما يختلف كبار الشعراء من اليونان فهم جميعا خاضعون لها ، متأثرون بها مترجمون عنها ؛ وهذه الفكرة ـ التى تجدها عند «ايسكيلوس» كما تجدها عند «سوفوكليس» وعند « اوروبيدس» بل تجدها فى الشعر القصصى نفسه فى « الالياذة» وفى «الاودسا»

بل تجدها فى الحياة القديمة كلها ؛ هى أن هنالك شيئا فوق إرادة الفرد وفوق إرادة الجماعات ، فوق التشريع وفوق الشرائع ، هنالك شىء فوق الأشياء يدبر هذه الاشياء ويسخرها . ولا أريد أن أغلو مع القدماء فأزعم كما كانوا يزعمون أن هذا الشىء الذى لامرد له ولا فرار منه مسيطر بطبعه على كل إرادة فردية واجتماعية ، بل مسيطرة على ارادة الالهة أنفسهم ، هذا الشىء هو القضاء الذى تمثله لنا اليونان فى صور مختلفة ولكنه فى جميع هذه الصور عابث بالافراد والجماعات ، عابث بعقول الناس وقواهم ، عابث بسلطان الآلهة وارادتهم . نعم ! هذا الشىء هو القضاء الذى ننساه وننصرف عنه مغرورين مرة بذكائنا ومرة بشعورنا وحينا بثروتنا وحينا بقوتنا المادية ؛ ننساه فنمضى كما تدفعنا الأهواء ، ونسير حيث يوجهنا الغرور ، حتى اذا خيل الينا أنا قد بلغنا من حياتنا ما نريد قال القضاء كلمته فأفسدت كل مادبرنا ونقضت كل ما أبرمنا وألزمتنا أن نعترف أمام انفسنا وأمام الناس وأمام القضاء نفسه بأن هذه الاشياء التى غرتنا وفتنتنا ليست إلا ضربا من الباطل ولونا من الخيال ولعبة فى يد القضاء . تجد هذه الفكرة فى شعر القدماء من الممثلين اليونانيين ، وتجدها فى قصص هذا الكاتب ، ألم تجدها فى قصة «التيه» ألم تجدها فى غيرها من القصص التى حللتها فيما مضى

ألم تشعر حين قرأت هـذا التحليل أن الكاتب يسخر من قوة الانسان وعقله ورقيه وحضارته وتشريعه وشرائعه ، ويزعم أن هـذه الأشياء كلها عاجزة كل العجز عن أن تضمن له السعادة وتحميه من الشقاء؟

تجد هذه الفكرة نفسها فى هذه القصة التى أريد أن أحللها اليوم . ومع ذلك فيظهر من عنوان هذه القصة أن الكاتب يريد أن يلقى على شيء معين من الاشياء تبعة ما يلقاه قسم من أقسام الانسانية من ضروب التعس والشقاء، يظهر من العنوان ومن القصة نفسها أن الكاتب يريد أن يرد ما تلقاه المرأة من ظلم وجور ، ومن شقاء وسوء حال الى التشريع الذى يقوم به الرجال وحدهم دون النساء فيستأثرون لأنفسهم بالخير، ويتخذون لمنافعهم وشهواتهم من هذا التشريع معاقل وحصونا . ولو قد اشترك النساء فى التشريع ووضع القوانين لاستطعن أن يحمين منافعهن وحقوقهن وأن يكبحن من جماح الرجال ولو قليلا وأن يضعن أنفسهن بمأمن من ضروب الظلم المختلفة التى يخضعن لها دون أن يجدن لهن نصيراً . يدل عنوان القصة وتدل القصة نفسها على أن مصدر الظلم الذى تلقاه المرأة هو أن المرأة محرومة حقوقها السياسية ، فلو أن لها هذه الحقوق ، لو أنها تنتخب وتنتخب وتأخذ بنصيبها من حقوقها

الاجتماعية كما تقوم بنصيبها من الواجبات الاجتماعية لاستطاعت أن تتقى هذا الظلم وأن تقف من الرجل موقف الخصم الكفء. فالكاتب اذن من أنصار المرأة ، بل من الغلاة فى نصر المرأة ، من الذين يطالبون بالمساواة السياسية المطلقة بين الرجل والمرأة. وأعترف بأن هذه القصة لو لم يكن فيها الا هذه الفكرة لما حفلت بها كثيراً . لا لأنى أخاصم النساء ولا لأنى أكره أن يكون لهن مثل مالى من الحقوق السياسية والاجتماعية ، فلو كان الامر بيدى لما اكتفيت باقرار المساواة بين الرجال والنساء فى هذه الحقوق ؛ بل لنزلت للنساء عن كثير من هذه الحقوق التى أجد فى الاستمتاع بها من الشر والعناء أكثر مما أجد فيه من الخير والراحة . ولكنى مع ذلك لم أكن لاحفل بهذه القصة لو لم تعن الا بهذه القضية الخاصة ، ذلك لان هذه القضية فى نفسها قابلة لضروب من الجدال والمناقشة لا حد لها ، ومن الذى يستطيع أن يقول أن مصدر ظلم المرأة هو حرمانها حقوقها السياسية ؟ ولم لا يكون مصدر ظلمها أنها أضعف من الرجل وأقل حظا منه فى هذه القوة المادية التي تقوم عليها الحقوق والواجبات فى كل حياة انسانية اجتماعية ؟ ولم لا يكون مصدر ظلم المرأة أنها كانت الى الآن أقل ذكاء من الرجل وأضيق حيلة.

وأضعف عقلا؟ ولم لا يكون مصدر ظلم المرأة أنها كانت الى الان أرقى من الرجل شعوراً وأرق منه عاطفة وأصدق منه ذوقا وأميل منه الى الجمال فكلفت بالخيال وكلف هو بالحقيقة الواقعة فربح الرجل وخسرت المرأة؟ ولم لا يكون مصدر ظلم المرأة هذه الاشياء كلها مجتمعة وأشياء أخرى لم أذكرها أو لم أصل اليها؟

القضية اذن فى نفسها قابلة للبحث والمناقشة ... ولكن فى القصة شيئاً آخر غير هذه القضية، غير منافع الرجل والمرأة، غير حقوق الرجل والمرأة، غير الجور والعدل، غير الظلم والمساواة، فيها أن سلطان القضاء فوق كل سلطان، ولهذا عنيت بهذه القصة وأرجو أن يعنى بها القراء

*
* *

«الكونت دى رجيه (Le conte Raguais) رجل من الاشراف عظيم الثروة، قوى الجاه، محافظ كل المحافظة على ما ورث من العادات والآداب سواء منها الحسن والقبيح، قوى الارادة الى حد العناد، محتفظ بحقوقه من حيث هو رجل، قد اكتسب هذه الحقوق بما له من قوة الرجولة ومن السلطان على الحياة الاجتماعية، وهو يحرص كل الحرص على ألا يفرط فى شىء من حقوقه ولا من عاداته ولا من آدابه، وعلى ألا ينزل عن جزء ولو قليل من

حريته ، وقد تزوج من فتاة جميلة غنية ولكنها يتيمة فلم تجد حين تزوجت من يحسن الدفاع عنها ولا الاحتياط لمستقبلها، وهى تحب زوجها حباً شديداً وتثق به ثقة لا حد لها وتعتمد عليه فى كل شىء الاعتماد كله ، تصدقه اذا قال وتؤيده اذا فعل ، حتى انها لتصدقه وهى تعلم أنه كاذب ، وحتى انها لتذعن له وهى تعلم أنه ظالم ، ذلك لانها تحبه الى حيث تنمحى ارادتها أمام ارادته . اسمها « لور » (Laure) وقد عاشت مع زوجها عصراً ورزقت منه فتاة فى الثانية عشرة من عمرها واسمها « ازابيل » (Isabelle) ولكن أخذت « لور » فى هذا العصر الاخير ترتاب وتشك فى أمانة زوجها وفى أن بينه وبين امرأة اخرى صلة ، فكانت كلما قوى فى نفسها هذا الشك أفضت به الى زوجها فيمحوه فى الحال بلطفه وظرفه ورقته وحسن حيلته ، فتعود المرأة الى الثقة والاطمئنان ، ثم لا تلبث الحوادث أن تعيد الى نفسها الشك ، فتشكو الى زوجها وتبكى وتظهر بائسة تعسة ، ويعطف عليها هذا الزوج ويترضاها ، حتى أصبح من أخلاقها هى أن تشك وتشكو ، ومن أخلاقه هو أن يعطف ويترضى . ولكن الحق الواقع أن هذا الرجل يخون امرأته ويخونها مع امرأة متزوجة هى صديقتها وهى مدام « دورسيو » (D'Orcieu) . يقوى الشك فى نفس « لور »

فلا تشكو الى زوجها فى هـذه المرة وانما تريد أن تتبين حقيقة الأمر فتخفى مابها من ريب وتكلف ادارة من هـذه الادارات السرية المنبثة فى باريس مراقبة زوجها. فما أسرع ماينبئها الرقيب بجلية الامر، ويعين لها المكان والزمان اللذين يلتقى فيهما الآثمان. فتكلف نفسها مراقبتهما ولا تشك بعد أن رأت بعينها أن زوجها يخونها ويخونها مع هذه المرأة. ولـكنها لاتتحدث إلى زوجها بشيء فقد كرهته، أو خيل اليها أنها كرهته، فهى لاتريد أن يترضاها أو يعطف عليها وانما تريد ان تخلص منه ومن عشرته، تريد الطلاق ولـكن ليس الى هذا الطلاق من سبيل اذا لم تقم امام القضاة برهاناً قاطعاً على أن زوجها قد حنث فى يمين الزواج. فهى تبحث الآن عن هذا البرهان القاطع، تبحث عنه فتفتح مكتب زوجها خلسة وتفتش فيه لعلها تجد رسائل حب قد تبودلت بينه وبين هذه المرأة، ولـكنها لاتظفر بشيء ولا تصل الا الى نتيجة واحدة وهى ان زوجها قد شعر بان مكتبه قد فتح فى غيبته فاتهم الخدم وذهب يشكو الى الشرطة

* * *

فاذا كان الفصل الاول رأيت « لور » تتحدث الى صديقة لها اسمها (هنريت) بكل ماقصصت عليك، وتنبئها بعزمها على

أن تطلب الطلاق . وهما فى هذا الحديث إذ يقبل زوج هـذه الصديقة واسمه (كربل) (Keerbl) فيشيران عليها بالروية وايثار الصلح ولـكنهـا تأبى . . . . ويأتى صاحب الشرطة ليتحقق آثار الجريمة فى مكتب « الـكونت » فاذا انبأته « لور » بأنها هى التى فتحت المـكتب أعان أنه لم يبق له عمل، فان لـكل من الزوجين أن يفعل مثل هذا مع صاحبه دون ان يجد القانون وسيلة للتدخل بينهما ؛ ويريد الرجل ان ينصرف فتستبقيه المرأة وتسأله هل من سبيل أن يعينها على أخذ زوجها متلبساً بجريمة الخيانة ؟ فيجيبها : نعم . ولـكنها لا تكاد تظهره على جلية الامر حتى يعتذر بأن القانون لا يبيح أن يتدخل الا اذا كان الاثم مقترفا فى بيت الزوجة أو فى بيت هو ملك الزوج، فاما اذا كان يقترف فى بيت لا يملكه احد الزوجين فليس للقانون ان يتداخل ! هذا اذا كان الرجل هو المتهم بالخيانة فأما اذا كانت المرأة هى المتهمة فللشرطة أن تتعقبها اذا طلب الزوج فى أى امكان . فهذا اول ظلم ينزله القانون بالمرأة مع أن هذا القانون قد عدل ، ويقال : انه قد عدل لمنفعة المرأة . اذن فليس لصاحب الشرطة أن يعين هذه المرأة على أخذ زوجها مقترفا للاثم حتى تستطيع أن تطلب الطلاق ، وليس بيد هذه المرأة برهان قاطع آخر، ولـكن صاحب الشرطة

يشير عليها بان تجد شهوداً متطوعين يوافقونها الى حيث يقترف الاثم فاذا رأوا وشهدوا بما رأوا حكمت المحكمة بالطلاق . وينصرف الرجل فتلجأ «لور» الى صديقتها فاما صديقتها ، فتقبل هذه المهمة لأنها امرأة مثل صاحبتها ولأنها تعطف على هذه الصديقة التعسة ، وأما الرجل فيأبى لأنه رجل ولانه صديق الزوج الخائن ولأن بينهما من الصلات والمودة مايحرم عليه مثل هذا العمل . فاذا طلبت « لور » الى صديقتها ان تتطوع بهذه الشهادة وحدها : أبى الزوج واعلن اليها أن امرأته لاتستطيع ان تشهد في مثل هذا الامر الا اذا أذن لها بالشهادة . فهذا ظلم آخر ينزله القانون بالمرأة فيمنعها حتى من الشهادة دون أن يأذن لها الزوج

تفكر « لور » في شيء آخر وهو ان تذهب فتقص الأمر على زوج المرأة الخائنة وهي واثقة بالفوز لان هذا الزوج سيتعقب امرأته فاذا أخذها وهي تقترف الاثم فقد ظفرت هي من زوجها بما تريد . ولكن زوج هذه المرأة الخائنة رجل عنيف معروف بالحدة وسفك الدم فهو لايلجأ الى القوانين ولا الى القضاء وانما يلجأ الى الانتقام . والقانون نفسه يبيح له مبارزة خصمه ، بل يبيح له أن يقتل خصمه وأن يقتل امرأته ، فهل تستطيع أن تعرض للموت شخصين تحب أحدهما مهما تقل ومهما تفعل ؟ كلا !

فهى اذن لاتستطيع ان تلجأ الى هذه الحيلة الأخيرة . ولكنها مع ذلك معتزمة أن تطلب الفرقة

يتركها صاحباها ويقدم زوجها فلا تلبث أن تنبئه بكل شىء ويسرع هو فى أن يتلطف لها ويأخذها باللين والرفق منكراً ماتتهمه به ؛ متهما اياها بالغيرة والاسراف فى الغيرة. فيكاد يخدعها. ويكاد يرضيها ، ويأخذها بين ذراعيه فتوشك ارادتها أن تنمحى ، ولكنها واثقة بما رأت ؛ فهى لاتصدق زوجها ، وهى تريد أن تعفو عنه ولا تطلب منه ثمناً لهذا العفو الا شيئاً واحداً وهو أن ينبئها بانه لايحب هذه المرأة وأنه اذا كانت بينه وبينها صلة فقد تورط فى هذه الصلة ، ورطه فيها الضعف او ورطه فيها الغرور ، تريد منه أن يعترف بذلك ، فيأبى هو لانه لا يريد أن يعترف فيسىء الى شريكته فى الاثم . فاذا عرف أن امرأته قد رأت ان ليس الى الشك فى ذلك من سبيل تغير فى نفسه كل شىء فعدل عن الخداع والمكر الى الصراحة والاعتراف ، ولكنه لايلوم نفسه ولا يرى نفسه آثما ، وانما يرى انه كان قد فعل شيئاً تنكره القوانين فهو نفسه لا ينكر هذا الشىء لانه بطبيعته عاجز عن الوفاء لزوجه محب للذة والتنقل بهواه ، ولن ينزل من هذا عن شىء ، ولن يسمح بالطلاق لان الطلاق لايليق بجماعة الاشراف

المحافظة التى تنكر كل هذا التشريع الجديد . . . وإنما يسمح بشىء واحد مألوف فى طبقته وهى أن تنقطع الصلة بينه وبين زوجته بالفعل على ألا يعلم الناس عن ذلك شيئاً أو على ان يعلم الناس دون ذلك أن يجهر به بعضهم لبعض ، أى أنه يريد ان يحتفظا بمظاهر الزوجية أمام الناس ليس غير . تأبى « لور » وتعلن إلى زوجها أنها مضطرة إلى أن تذيع إثمه وخيانته بين الناس وعلى مرأى ومسمع منه ومن صاحبته إذا لم يسمح بالفرقة بينهما ، هو إذن مضطر إلى هذه الفرقة . فيسمح بها ولكن فيما بينه وبين زوجته وبين المحامى دون أن يصدر حكم بالطلاق ودون أن يرفع الأمر إلى القضاء على أن يخصص لزوجه وابنته ما يحتاجان إليه من نفقة . ذلك مع أن زوجه غنيـة ولكنها لا تستطيع أن تتصرف فى ثروتها بحكم الزواج نفسه ، وهـذا ظلم آخر ينزله القانون بالمرأة

* * *

فاذا كان الفصل الثانى فقـد مضى على هذا خمس سنين وأقبلت « لور » تزور صديقيها فى مصطاف على البحر ، فيتحدثون فى أمر هذا الزوج ، فاذا هو ماض فى إثمه ، ويتحدثون فى أمر الفتاة

فاذا هي في السابعة عشرة وإذا هي قد بلغت سن الزواج ، واذا أنت تشعر بأن شيئاً من الخلاف لابد أن يظهر بين الأبوين حين يأتي لهذه الفتاة أن تتزوج ، واذا أنت تشعر بأن الفتاة الآن عند أبيها وبأنها ستعود إلى أمها بعد ثلاثة أيام وبأن رسائلها تدل على أن مزاجها غير معتدل وبأن أباها ليس بعيداً من هذا المصطاف . وهم في هذا الحديث إذ تسمع جلبة قوم قادمين ، فلا يكادون يتبينون هؤلاء الناس حتى تعلم أن القادمين هم الزوج وابنته وشريكته في الخيانة وزوجها وابنهما . تستخفى « لور » بعد أن تكلف صاحبيها أن يجدا لها وسيلة للقاء ابنتها . ولا يكاد القوم يقبلون حتى تعلم بأن شيئاً جديداً قد طرأ ، وهنا تشعر بأن القصة قد انتقلت من طورها الأول إلى طور جديد ، فليست دفاعاً عن حق المرأة ، وليست اتهاماً للرجل ، وليست سخطاً على القانون ، وليست إنكاراً للتشريع ، وإنما هي شيء آخر فوق هذا كله ، فوق إرادة الزوجين ، فوق إرادة الابوين ، فوق إرادة النظم الاجتماعية كلها . تشعر بهذا وتحس أن الكاتب قد تأثر بما كان يتأثر به شعراء اليونان فأدخل القضاء في قصته ، أو قل إن القضاء قد دخل في القصة رغم الكاتب ورغم أبطال القصة . ذلك أن « ايزابيل » ، هذه الفتاة الناشئة قد أحبت « أندريه »

(Andre) ابن تلك المرأة التي خانت أمها « لور » وفرقت بين أبويها . أحبت الفتى وهى تجهل كل شيء ، وأحبها الفتي وهو يجهل من أمر أمه كل شيء . وتحدث الفتيان بحبهما وتعاهدا على الزواج ، وأفضى الفتيان بهذا الحب وهذا العهد إلى أهلهما . فأما أبو الفتى فهو يجهل كل شيء كابنه ، وهو يرى هذا الحب خيراً فيشجعه ويؤيده ويعد المحبين بالمعونة على الزواج . وأما أبو الفتاة وأم الفتى فهما يعلمان كل شيء ويمانعان فى هذا الحب . ولكن أين السبيل إلى ممانعة الحب وهما لا يملكان من أمره شيئاً والفتيان لا يملكان من أمره شيئاً ! وهل يعرف الفتيان كيف أحب كل منهما صاحبه ؟ وأين السبيل الى منع هذا الزواج ؟ وهل يستطيع الرجل أن يقول لابنته إنه خان أمها مع حماتها ؟ وهل تستطيع المرأة أن تقول لابنها إنها خانت أباه مع أب الفتاة ؟ ليس إلى ذلك من سبيل ... فحجة المحبين قائمة ويؤيدها أبو الفتى وليس ما يمنع هذا الزواج إلا أن ترفض أم الفتاة ؟ أتستطيع أن تجهر بالامر ؟ ذلك شيء ستعلمه . أرأيت كيف دخل القضاء المحتوم فى هذه القصة فغيرها التغيير كله وجعلها فوق طور الانسان ؟ لم يصبح الأمر الآن مقصوراً على زوجين يختصمان ، وإنما هناك شخصان بريئان يجهلان كل شيء ويريد كل منهما أن

يقترن بصاحبه وليس لاحد أن يحملها إثم آبائها . . .

تعاهد الفتيان على الزواج ، وأخذت الفتاة نفسها بأن تقنع أمها بقبوله . فاذا خلت إلى أمها وقصت عليها القصص جزعت هذه جزعا شديداً وأسرفت فى اتهام زوجها لا بأنه يخونها فحسب بل بأنه يخون ابنته أيضاً . وهل تستطيع هذه المرأة أن تقدر أن هذا الحب قد جاء عفواً ؟ أليس هذان الخائنان قد تواطئا عليه حتى إذا ماتم بينهما لم يكن هنالك سبيل الى قطع ما بينهما من صلة ؟ وهل تستطيع أن تفكر على نحو غير هذا النحو ؟ أليست سيئة الظن بزوجها ؟ أليست سيئة الظن بعدوتها ؟ أليست تعتقد أن ابنتها دون أن تحب أو تقدر الحب كما ينبغى ؟ هى جزعة ولكنها لا تجهر بهذا الجزع ولا تنبىء ابنتها بشىء ؛ وانما تريد أن تستنبئها . وبم تنبئها الفتاة ؟ إنها تحب هذا الفتى لانهما تجاورا فى المصيف ، تجاورا فتعارفا فتحابا فتعاهدا على الزواج ، وهى لم تكتب إلى أمها بشىء من ذلك لأن الخصومة بين أبويها عودتها أن تحتاط حين تكتب إلى أحدهما وهى عند الآخر ، والفتاة لا تفهم جزع أمها ولا تفهم بغضها للفتى وأبويه . وهما فى ذلك إذ يقبل الخادم فيعلن أن الأب يريد ابنتـه ، فتقول الأم : ليأت إن كان يريدها ! . .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فقد أخفت الأم ابنتها فى غرفة مجاورة وتلقت زوجها فتسأله عن هذا الأمر ، فاذا أنبأها بحقيقته لم تصدق من نبئه شيئاً وتاقته بهذه التهم التى قدمتها لك فى هذا الفصل الماضى . ثم أعلنت لزوجها أنها لاتسمح بهذا الزواج . يلح عليها زوجها ، فاذا رأى منها الإباء أعلن إليها أن هذا الزواج قد يتم رغم إرادتها لأن القانون يبيح ذلك ، فهو يشترط لصحة الزواج أن يرضى الأبوان ، لكنه ينص على أنهما إن اختلفا فرأى الأب مقدم وهو الذى يعتد به ، وهذا ظلم آخر ينزله القانون بالمرأة ، ولكن أين نحن من القانون ؟ هنالك شىء فوق القانون ، بل هنالك شيئان فوق القانون ، هنالك عاشقان يريدان أن يتزوجا ، وهنالك أم تأبى على عدوتها أن تأخذ منها ابنتها بعد ان أخذت منها زوجها ، وهذه الأم تريد أن تدفع عن حقها بكل وسيلة . وقد سلبها القانون وسائل الدفاع ، فهى ستجد وسائل الدفاع فى ناحية غير ناحية القانون ، ستنبىء ابنتها بحقيقة الأمر وهى إن تفعل فستحول بين ابنتها وبين هذا الزواج . تعلن ذلك إلى زوجها فيحذرها عاقبته ، ولكنها لاتحفل ، فيتركها الزوج منذراً بأن للحرب حدوداً . ولكن المرأة لاتكاد تخلو إلى ابنتها حتى تحاول أن

تصرفها عن هذا الزواج ، فلا تنصرف الفتاة لأنها تريد أن تعلم لماذا يطلب منها أن تضحى آمالها وحياتها دون أن تفهم لهذه التضحية سبباً ودون أن يطالب إليها أبوها هذه التضحية . تريد الفتاة أن تفهم، وتأبي الإذعان دون أن تفهم ، فاذا انبأتها أمها بجلية الأمر جزعت هي ايضاً وناء بها الجزع ، فتنبئ أمها بالعدول عن هذا الزواج . ولكن فى الأمر شيئاً فوق إرادة الفتاة وفوق إرادة الأم ، فى الأمر هذا الحب الذى لا بد من أن تتم كلمته . وقد أقبل الفتى فرحا مبتهجا يريد أن يسأل صاحبته عما أجابت به أمها وهو يعتقد مقدما أنها قبلت ، فتنبئه الفتاة بأن أمها قد رفضت ، فيحاول أن يتبين مصدر هذا الرفض فلا يجد من الفتاة جوابا . يسأل : أتنكر أمها من شخصه شيئاً ؟ أتنكر من سيرته شيئاً ؟ أتنكر من أبويه شيئاً ؟ فتجيبه الفتاة بالنفى ، ولكنها تنبئه بأنهما لن يتزوجا ، يتهمها بانها لم تحبه ، فتعلن اليه أنها تحبه وتحبه حباً شديداً ولكنهما لن يتزوجا . . . يبلغ الجزع من الفتى إلى حيث ينبئ صاحبته بأنه قد يئس من الحياة وبأنه وهو ضابط فى الجيش سيطلب أن يرسل إلى احدى المستعمرات حيث يلقى حتفه فى ثورة من تلك الثورات المتصلة . ينصرف فتدعوه ويجدد لها نذيره . فتلح ، فيلح فى النذير . فتعده أنها ستتزوجه

رغم إرادة أمها. ينصرف الفتى مغتبطا، وقد انتصر الحب على البنوة وانتصر أمل البنوة على أمل الامومة . وعدنا إلى تلك القصة التى حللتها فيما مضى والتى تثبت أن الانسانية انما هى ابنة عاقة وأم برة أبدا . تقبل الام فاذا علمت أن ابنتها لم ترفض الزواج أحست ثقل الكارثة وعرفت أن ابنتها قد ضحت بالأم فى سبيل الزوج . وهى بعد لم تعرفه إلا منذ شهر ، أفيمكن أن يكون الشباب من الأثرة وحب النفس بحيث يضحى بالأم وجهودها وعشرتها الطويلة وعواطفها الحادة الرقيقة فى سبيل فتى أو فتاة لم يطل بهما العهد ؟! يقبل الاب وقد فقدت الأم سلاحها فخرجت عليها ابنتها فهى تزعم أن ابنتها لا تحبها ، وفى الحق أن الفتاة تلقى بنفسها بين ذراعى أبيها ؛ فاذا سمعت من أمها هذا عادت إليها ، فالفتاة مترددة بين الابوين يتنازعانها وقد كره كل منهما صاحبه . ثم تنصرف الفتاة وتعلن الأم إلى زوجها أنها قد فقدت هذا السلاح ولكنها لم تفقد كل سلاح . . فبيدها سلاح آخر قوى عنيف ، ستعلن الامر الى الناس جميعاً . وهنا فى ذلك إذ تقبل أم الفتى فى ذهول يشبه الجنون فتنبىء بأن زوجها قادم ليخطب الفتاة إلى أمها ، وتضرع إلى هذه الام أن تكون رحيمة رفيقة ويضرع اليها الاب أيضا ، ولكنها لا تريد ان تكون رحيمة

ولا رفيقة، هى تدفع عن حتمها وتدفع عن ابنتها لاتقبل فى ذلك شيئاً ولا ترضى فى ذلك هوادة . ويقبل الرجل فيخطب الفتاة ، فترفض الام ،فيحاول أن يتبين مصدر الرفض فيسأل عن أشياء ليس بينها وبين الحقيقة صلةفاذا أجابته الأم بالنفى ألح فى أن يتبين موضع الحق فتنبئه النبأ ، ويزعم زوجها أنهاقد جنت،ولكن الرجل لا يكاد يتبين القوم جميعا حتى يثق بأنها عاقلة وبأنها صادقة وبأن امرأته قد خانته وبأن هذا الصديق قدخانه فى امرأته . يأخذه الغيظ ويظهر عليه الميل إلى سفك الدم ولكنه يسمع من امرأته فى ضراعتها واستعطافها ذكرى ابنه . . . فاذا كل شىء قد تغير وإذا غيظه قد هدأ ، وإذا هو ليس بالزوج الذى يريد أن ينتقم لشرفه ، وانما هو الأب الذى يريد أن يحمى ابنه من سوء السمعة ، بل يريد أن يحمى ابنه من الموت ، هو أب لا زوج ، فلا يريد أن ينتقم ولكنه يريد أن يزوج ابنه من هذه الفتاة . وقد ظل هذا الأمر مجهولا فيجب أن يظل مجهولا . وإذن فيجب على صديقه أن يرد زوجته الى بيته رضى أم كره ، رضيت هذه الزوج أم كرهت ، يجب أن يشعر الناس بأن هذين الزوجين قد أصلحا ما كان بينهما من خلاف وأن هذا الزواج الجديد يتحقق بين أسرتين شريفتين لا تشوب شرفهما شائبة . فاذا قال الزوج: إن زوجى لن ترضى أن

تعيش معي ، أجاب هذا الرجل: يجب أن ترضى . واذا قالت الزوجة لا أستطيع أن أعيش مع هذا الخائن، أجاب: سأعيش أنا مع هذه الخائنة . وهما في ذلك إذ يظهر الفتيان من بعد ! . . . يظهران والرجل يحاول أن يقنع هذه الأم بإيثار الصلح حباً لابنتها وبأن هذا الصلح قد لا يخلو من خير في الحياة ، فتجيبه: إنها لا تأمل إلا فيما بقي لها من حظ في الحياة الآخرة . تجيب بذلك ويظهر الفتيان فيشير الرجل إليها قائلا : حياتنا الآخرة ! هذه هي ! . .

أرأيت كيف ابتدأت القصة ؟ أرأيت كيف انتهت ؟ فكرة اجتماعية أراد الكاتب درسها وتحليلها فأحسن الدرس والتحليل وأثبت ما أراد أن يثبت من أن تشريع الرجال ظالم للنساء ، ولكن عقل الانسان مهما ينقد ومهما يحلل فهو عاجز عن تدبير الحياة . وانما لهذه الحياة مدبر آخر فوق العقل وفوق الارادة وفوق العاطفة والشعور ، وإن كان قد يصدر عن العاطفة والشعور . للحياة مدبر آخر هو القضاء ! . . .

أعرف نفسك

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى (بول هرفيو)

ومن ذا الذى يعرف نفسه حقا ؟ ومن ذا الذى يثق بما تطويه نفسه من دخيلة وبما يستره ضميره من خصلة ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يوجه أهواءه وميوله وعواطفه وشهواته كما ينبغى ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقا ؟ أليس الإقدام الصحيح على شىء من الأشياء ينبغى أن يكون نتيجة للعلم الصحيح بهذا الشىء ؟ ألست إذا أقدمت على الشىء وأنت تعلمه حقا استطعت أن تتجنب الخطأ وتتنكب الضلال ؟ بلى ! ولكن العلم الصحيح بالأشياء ليس ميسوراً وليس متاحاً لك فى كل وقت . ألا ترى الى آراء الناس كيف تتغير بالقياس إلى الأشياء العادية ، فهم يرونها خيراً ثم يرونها شراً ثم يعودون فيترددون ثم ينالهم شىء من الاهمال وعدم الاكتراث ، هو الاعتراف بالعجز عن فهم الأشياء وتعرف حقائقها ؟

ليس العلم الصحيح بالاشياء ميسورا ، ومن هذا تورط الناس فى الاغلاط وتخبطوا فى الظلمات . والأمر ليس واقفا عند جهل الناس بحقائق الأشياء وإنما هو يتعداه إلى ما هو شر

منـه ، فأنت لا تعرف صاحبـك كما ينبغى أن تعرفه ، وأنت لا تتبين دخيلة خليطك وعشيرك كما ينبغى أن تتبينها ، ومن هنا تقع بينك وبينه الخصومات ويسوء بينك وبينه الظن ، ومن هنا تناله بالمـكروه حين تريد به الخير ، وينالك بالسوء حين يريد اليك الاحسان ، لأن كلا منـكما يجهل صاحبه ؛ ولو قد عرف أحدكما الاخر لما كانت بينكما خصومة ولمـا ساء بينكما الظن ولمـا وقع بينكما خلاف . بل لا يقف الأمر عند هـذا الحد ، فأنت تجهل الأشياء وأنت تجهل الناس وأنت تجهل شيئاً آخر غير الأشياء والناس ، تجهل نفسك ، تجهلها جهلا قوياً مظلمـا ؛ يدفعك إلى أمور لو عرفت نفسك لما اندفعت إليها ؛ تقدم ولو عرفت نفسك لأحجمت ، ترضى ولو عرفت نفسك لأبيت ، وهل تستطيع أن تفسر الندم إلا بأنه شعورك بأنك أقدمت على الشىء وأنت تجهل هـذا الشىء وتجهل ما يمكن أن يكون بينه وبين نفسك من صلة ؛ أفتظن أن ذلك الحـكيم الذى كتب على معبد (دلف) هذا المثل اليوناني القديم « أعرف نفسك بنفسك » قد أخطأ أو قال غير الصواب ؟ أفتظن أن سقراط حين اتخذ هذا المثل أساساً لفلسفته وجعله أساساً لـكل فاسفة خالقية بعده قد أخطأ أو أقدم على غير الحق ؟ كلا ! نحن نجهـل الأشياء ولذلك نتعلم ..

ولذلك أنشأنا العلم . ونحن نجهل الناس ونجهل أنفسنا ولذلك نبحث عن الناس ونبحث عن أنفسنا ، ونحاول أن نضع الشرائع والقوانين وأن نؤسس الفلسفة الانسانيـة وأن نؤسس علم الأخلاق وأن نبحث عن الطريق التى تنظم الصلات بيننا وبين أمثالنا . ليس هذا كله إلا اعترافاً بأننا نجهل أو محاولة للتخلص من هذا الجهل ولـكننا مغرورون ! ننكر هذا الجهل ولا نشعر به فيخيل إلينا أنا نعلم كل شىء ويخيل إلينا أن علمنا بأنفسنا هو أشد أنواع العلوم صحة وأقربها إلى الصواب فيقول أحدنا : إني أعرف هذا الشىء كما أعرف نفسى ، ولو أنه فكر قليلا لاستيقن أن هذه المعرفة لا تغني شيئاً ولا تدل إلا على الجهل . فهو يجهل نفسه ويجهلها الجهل كله ، فإذا كان حظه من العلم بالأشياء كحظه من العلم بنفسه فويل له من هذا العلم

إلى هذه النظرية قصد الكاتب فى هذه القصة ، فأثبتها فى وضوح وجلاء ، ولـكنه أثبت إلى جانبها نظرية أخرى ليست أقل منها شأناً ولا أدنى منها خطراً . أنت تجهل نفسك ولـكن ما السبيل إلى أن تعلم هذه النفس ؟ أتظن أنك تستطيع أن تصل إلى هذا العلم بالنقد والبحث وبالتحليل والامعان فى التحليل ؟ لقد نقد من قبلك سقراط وأتباع سقراط . وأمعن الفلاسـفة

وعلماء الأخلاق فى النقد وفى التحليل ، وتأسس علم النفس وانتهى بأصحابه إلى النتائج الباهرة ، ولكن النفس الانسانية ما زالت غامضة وما زال كل واحد منا يجهل نفسه حقا ، ومهما تقرأ من فلسفة سقراط وأتباعه ومن فلسفة القدماء والمحدثين على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم فان تعلم من أمر نفسك شيئاً .

فشل إذن سقراط حين زعم أن أحسن وسيلة إلى العلم بالنفس إنما هى أن تعرف أنت نفسك بنفسك . فشل سقراط وفشل من قبله ومن بعده . فقد بحثت الانسانيـة عن نفسها وبحثت عنها كثيراً فلم تهتد من أمرها إلى شىء . لن تعرف نفسك بنفسك وإنما الوسيلة الصحيحة إلى أن تعرف نفسك إنما هى هذه الحوادث الجسام التى تلم بك من حيث لم تحتسب والتى تصيبك على غير استعداد ، فاذا هى قد هزت نفسك هزاً عنيفاً فألقت عليها فى غير اختيار ولا إرادة هذه الألوان المختلفة وهذه الضروب المتباينة من زينة الحضارة وبهرجها ، وما كلفتك الحضارة وما كلفك العلم ، وما كلفتك نظم الحياة المختلفة من مظاهر لم تخترها ولم تسع اليها ، وإنما اضطررت إليها اضطراراً واصطنعتها وأنت لا تعلم كيف اصطنعتها :

ما الشرف ؟ وما الفضيلة ؟ وما حسن المعاملة بين الناس ؟

وما ضروب الأدب والتلطف ؟ وما هذه العقائد الكثيرة التى قامت عليها أوضاعنا الاجتماعية ؟ لم تلبس على هذا النحو دون غيره ؟ ولم تأكل على هذا النحو دون غيره ؟ ولم تلقى صاحبك على هذا النحو دون غيره ؟ أتستطيع أن تقول إنك اخترت شيئاً من ذلك أو ابتكرت ؟ كلا ! ولكنك رأيت الناس يسلكون فى الحياة هذه الانحاء فسلكتها معهم ، ومهما تجاهد ومهما تبحث فلن تستطيع أن تتخلص منها جملة ، يجب إذن أن تكلف الحوادث الجسام تخليصك منها ولو لحظة لترى نفسك كما هى ولو مرة فى العمر كما يقولون .

ان الذين لم تصبهم الحوادث الجسام ، ولم تنزل بهم هذه النوائب التى تخرجهم عن أطوارهم يقضون حياتهم ولما يعرفوا من أنفسهم شيئاً . اعرف نفسك ولكن لا بنفسك ، بل بالتأمل حين تنزل بك الحوادث . وهذه الحوادث لن تنزل بك متى أردت ولن تصيبك متى أحببت ، وقد لايوفقك الله إلى أن تعرف نفسك فيكفى أن تشعر بأنك تجهل نفسك وأن تعرف عجزك عن العلم بنفسك ، وأن تتروى وتتروى كثيراً قبل أن تقدم ، وقبل أن تحكم ، وقبل أن تعمل .

***

« سيبران » (Siberanl) قائد من قواد الجيش الفرنسى وهو رجل من الاشراف . محافظ ، مستمسك كل الاستمساك بما ورث فى طبقته من نظم الحياة وطرق التفكير . تغيرت الحياة من حوله ولم يتغير أو لم يشعر بأنه تغير . فهو ضيق العقل أو محدود الفكر يقرب فى هذا الضيق الى شىء من الوحشة . فقد امرأته وأراد أن يتزوج من جديد ، فتخير أن يتزوج فتاة متقدمة فى السن قد جاوزت الخامسة والعشرين على أن تكون فقيرة من أسرة شريفة قد حسنت تربيتها وفيها من الذكاء وحسن الخلق ما يضمن له شيخوخة هادئة مطمئنة بعيدة عما يسىء الى الشرف والكرامة أو يدخل التنغيص والألم بين الزوجين . بحث عن هذه الفتاة فوجدها واقترن بها واسمها « كلاريس » (Clarisse) وقد عاش معها خمس سنين فأحبها حباً جماً وكلف بها كلفا لا حد له ؛ ولكنه أحبها كما يستطيع هو أن يحب ، فأخذها بما ألف من ضروب الشدة وألوان المحافظة ، وكلفها حياة قاسية خالية من كل ابتسامة ، بريئة من كل لين ، وهو يعتقد أنه يؤدى واجبه وأكثر من واجبه ، لأنه قد حال بينها وبين البؤس وضمن لها حياة مطمئنة ، وكان لها وفيا فى صلاته الزوجية . هو مقتنع بحظه مطمئن إلى سيرته . ولكن امرأته ليست كذلك فهى تشعر بأن

زوجها قد أحسن إليها وبأنه قد وفى لها وبأنه يحبها ولكنها تشعر بانها لاتحبه، وأن عواطفها وأهواءها لاتجد فى نفس زوجها هذا الصدى الذى كانت تنتظر أن تجده، هى تعيش عيشة راضية من الجهة المادية، ولكن قلبها قد حرم كل عزاء. هى شقية ولكنها رضيت هذا الشقاء فهى وفية لزوجها مكبرة له، ولكنها تشعر بانها بائسة. ويتردد على هذا البيت ضابط مختص، هو « بافايل » (Pavaic) كان يتيما فقد أمه ثم مات أبوه فى ثورة. وكان «سبيران » يعمل فى قمع هذه الثورة . فرأت زوجه الاولى هذا اليتيم فتبنته وقامت على تربيته مع ابنها الوحيد « جان » (Jean) وجهل هذا الفتى من أمره كل شىء حتى ماتت أمه الثانية فعرف الصلة التى تجمع بينه وبين القائد، وكان وفيا لهذه المرأه التى كفلته فأنكر زواج القائد من غيرها ولكنه لم يكد يعرف « كلاريس » ويتحدث إليها حتى أحبها وكلف بها ثم شعر بأنها شقية تعسة فلم يزده ذلك إلا حبالها وعطفا عليها. وقد نزل على هذا البيت ضيف من أسرة القائد هو « دنسيير » (Doncieres)ومعه زوجه « أنا » (Anna) وهذان الزوجان مؤتلفان يحب كل منهما صاحبه حباًشديداً

* * *

فإذا كان الفصل الاول من القصة رأيت كلاريس جالسة إلى مكتبها وقد دخل عليها الضابط « بافايل » وتكلف علة لهذه الزيارة حين كان يجب أن يذهب إلى مكتبه ، وأخذا يتحدثان فتفهم من حديثهما كل ما قدمت لك ولكنك لا تكاد تشعر بأن بينهما حباً . وهما يتحدثان اذ يدخل الخادم فينبيء بأن « دنسيير » قد أقبل وهو يبحث عن زوجه « أنا » فلا يكاد « بافايل » يسمع هذا حتى ينصرف في عجل واضطراب ، فتلاحظ « كلاريس » هذا ولكنها لا تفهمه . ويدخل زوجها القائد فينبئها بأن حادثا قد حدث ، ذلك أنه كان يمشي في الصباح مع « دنسيير » فلما قاربا منزل « بافايل » أبصرا امرأة تخرج منه وتبيناها فإذا هي « أنا » وقد رأتهما فأعرضت عن الطريق وانطلقت تعدو في الغابة وتبعها زوجها فلم يظفر بها لأنها كانت أسرع منه عدواً ، ولكنه عاد ومعه أحد قفازيها فلم يكن عنده شك في أن زوجه كانت في هذا المنزل . واستنتجا من ذلك أنها ذهبت اليه لموعد كان بينها وبين صاحبه . فإذا سمعت « كلاريس » هذا فهمت اضطراب الضابط وانصرافه في عجل ، وأحسست منها شيئاً من الغيرة قويا ولكنه خفي . ثم تقبل « أنا » وينصرف القائد ، فإذا سألتها

« كلاريس » لم تحاول أن تخفى من أمرها شيئاً . ومن الواضح أن « كلاريس » قد لقيتها فى شىء من العنف وأنكرت عليها ما تورطت فيه ، فتنصرف ويعود القائد فتنبئه زوجه بأن الأمر كما كان قد افترض ، وتظهر سخطها على هذا الضابط الذى كان يظهر لها مظهر الرجل التقى والذى كانت تعطف عليه وترثى له حينما هو منافق يستمتع بلذاته متكتما مستتراً . ثم يقبل «دنسيير» فإذا خلا إلى صاحبه القائد وتحدث إليه أحسست أنه يشعر بشىء من الرفق والعطف على زوجه ، ويود لو عفا عنها واستأنف معها الحياة . ولكنه لا يجد من القائد إلا سخطاً واشمئزازاً بل لا يجد منه إلا ازدراء وسخرية . ينبئه القائد فى لفظ عنيف بأنه إن يعف عن زوجه فقد جاوز السنة والخلق والعادة الموروثة ، وهو مضطر إلى أن يقطع الصلة بينه وبينه ضنا بكرامة امرأته أن ينالها الاذى . فيقتنع « دنسيير » لأن الكرامة والشرف والحق والواجب ؛ كل ذلك يقضي عليه بأن يطرد الخائنة ويطلقها ، وينصرف على أن يذهب إلى باريس ليكلف محاميه أمر الطلاق وأما القائد فيبعث فى طلب الضابط .

* * *

فإذا كان الفصل الثانى رأيت هذا الضابط ينتظر قدوم

القائد ، فيقدم هـذا ويكون بينه وبين الضابط حديث عنيف ، يقسم الضابط فيـه أنه لم يأت إثماً ولم يقترف منكراً ، ويكذبه القائد ويلح فى إهانته حتى يكاد يخرجـه عن طوره . ثم يصدر إليه الأمر أن يكتب إلى الوزير كتاباً يطالب فيه أن يرسل إلى إحدى المستعمرات القاصية ، فيأتمر الضابط لأنه يريد أن يخلص من حياته بجوار هـذا القائد . يجلس ليكتب ، وينصرف القائد وتدخـل « كلاريس » ، فتسأله فى سخرية عما فعـل وعما قال ، ولـكن الحديث لا يكاد يتصل بينهما حتى يظهر أنه برىء وأنه لم يقترف إثماً ولم يأت نكرا ، وأن كل مافعل هو أنه نزل عن بيته حيناً من الأحيان لصديقه ابن القائد ، وكان هـذا الصديق قد طلب إليه ذلك ليخلو بصاحبته الخائنة . هو إذن برىء ولـكنه لم يتهم صاحبه ولم يتهم أحداً لأنه لايرى لنفسه الحق فى أن يتهم أحداً ، وهو سعيد بهذه النتيجة فسيفارق القائد وسيخلص من حياة قاسية لايجد فيها إلا شقاء وبلاء . فإذا سمعت « كلاريس » هذا الحديث وآمنت به ذهبت غيرتها وعادت إليها الثقة وأخذها شيء من الغبطة بأن هـذا الضابط لم يخنها ، وحاولت أن تقنع الضابط بالبقاء وأن يبرىء نفسه أمام القائد ، ولـكن هذا الضابط أبى كل الإباء ، ثم يريد أن يعلل إباءه فيعلن إلى صاحبته أنه يحبها

ويحبها من زمن طويل ، وأنه أصبح لا يستطيع صبراً على هذا الجوار وعلى هـذا الحرمان . فلا تكاد تسمع إعلان هذا الحب حتى يملكها تأثر شديد ، فترى فى نفسها أنها هى أيضاً تحب هـذا الضابط وأنها كانت تجهل هـذا الحب أو تخفيه على نفسها وأنها قد عاشت به وأخذت تراه رأى العين فى الوقت الذى لم يبق فيه بد من أن تفارق حبيبها هذا . تحس ذلك وتتحدث بشيء منه إلى الضابط ، ولكنها حين تتحدث إليـه بما تحس تغير فى نفسه كل شيء . فقد كان يريد السفر ويرضاه لأنه كان يائساً من حبها إياه ، أما الآن وقد أحس هذا الحب ورآه فقـد ذهب اليأس وخلفه الأمل والرجاء ، وإذن فلم يسافر ؟ ولم يمحو سعادته بيده ، لن يسافر وسيبرىء نفسه وسيبقى وسيذوق لذة هـذا الحب .

أما « كلاريس » فتجزع لذلك وتنـدم على أنها قد أظهرت من أمرها ما كان يجب أن يظل خفيا ، وتلح عليـه أن يسافر لأنها لا تريد ولا تستطيع أن تؤمن لهذا الحب ولا أن تخون زوجها ولا أن تتورط فيما كانت تنكر على صاحبتها . وهنا موقف عنيف مؤثر بين هـذين العاشقين ، قد تصارحا بالحب ولكن بينهما أمراً يحتم عليهما الفراق . بينهما عهد الزواج والحرص على الوفاء . تلح فى أن يسافر فلا يستطيع لها مقاومة ، فينصرف

على أن يظل متهما لنفسه وعلى ألا يراها بعد اليوم . أما هي فتستلقي وقد ناءت بها خيبة الأمل . ذلك أنها كانت قد اطمأنت إلى شقائها ورضيت حظها من الحياة . أما الآن وقد أحست أن أحداً من الناس يحبها وأنها تحبه أيضاً وأنها ربما لم تخلق إلا له وربما لم يخلق إلا لها فقد مر الأمل بنفسها ورأت من سلطان القضاء ما يحول بينها وبين الاستمتاع بهذا الأمل . وهي في هذا اليأس إذ تقبل « أنا » فإذا المرأتان تتحدثان على نحو جديد من الحديث ، وإذا أنت لا ترى من « كلاريس » عنفا ولا قسوة وإنما ترى منها ليناً وعطفاً ، ذلك لأنها قد شاركت صاحبتها في الحب وإن لم تشاركها في الإثم ؛ هي مثلها فمن الحق أن تعطف عليها . ويقبل « جان » الذي اقترف الاثم وقد علم بكل شيء فيعلن إليهما أنه يحتمل تبعة عمله وأنه سيبرىء صاحبه من هذه التهمة . فتجزع لذلك كلاريس لأن معنى هذه البراءة أن يبقى « بافايل » ؛ وإذا بقي فسينتصر الحب وستتورط هي فيما تورطت فيه صاحبتها . وهي لا تريد ذلك ولا ترضاه . تحاول أن تقنع « جان » بالعدول عن هذا الأمر فيأبى ويلح في أنه سيعلن الأمر إلى أبيه ، ويقبل أبوه وتنصرف « أنا » . يأخذ القائد في قراءة الكتاب الذي سطره الضابط للوزير ، ولكن ابنه ينبئه بأنه

يريد أن يتحدث إليه ، فإذا استمع له عرف الحق فغضب غضباً شديداً وأنزل بابنه ضروبا من اللوم والتأنيب ، ولكن ابنه ينبئه بأنه سيصلح ما أفسده ، سيتزوج « أنا » بعد أن يحكم بالطلاق. هنا تنشأ فى نفس الأب عاطفة جديدة ، ابنه يريد أن يتزوج من هذه المرأة التى خانت زوجها ! . . . أليس فى هذا نزول عن الشرف ؟ أليس فيه عدول عن السنة والكرامة ؟ ! كلا ! لن يكون هذا الزواج . ولكن ابنه يعلن إليه أنه سيكون مهما يستتبع من نتيجة ، فسيخاصم أباه وسيحتمل ما ينشأ عن هذه الخصومة ، لانه لن يترك صاحبته وحيدة بعدالطلاق . يطرده أبوه مغضباً فينصرف الفتى ويبقى القائد وزوجه فيتحدثان . وترى من هذا الحديث أن القائد كان يجهل نفسه حقاً ، هو ساخط ممتعض ولكن مصدر سخطه وامتعاضه إنما هوأن ابنه سيتزوج من امرأة خائنة فيهين الشرف ويسىء إلى الكرامة . فإن هذه المرأة التى خانت زوجها الأول تستطيع أن تخون زوجها الثاني . ولعلها لم تخن زوجها الأول لأول مرة ؛ فهو يفكر فى نفسه ويفكر فى ابنه ولا يفكر فى قرينه ولا فى الانتقام لشرفه ولا يفكر فى أن يعاقب ابنه بما كان يريد أن يعاقب به الضابط . فقد عبثت إذن عاطفة البنوة بعواطف الشرف والمحافظة على القديم .

تتحدث إليه زوجه بهذا كله وتتبين أنه قد عدل عن رأيه وغير منهجه وأنه مضطر إلى أن ينصح لقرينه بالعفو عن زوجه لأنه بين اثنتين : اما أن يصلح بين الزوجين ويرضى عن الخائنة وأما أن يرى ابنه زوجا لهذه الخائنة ، ويشعر القائد بصحة هذا وبأنه مضطرب منقطع الحجة ، فيعلن عجزه وينصرف ليعتذر إلى الضابط ، فتسأله زوجه : أتطلب اليه أن يبقى ؟ « سآمره بالبقاء ، وبهذا أعتذر إليه حقاً » . ينصرف وتبقى « كلاريس » شاعرة بأن عاشقها سيبقى ، متألمة لهذا بل جزعة له ، ذلك لأنها كانت فى أول الأمر قد رأت الأمل وطمعت فيه ثم حال بينها وبينه الواجب فاطمأنت إلى الحرمان والشقاء ، وهى الآن ترى أن صاحبها سيبقى والى أن الحرب ستكون عنيفة فى نفسها بين الأمل والسعادة من جهة وبين الواجب والوفاء من جهة أخرى .

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد اجتمع الخائنان وهما يتحدثان . وتشعر من هذا الحديث أن كلاريس قد عملت عملها وأنها جادة فى أن توفق بين الزوجين حتى لايقع الطلاق وحتى لايكون هذا الزواج الجديد وحتى يضطر الضابط إلى السفر . تشعر بهذا كله لانك ترى « أنا » تنبىء صاحبها بأنها لاتريد أن تكون مصدر

خلاف بينه وبين أبيه وبأنها تؤثر أن يتم لها العفو من زوجها . فاذا سمع صاحبها هذا اطمأن إليه وظهرت رغبته فيه ، فتغضب « أنا » ، تغضب لأنها كانت تود لو وجدت من صاحبها الذى أغواها بالاثم شيئاً من الحب لها والكلف بها والرغبة فى أن يكون زوجها حقاً ، فاذا هى لاتجد منه إلا اطمئنانا إلى هذا الحل الجديد . هو إذن لم يحبها وإنما أغواها ، وهى إذن لم تحبه وإنما خضعت له أو فتنت به . تغضب وتلقى إليه بهذا الغضب ؛ فيحاول أن يدفع عن نفسه أنهما كانا متحابين، فلا يفلح إلا فى إظهار أنهما كانا مخدوعين ؛ خدعتهما الشهوة والهوى . ينصرف الفتى وتقبل « كلاريس » فاذا علمت بما تم بينهما اطمأنت إليه ونصحت لصاحبتها بأن تصلح من شأنها وتستعد لأن تلقى زوجها فتستعطفه وتترضاه وتنصرف « أنا » ثم يقبل الضابط فرحا مبتهجا لأن القائد قد طلب إليه البقاء ؛ فسيبقى إذن ، ولم يكن يستطيع إلا ذلك فهو برىء وهو يحبها وهى تحبه، وهما يستطيعان أن يسعدا فمن الحمق أن يتكلفا الشقاء ويسعيا إليه . أما هى فتلح عليه فى السفر ولكن فى غير طائل . سيبقى إذن فلا بد من احتماله ، وهى أضعف من أن تقاوم هذا الحب ولكنها لاتريد أن تكون خائنة ، وهى إذا قبلت هذا الحب وأذعنت له فستنبىء زوجها وستفارقه فقيرة كما

دخلت بيته فقيرة، ولن تفعل شيئاً من شأنه أن يزرى بشرف هذا الرجل . ولكنها لاتستطيع أن تقطع فى شىء من ذلك، فهى تريد أن تفكر وان تتروى، تريد ألا تقضى إلا بعد أناة وحزم، وهى عاجزة عن ذلك إذا لم يفارقها صاحبها حينا لتستطيع أن تفكر فى هدوء واطمئنان . يجب إذن أن ينقطع عنها أسابيع أو أشهراً، يأبى ! ولكنها تأمره بذلك وتلح فيه فيذعن ولكن على أن تمنحه شيئاً يمكنه من الصبر، على أن تمنحه قبلة ! يلح فى ذلك فترضى . وإنه ليقبلها إذ يدخل القائد، فاذا هو يصيح : ويل للشقيين ! افترق العاشقان وأقبل القائد على خصمه يريد أن يقتله، ثم بدا له فألقى سلاحه لأنه أحس أن القتل ليس من اليسر والسهولة، بحيث كان يظن، يطرد خصمه فينصرف . فاذا خلا إلى زوجه أخذ يؤنبها فى غيظ وحنق، ولكنها تجيبه بأنها لم تخنه ولم تأت من الإثم إلا ماراًى، وبأنها كانت ولا زالت معتزمة ألا تستمتع بلذات الحياة إلا بعد أن تقطع الصلة بينها وبينه ؛ وهى تنتهز هذه الفرصة لتعلن إليه أنها مفارقة إياه وأنها ستخرج من هذا البيت كما دخلته، ولكن زوجها لايكاد يسمع هذا حتى يأخذه الضعف، فاذا هو يتلمس من زوجه أن تعتذر، يريد أن يعفو ويلتمس سبيلا للعفو . أما هى فلا تريد عفواً وإنما تريد

خلاصاً . وهنا يقع بينهما حديث مؤلم ، تذكر شقاءها وحرمانها وأنها لا تحبه ولا تطمئن إليه وإنما كانت تخضع له خضوع الأسير ، وهو ينكر ذلك ويسألها : فما بالك لم تنبئيني ؟ ثم يبدو له فيشعر بأنه هو الملوم ، فقد كان من الحق عليه ألا يكون أثراً ولا ظالما وأن يتلمس بنفسه حاجات زوجه ولذاتها وما ينقصها فاذا عرفه وفاها حظها منه . يشعر بأنه قد شغل بنفسه عن زوجه وبأن ظلمه هذا وأثرته هما مصدر الشقاء ، وإذا هو مستعطف ضارع يطلب إليها أن تبقى ، وإذا هي تأبي البقاء ، وإذا الضعف قد أخذ من هذا الرجل العنيف مأخذه فتهدج صوته ثم انهملت عبرته ثم هو يجثو يطلب إليها ألا تتركه وحيداً ، ثم ينبئها في صدق وإخلاص أنه مغير خطته وأنه يؤثر الموت على الوحدة وما سيتبعها من أحاديث الناس ، وإذا هو ينتظر منها كلمة ليعيش أو ليموت ! ...

أما هي فقد رقت له وعطفت عليه فأشارت إليه أنها باقية .

ويدخل هذا الوقت « دنسيير » وقد عاد من باريس ونظم أمر الطلاق فينبئهما بذلك ، فاذا صاحبه القائد قد تغير كل التغير ! الطلاق ! ! وماذا تصنع هذه البائسة إذا أصبحت وحيدة ؟ وهل فكرت في هذا ؟ فاذا ذكر له قرينه ما كان قد لقيه به من عنف وغيظ وما كان قد نصح له به في شدة وحزم وأنه قد تغير الآن

اعترف بأنه تغير وبأنه فى حديثهما الأول كان مندفعاً وراء العاطفة، أما الآن فقد فكر وتروى وهو أقرب إلى العفو والمغفرة منه. إلى السخط والغيظ. وتنضم إليه زوجه فى هذا، فما تزال بالرجل حتى تقنعه بالعفو عن زوجه، ولم يكن هذا الإقناع عسيراً فقد كان الرجل يريد هذا العفو لولا ما بين له القائد وما نصح له به. يقنعانه بالعفو، ويعمد القائد إلى هذا الكتاب الذى كتبه الضابط. إلى الوزير يطلب فيه أن ينقل إلى إحدى المستعمرات، يعمد. إلى هذا الكتاب فيأمر بحمله إلى البريد ... ثم ينصرف «دنسيير». ويبقى الزوجان فيقول القائد: لو أنه عفا أمس عن زوجه بعد ما اقترفت هذا الإثم لرأيت عفوه دناءة وانحطاطاً.

فتسأله زوجه: أكنت أمس خيراً منك اليوم؟ فيجيب: لم أكن أعرف نفسى حقاً!

«كلاريس» ـ ومن ذا الذى يعرف نفسه؟!!!

أرض الجحيم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « فرنسوا دى كوريل »

لا يترجم هذا العنوان ترجمة صحيحة عنوان القصة التمثيلية التى أريد أن أحدثك عنها اليوم ، وإنما يؤدى شيئاً من معنى هذا العنوان دون أن يؤديه كله ، بل دون أن يؤدى منه الشىء الكثير. والترجمة الحرفية لهذا العنوان هى « أرض لا انسانية » أى أرض لا يعيش فيها الناس ، وانما يعيش فيها أشخاص لهم طباع وميول وعواطف وأهواء لم يعرفها الناس ، ومع ذلك فهذه الارض التى تقع فيها القصة أرض انسانية حقاً ، ويعيش فيها ناس مثلك ومثلى ، يحسون ما نحس ، ويشعرون بما تشعر به ، ويميلون إلى ما نميل اليه . هى جزء من فرنسا ، أو جزء من « اللورين » التى كانت موضع النزاع بين فرنسا وألمانيا حتى كانت هذه الحرب الكبرى فردتها إلى وطنها الأول

واضع هذه القصة التمثيلية هو المسيو «فرنسوا دى كوريل» كاتب فرنسى ممتاز ذهب الفرنسيون فى إكباره واجلاله إلى مدى بعيد حتى وصفه نفر من كبار كتابهم بالنبوغ . وقد امتاز فى فن

التمثيل امتيازاً خاصاً ، فقصصه التمثيليـة رسائل فى الأدب وفى الفلسفة معاً ، فى الأدب لأنها تـكتب فى أروع لفظ وأجزله . وفى أبدع أسلوب وأرشقه . وفى الفلسفة لأنها تدور دائماً حول عاطفة من عواطف النفس ، أو بعبـارة أصح حول غريزة من غرائز الانسانية العامة ، أو بعبارة أدنى الى الدقـة وأقرب الى الصواب حول الغريزة الانسانية العامة التى تسيطر على حيـاة الناس فتسيرها وتضع لها النظم والقوانين الطبعية التى نسميها الفطرة . وهذا الـكاتب الفيلسوف متشائم بطبعه ، سيء الظن بالناس ، لا يأمل فيهم خيراً كثيراً ، لا لأنه يحتقرهم أو يزدريهم ، بل لأنه يفهم حقاً ويعلم أنهم عبيد الغريزة وأن هذه الغريزة قد كانت وستظل كما هى ضعيفة واهية مهما تختلف عليها الأطوار ، وتتبدل من حولها ظروف الحياة

هو فيلسوف متشائم ، يرى الأشياء كما هى ، لا كما يجب أن تـكون ، فليس تشاؤمه ثقيل الوقع على النفس ، ولا باعثاً لليأس فى القلوب ؛ ولـكنه ليس جذابا ولا منشطاً للأمل ، لا يبعث فى نفسك يأساً ولا يحيي فى قلبك رجاء ، وإنما هو قانع بما كان ، ويود لو حملك على أن تشاركه فى هذه القناعة . ولعل أحسن جملة

تختصر فلسفته هى هذه الجملة التى قالها أحد المتكلمين المسلمين : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان ». ذلك على أن تكون هذه الجملة مقصورة على الحياة الانسانية لم يجاوزها الكاتب الفيلسوف فى أدبه ولا فى فلسفته

وقد جمع النقاد الفرنسيون على شيئين : الأول أن هذه القصة التي نحن بازائها آية من آيات التمثيل فى هذا العصر الحديث ، الثانى أن مجد هذه القصة وفوزها باعجاب الجمهور لن يقتصرا على الملاعب الفرنسية ، بل لا بد من أن يجاوزاها الى ملاعب الارض كلها ، لأن هذه القصة الفرنسية فى موضوعها ومكانها وزمانها ومغزاها إنسانية قبل كل شىء ، صالحة لأن تقع فى كل مكان ، وفى كل زمان ، وفى كل شعب .

أجمع النقاد الفرنسيون على ذلك ، وذهب بعضهم الى أكثر من ذلك ، فكتب مسيو « اندرى ريفوار » فى جريدة « الطان » يقول : « ان تاريخ التمثيل لم يعرف آيه كهذه منذ « ايسكيلوس » اليوناني أى منذ خمسة وعشرين قرنا » . فأنت ترى الى أى حد بلغ فوز مسيو « فرنسوا دى كوريل » فى هذه القصة الجديدة .

والحق أن فى هذا كله شيئاً من الغلو كثيراً » فالقصة جيدة ، بل فوق الجيدة كما سترى ، ولكن مسيو « فرنسوا دى كوريل »

رجل موفق حسن الحظ مع الناقدين ، فكل مايكتبه جيد ، وكل قصصه آيات . ولقد شهدنا بعض قصصه تمثل فى ملاعب باريس فلم تحدث فى أنفسنا هذا الأثر الذى يصفه النقاد . ولم تهز قلوبنا هذه الهزات العنيفة التى يتحدث النقاد عنها ، ولكننا انصرفنا نتهم حسنا وشعورنا وحكمنا على الجيد والردىء ، وتقول فى أنفسنا ما كان هؤلاء النقاد ليجمعوا على خطأ أو تدليس ، ولكننا رأينا كثيراً من أوساط الناس فى فرنسا لم يتأثروا بهذه القصص . وانما شهدوها دهشين وخرجوا من الملعب حائرين . ذلك لأن مسيو « فرنسوا دى كوريل » فى قصصه التمثيلية يدرس العاطفة والشعور والغريزة ويحللها تحليلا دقيقاً ، ولكنه لايتحدث بهذا التحليل الى العاطفة أو الشعور ، وانما يتحدث الى العقل والى العقل وحده . فقصصه رسائل فلسفية تحسن فهمها والاستفادة منها اذا قرأتها فى دعة وهدوء ، ولكنك لا تتأثر بها اذا شاهدتها فى الملعب ، لأن هذا الملعب وما فيه من جمهور وما فيه من حركة الممثلين ولعبهم يشغلك عن دقائقه الفلسفية ، فتخرج ولم تفهم أو لم تكد تفهم شيئاً .

الأمر على غير ذلك فى هذه القصة التى نحن بازائها ، فنحن لم نشهد هذه القصة وانما قرأناها ، ونلاحظ أننا لم نتأثر بقراءتها

تأثراً يلائم ما قيل عنها ، ولكننا لا نشك في أن الذين شهدوا هذه القصة قد دهشوا لأنهم رأوا كاتباً جديداً يتحدث اليهم حديثاً جديداً فيملك قلوبهم وأهواءهم ويجعلهم وقفا على حركات الممثلين وما يجرى بينهم من حوار .

ولسنا نشك فى أن المزية الأولى لهذه القصة انما هو الموقف الذى استطاع الكاتب أن يخلقه ، فيقف عاطفتين من أشد العواطف الإنسانية سيطرة على الحياة واستئثاراً بالنفوس يقف احداهما بازاء الأخرى ، وهاتان العاطفتان هما : الحب والخوف . ولكنك لن تستطيع أن تفهم ذلك حق الفهم الا اذا لخصنا لك القصة فى ألفاظ قليلة .

يجب أن تلاحظ أن الكاتب من بلاد « اللورين » ، وأنه قد ألهم هذه القصة لحادثة معينة ، وهى أن أحد الطيارين الفرنسيين ، ولعله « فدرين » ، قد نزل أثناء الحرب فى أرض له فى « اللورين » وراء الخطوط الألمانية ، فاتخذ الكاتب من هذه الحادثة موضوع قصته وهو سهل .

فى احدى قرى « اللورين » وعلى مسافة من القرية يقوم منزل تسكنه امرأتان ، احداهما « بولين باريزو » والاخرى أختها « أنا » . فأما « بولين » فهى أرملة ، ولكن لها ابنا ترك

«اللورين» وذهب الى فرنسا فاسترد جنسيته الفرنسية ونبغ فى المحاماة والأدب . فلما أعلنت الحرب أدى خدمته العسكرية على أحسن ما يؤديها الوطنى المخلص ، وكان قبل الحرب ضعيفاً يخاف ويكره منظر الدم . وبينما أمه وخالته ذات يوم تتحدثان إذ أقبل ممثل السلطة الالمانية ومعه إحدى الأميرات الالمانيات من أسرة الامبراطور ، يريد أن ينزلها ضيفا على هذه الأرملة . وكانت هـذه الأميرة (فكتوريا) زوج أحد القواد المرابطين فى (اللورين) فأقبلت تزور زوجها على غير إذن منه ، وضربت له موعداً فى هذا البيت .

تلقت الأرملة ضيفتها كارهة . وبينما كانت هـذه الضيفة تنظر فى صور فوتوغرافية على المائدة فى غرفة الاستقبال رأت صورة أعجبتها ، فأخذت تمعن فيها النظر ، وحدثتها (بولين) بأن هذه الصورة هى صورة ابنها الفرنسى وقصت عليها أمره مفصلا . ثم تنصرف الأميرة إلى غرفتها وتتبعها (بولين) ، ويأتى ابنها (بول) ، وكان قد وصل الى (اللورين) فى صباح ذلك اليوم على طيارة فرنسية أنزلته وانصرفت تنتظره فى مكان غير الذى أنزلته فيه ، وكان قد جاء للتجسس ليشترى من أحد الجنود الألمان أوراقا تهم قيادة الجيش الفرنسى . فلما أنزلته الطيارة رأى أن أحـد

الفلاحين قد رآه أو قد رأى الطيارة فقتله واتخذ ثيابه وظل يحرث مكانه بقية النهار ، ثم أطلق خيل المحراث وأقبل يقضى الليل عند أمه حتى إذا كان الصباح لقى صاحبه الالماني فأخذ الأوراق وذهب إلى حيث تنتظره الطيارة فعاد إلى فرنسا

قص هذا كله على أمه وأنبأته أمه بمكان الأميرة الألمانية ، فذعر وأشفق أن تدل عليه هذه الأميرة ، وحاول أن يخلص فلم يوفق ، ففكر فى أن يمضى الليل عند أمه وأن يخدع الأميرة حتى ينجو منها أو يقتلها . وهنا تبدأ قيمة القصة ، فإن هذه الأميرة إن رأته ودلت عليه قتل وقتلت أمه ؛ فإن لم تستطع أن تدل عليه ، ولن يكون ذلك إلا اذا قتلها ونجا بنفسه فأمه مقتولة من غير شك . وأنهما ليتحدثان فى ذلك إذ أقبلت الأميرة فدخلت ، وأصبح القضاء محتوماً ، فإما أن يقتل هو وتضيع مهمته العسكرية ، وإما أن يقتل الأميرة فينجو وينفذ ما جاء له ويقدم أمه ضحية للوطن ، وكان قد انتزع الصورة الفوتوغرافية التى رأتها الأميرة وأخفاها . فلما جاءت الأميرة تقدم إليها كأنه أحد أقارب هذه الأرملة ، ثم تسمى لها باسم ألماني منتحل ، وأنبأها بأنه قد جرح فى الحرب مرتين فأعفى من الخدمة ، لم تصدق الاميرة شيئاً من هذا ، وأخذت تنظر فى الصور تلتمس الصورة التى رأتها أولا

فلم تجدها ، فلم تشك فى أنها أمام « بول » الفرنسى ابن الأرملة وفى أن واجبها الوطنى يلزمها أن تدل عليه ، فذهبت إلى غرفتها تفكر فى ذلك ، ولقيت فى طريقها خالة «بول» فسألتها : أمسرورة هى بمقدم هذا الشاب ، وذكرت الاسم المنتحل ؟ فلم تحر المرأة جواباً لأنها لم تكن تعرف هذا الاسم ، ولم تشك الأميرة منذ ذلك الوقت فيما يجب عليها أن تعمل ، فأخذت تسأل متى يمر ساعى البريد ؟ فأنبئت بأن ساعى البريد لا يمر منذ ابتدأت الحرب ، فسألت أليس يمكن أن تستأجر من يحمل رسالة الى القرية ، فأنبئت بأن هذا عسير فى الليل . ولم يشك «بول» فى أن الأميرة تريد أن تدل عليه ، فأمسى لا يتردد فى قتلها ، واعتزم أن يذهب اليها بعد العشاء فيعرض عليها الخروج معه إلى الغابة للنزهة فإذا خرجا قتلها هناك حتى لا يقع دمها على أمه

***

يذهب « بول » فى الفصل الثاني إلى الأميرة فى غرفتها فيتحدثان حديثاً لذيذاً مخيفاً لأن كلا منهما يخاف صاحبه ويحاول أن يكتم هذا الخوف ، ولأن كلا منهما يضمر الغدر بصاحبه ، ولكنه يحاول ألا يظهر من نيته شيئاً ، فيدور الحديث فى هذه الصورة الغريبة التى ظاهرها الأمن وباطنها الخوف والغدر ؛

ويدعو « بول » صاحبته الى أن تخرج معه إلى الغابة فتأبى ، ثم تطلب هى أن تخرج وحدها فيأبي عليها صاحبها ، يريد أن يقودها إلى حيث يقتلها فتأبي عليه ، وتريد أن تخرج لتدل عليه فيمنعها من الخروج . وإنهما لفى ذلك إذ يسمعان أصواتا تقبل إلى البيت ، فتسأل « بولين » عن خيل الفلاح الذى قتل وتنبئها بمقتله ؛ وتسمع الأميرة هذا فتستيقن أن (بول) هو قاتل الفلاح ومرتدى ثيابه ، وكانت قد رأت الثياب فى غرفة الاستقبال ، فيبلغ الخوف منها أقصاه وتأبى أن تخرج ، ثم تشم رائحة ثياب تحترق فتسأل فينبئها (بول) بأن أمه تحرق ثياب الفلاح الذى قتله صباح اليوم .
وإذن فقد صرح الشر بينهما وعرف كل منهما دخيلة صاحبه ؛ ولم يبق إلا أن يعمل كل منهما ما يستطيع لينقذ حياته ووطنه معاً .
ولكن الحب قد تدخل فى الأمر فعقده وجعل له خطراً فوق كل خطر ، وجعل هذا الموقف فوق ما ألف الناس . ذلك أن الأميرة بينما كانت فى هذا الحوار مع (بول) دخلت عليها الأرملة تحمل إليها كتاباً ، فلما قرأت الكتاب ملأها السخط والغيظ وخيبة الأمل ، لأن زوجها قد كتب إليها يأمرها أن تعود أدراجها وينبئها بأنها لن تراه ، وبأن سيارة ستأتي صباح الغد فتنقلها إلى حيث تأخذ القطار فتعود الى قصر آبائها

كانت هذه الأميرة جميلة رشيقة ، قوية المزاج ، حادة الحس ، متأثرة فى حياتها بالعواطف وسلطان الخيال كغيرها من نساء ألمانيا ؛ وكانت تعالل نفسها حين أقبلت إلى (اللورين) بليلة لذيذة حلوة مع زوجها القائد ، فلما حيل بينها وبين ذاك كان وقع هذا اليأس فى نفسها عظيما سيئاً ؛ وكان أمامها هذا الجندى الفرنسى ، وكان جميلا قوياً يحيي الرغبة فى نفوس النساء ، وكانت تخافه وتشتهيه ، وكان يخافها ويشتهيها ؛ وكان الحديث بينهما منذ التقيا حديث خوف وغدر وحب واستدراج . فلما صرح الشر بينهما وظهر كل منهما لصاحبه مظهره الحقيقى ظهر سلطان الغريزة فأجلت وقوع الخطب ؛ وكانت هذه الغريزة معقدة ، ولكنها قوية مسيطرة ، كانت غريزة الشهوة ؛ وغريزة الاحتفاظ بالنفس . فانظر إلى هذا الحوار الذى ينتهى به الفصل الثانى :

فكتوريا : لقد حاولت مرات ثلاثا أن تخرجنى من البيت ! . فمرة كنت تريد أن تسمعني ثغاء الغزال ... وأخرى أن تزور معى كنيسة قديمة فى ضوء القمر ... ثم الرجل الكريم الذى يريد أن يرافقنى إلى القرية . . . وكل ذلك حتى لا يقع دمى على رأس تحبه وتكرمه ! . . .

بول : أى قدرة على الخيال ! . .

فكتوريا : ولو أنى تبعتك لما حييت بعدها !!

بول : إذا كنت تخشين صحبتى إلى هذا الحد فاذهبى وخدك ! . .

فكتوريا : ـ مذعورة ـ ستتبعنى ! . . ومن ذا الذى يشفق علىّ ؟ . ليست أمك التى أشعر بحدائها ! . وقد سافرت خالتك . . ولعلها إنما سافرت لأنكما خفتما ميلها إلىّ ! . فلم يبق لى إلا أنت ، ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه ! آه إنى خائفة ! .

بول : ـ مبتسما دون أن تراه لأنها بين ذراعيه ـ وأنا ايضاً خائف !

فكتوريا : ـ مطمئنة شيئاً ما ـ منى ؟ !

بول . منك ! .

فكتوريا : أتوسل اليك ألا تخاف ! . فلست أريد الا الخير . لست شريرة ! . لقد أعجبتني حين رأيتك لاول مرة ! ألم تلاحظ ذلك ؟ . .

بول : بلى ! ولهذا أجرؤ على أن أقبلك ! . إن من الاثم أن أستغل أزمة هذا الخوف ! . فلست أريد غصباً ! . وفى الحق أن الحب هو الذى ...!

فكتوريا : وأنا ايضاً ! . وأنا ايضاً ! . ليتك تستطيع أن ترى ما فى قلبى ! .

بول . لا ينبغى أن ينظر المرء فى أعماق فؤاد من يحب ؛ فحسبه الحب !

ثم يطوقها بذراعه فى حنان بينما يسدل الستار

فقد رأيت كيف اصطلح الذعر والشهوة ويأس هذه المرأة التى أخلفها زوجها على تعقيد موقف هذين العدوين تعقيداً بلغ أقصاه ، ثم انتهى إلى انتصار الغريزة ، لا نقول الانسانيـة بل الحيوانية ، فوقع هذان العدوان أحدهما بين ذراعى صاحبـه ، وتأجل الشر حيناً حتى تبلغ الغريزة ما تريد . ولـكن تشاؤم الكاتب وقسوته لم يبلغا هذا الحد المنكر ، ولم يصلا بالانسان من الدناءة إلى حيث تحكمه الغريزة الحيوانية وحدها ، بل جعل للعواطف الراقية سبيلا على هذا الانسان ، فقد ذاق العدوان لذة الحب . تمازجها مرارة العداء ، ولـكن العواطف الانسانية عملت عملها ، فلم يجرؤ «بول» على أن يقتل صاحبته بعد أن هدأت ثورته ، لأنه كان يراها يقظة من الخوف ، وكان يرى عينيها محدقة يملأها الفزع ؛ فـكانت الشفقة تغل يده . ومع ذلك فقد كان أخفى مسدسه تحت الوسادة ينتظر أن تنام وأن تغمض عينيها ، ولـكنها لم تنم وظلت عيناها محدقتين ، ولم تجرؤ هى على أن تقتل عدوها ، لأنها كانت تحس لذة الحب ، بل لعلها ترددت فى الدلالة على هذا العدو . ومهما

يكن من شيء فقد قضيا الليل فى حب وذعر وعداء .

فلما كان الصباح نزل « بول » فلقى أمه . فانظر إلى ما كان بينهما من الحوار :

بول : ـ مشيراً إلى الطبقة العليا من البيت ـ لقد بقيت هناك !

بولين : كان يجب أن تقودها إلى حيث أردت ! . فقد قادتك إلى السرير ! .

بول : هل من سبيل الى أن يقتل الرجل امرأة يشتهيها حين تتعلق بعنقه وهى تئن : « إني خائفة ! . آه ! إنى خائفة ! . »

بولين : نعم ! لايستطيع أن يقتلها ، وإنما يداعبها وينسى واجبه العسكرى ! !

بول : لم أنس واجبي ! . لقد أخفيت المسدس تحت الوسادة حين اضطجعت . وكنت أقول فى نفسي . « ستنام وستغمض عينيها الضارعتين فأقتلها » ولكن عينيها لم تغمضا ! . وكنت أراهما فى ضوء القمر محدقتين فيّ .

بولين لعلها هى ايضاً كانت تنتظر أن تغمض عينيك لتأخذ ما أخفيته تحت الوسادة .

بول : ربما !. إن القلب واليد لايتفقان دائماً .

بولين : تقول إنها ستذهب هذا الصباح !

بول : نعم ! فى سيارة الساعة الحادية عشرة .

بولين : نحن فى الساعة التاسعة ، يجب إذن أن تموت فى ساعتين .

بول : سأودعك مضطراً بعد نصف ساعة .

بولين . اذن فلك نصف ساعة تتخذ فيه قراراً

بول . يجب اذن ألا تموت !فأنا واثق بأنها لن تؤذيك اذا مضيت .

فتنبئه أمه بأنها لاتخاف على نفسها ، وانما تخاف عليه هو أو على صاحبه الالماني إذا لم تقتل هذه الأميرة .

ثم تأتي الاميرة ، وتحاول بولين أن تقنعها بألا تدل على ابنها ؛ ثم تهددها بأنها ستنبيء زوجها القائد بما كان بينها وبين ابنها من خيانة له ،فتزدرى الأميرة هذا التهديد ويأباه (بول) لأنه غير شريف، وتخرج بولين ويبقى العدوان وجهاً لوجه . فانظر الى مايقع بينهما من حديث .

فكتوريا : إنها واجدة عليك لأنك لما تقتلنى !

بول . بل لأنى فعلت اكثر من هذا فأسرعت إلى معونتك

فكتوريا : إنى أنا ايضاً خاضعة لهذا الشعور المخالف للمنطق ، فكيف السبيل الى الخلاص منه ؟ . كيف نهرب من هذه الوحشية

التي يضطر إليها قلبانا الحبيبان بحكم وطنينا العدوين ؟

بول : نعم ! إن قلبانا لصديقان ، ولكن لننظر على أي نحو !.. لم أكد أصل أمس حتى عرفتني ، فلو أني هربت لدللت على أمي فقتلت . . ولم تكن لنا وسيلة إلى النجاة إلا في أن أستدرجك إلى حيث أقتلك بعيداً من البيت . . فكنت مضطراً إذن الى أن أعجبك . .

فكتوريا - في نشاط - لقد وفقت .

بول : ولكني وقعت في الشرك الذي نصبته لأنك أعجبتني ايضاً ؛ ومع ذلك فلم يمنعني إعجابي بك أن أنتهز الفرصة للتخلص منك ولا سيما وانك قد كنت مُطالعة حين بدأت الحديث .

فكتوريا : كان شخصك يبعثني على الاستطلاع وكنت حريصة على خيانتك ؛ وقد أظهرت ذلك أكثر مما كان يجب حين سألتك عن عملاء العسكري .

بول : لقد عنيت العناية كلها بألا أجيب .

فكتوريا : لقد كنت أقسمت على أن أحملك على الكلام .

بول : لقد كنت أقسمت على أن أقودك الى نزهة ، فلو أنك تبعتني لكانت جثتك الآن مخبأة في ناحية من نواحي الغابة .

فكتوريا : لقد كدت أتبعك ؛ ولكن الفلاحين الذين كانوا

يبحثون عن فرس « كلوذو » نجوني ، ولما عرضت عليك أن أمتحنك بالذهاب إلى القرية وحدى كنت أريد أن أدل عليك .

بول : لو أنك نمت هذه الليلة لما استيقظت .

فكتوريا : رأيتك تخبىء شيئاً تحت الوسادة ولو أنك استسلمت للنوم لما كان هناك جاسوس . .

بول : كان الجاسوس حذراً ، لأن الرهبة والرغبة كانتا تضطرانه إلى الحذر

فكتوريا : لقد كنت أنا ايضاً شديدة الرغبة فيك ولكنى كنت خائنة ! .

بول : لقد كانت تعبث بنا أمواج الحب والبغض وما لاطف أحدنا صاحبه ملاطفة إلا كان وراءها ميل إلى الشر ، ولكن قد أقبلت الساعة التى تصبح فيها الشهوة والرغبة والملاطفة جرائم - وسيقضي عليك الواجب بعد لحظات أن تدلى علىّ الضابط الذى سيأتي ليقودك ، ولاجل أن أحول بينك وبين ذلك يقضى علىّ الواجب أن أقتلك ، أنت الآن فى قبضة يدى ! . واذن !...

ثم يخرج المسدس ويصوبه اليها .

فكتوريا ــ جزعة ــ لا ! لا ! رحمة . . لك منى الوعد ! - أقسم بالشرف لا أخونك !

بول . ـ وقد خفض سلاحه ـ لعلى أسىء ... ولكن وعدك ...

فكتوريا : ـ تضطرب ذعراً ـ ثق بهذا الوعد

بول ـ وقد القى سلاحه على المائدة ـ أنت مدينة لى بالحياة ! فليس لك الحق فى محاربتى . .

فكتوريا : لقد فقدت هذا الحق منذ أول قبلة . . وسأحمل فى نفسى ذكر الليلة الوحيدة التي أحسست فيها لذة الحب القوى

ثم يستمر الحديث بينهما على هذا النحو ، وقد أمن كل منهما إلى صاحبه، فينبئها بول بأنه قد أفلح غير مرة فى التجسس على المانيا ويقص عليها زيارة زارها متجسساً فى بلجيكا فتقول :

فكتوريا : لم تقص على ذلك ؟ لقد كنت اتمنى لك عوداً سعيد ، وها أنت ذا تحيى فى نفس الندم ! . كم ألحقت بوطنى من الشر ! . وكم تلحق به من الشر ايضاً ! .

بول : وما لدغة البعوضة فى جلد الفيل ؟

ثم تخرج الأميرة وتأتي (بولين) فيشتد العتاب بينها وبين ابنها ، لأنه آثر عليها هذه المرأة ، وإنها لفى ذلك إذ يأتى الجندى الألماني الذى يشارك بول فى التجسس ، فينبئهما بأنه رأى فى النافذة امرأة أمرته بالالمانيــة أن يذهب إلى القرية فيعلن إلى السلطة فيها أن فى هذا البيت جاسوسا .

واذن فقد حنثت الأميرة فى القسم وأخلفت الوعد فحل دمها ، ولكن بول يتردد مع ذلك فى قتلها ، ولا يطعنن إليه إلا على كره منه . وتخرج أمه لتدعو الأميرة ، فيسمع الرجلان طلق المسدس ، وتعود المرأة فتعلن اليهما أنها قد قتلت الأميرة وأنها تعلم ما ينتظرها من موت ، ولا تطلب الا شيئاً واحداً وهو أن تستخرج من حفرتها إذا عاد الفرنسيون إلى (لورين) فتدفن فى قبر ويكتب عليه : « ماتت لأجل فرنسا ».

هذه هى القصة ، ولعل ما نقلناه لك من أحاديثها يغنى عن الشرح والتفسير.

الدمية الجديدة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « فرنسوا دى كوريل »

(La Mouvelle Idole)

لست أدرى أأحدثك عن قصة من قصص التمثيل أم عن رسالة من رسائل الفلسفة ، ولعلى أحدثك عنهما جميعاً ، فإن القصة التى بين يدى الآن تمثيلية عرفت أكبر ملاعب باريس ، وهى فى الوقت نفسه فلسفية تناولت بالبحث والتحليل مسألة من أكبر المسائل التى تشغل الضمير الانساني وتعذبه سواء أكان ضميرا فردياً أم اجتماعيا . وليس فى ذلك شىء من العجب فإن صاحب القصة هو ذلك الذى حدثتك عنه فى القصة الماضية . هو (فرنسوا دى كوريل) الكاتب الفيلسوف .

وضع هذه القصة سنة ١٨٩٥ ولكنه لم يقدمها الى الملعب لأنه أشفق أن تكون من الدقة والتعمق فى البحث الفلسفى بحيث تسبق عقل الجمهور ، فاكتفى بنشرها فى (مجلة باريس). ولم تكد تنشر هذه القصة حتى أعجب بها الناس وحتى نالت لدى القراء والنقاد فوزا لا بأس به . ثم مضت أعوام فلما كانت سنة ١٨٩٩ تحدث الكاتب مع زعيم من زعماء التمثيل فى عرض هذه

القصة على الجمهور فأصلحها الكاتب وغير منها وأضاف اليها ، ثم مثلت فكان الفوز عظيما، وأجمع النقاد أو كادوا يجمعون على أن هذه القصة آية من آيات التمثيل تؤرخ العصر الذى وضعت فيه وتدل على أن هذا الفن سينتقل من طور الى طور فيختم القرن الماضى فى طوره القديم ويبتدىء هذا القرن فى طوره الحديث . ولم ينكر تفوق هذه القصة ألا ناقدا واحدا هو (سارسى) Sarcey ومع ذلك فقد اعترف بأنها قيمة مؤثرة ولكنه زعم أنها خليقة بالقراءة لا بالتمثيل . ويقول (فرنسوا دى كوريل) : إن هذا الحكم لم يصدر عن إنصاف وإنما صدر عن الهوى

وضعت هذه القصة منذ أكثر من ربع قرن ومع ذلك فلم ينسها الناس ، ولم تعرض عنها ملاعب التمثيل ، بل ما زالت تمثل وتمثل فى أكبر ملاعب باريس فى ، « الكوميدى فرنسيز » « Comédie-Française » ولعل إعجاب الناس بها وفهمهم إياها فى هذه الايام أشد وأصدق منهما يوم مثلت لأول مرة ؛ فقد ارتقى الجمهور فى هذه السنين الاخيرة ارتقاء عقليا ظاهراً يمكنه من الوصول إلى دقائق هذه القصة وأمثالها . ومهما يكن من شىء فان إعجابى بالجمهور الذى يفهم هذه القصة ويكلف بها أشد من إعجابي بالكاتب الذى وضعها ونظم فصولها . وأحسب أن هذه

القصة لو مثلت فى مصر لما استمع لها من الناس إلا نفر قليل ؛ وقليل جداً ، ولهذا ترددت قبل أن أختار هذه القصة موضوعا للحديث، ذلك أن الجد فيها أكثر من الهزل ، بل ليس فيها من الهزل شيء ، وليس أمر الحب فيها ذا خطر ، واذا شئت فقل انه ذو خطر جليل ؛ ولكنه حب علماء يخلو من هذه الرقة ومن هذه الدعابة التي تستخفك وتستهويك . فأنا أعرفك وأعرف أنك لاتطلب إلى الصحف السيارة دروساً علميةأو أحاديث فلسفية جافة ، وانما تطلب ذلك إلى الكتب والمجلات والاساتذة ؛ فأما كتاب الصحف فأنت تريدهم على أن يسلوك ويلهوك فى أوقات الفراغ فى القهوة أو فى الترام . وفى الحق أن هذه القصة لا تسلى ولا تلهى ، بل لاتكاد تحرك عواطف القلب وانما هى تهز العقل الانساني هزاً عنيفاً وتحي الشك حينا ما . وحسبك أنها تقرب بين الذكاء والإيمان أو بين العلم والدين

قلت إن الحب فى هذه القصة حب علماء ، ولست أغير هذا القول ولا أعدل عنه ، فسترى أن الاشخاص الممتازين فى هذه القصة أربعة : رجلان وامرأتان ، فأما الرجلان فعالمان من أكبر العلماء يتعمق أحدهما فى الطب والاخر فى علم النفس ، وأما المرأتان فاحداهما ليست عالمة ولكنها كالعالمة لأنها تستطيع أن

تفهم هذين العالمين وتناقشهما وتلزمهما الحجة، والأخرى ليست عالمة ولا شبيهة بالعالمة ولكنها أبعد عن الحب ولذاته ودعابته من العلماء والفلاسفة، لأنها تستعد لتكون راهبة، وهي تستعد لذلك بقلب ملؤه الدين والإخلاص

فأنت ترى أن أحاديث الحب لا يمكن أن تكون عذبة ولا مثيرة لتلك العواطف الخفية بين ناس كهؤلاء الناس، وإنما هي أحاديث أرق من هذا كله وأدق. ثم إن هؤلاء الاشخاص الذين لا أشك في أنك ستحبهم وتكلف بهم وتعطف على بعضهم، هؤلاء الاشخاص ليسوا عاديين. ماذا أقول؟ إني لأتساءل: أيمكن أن يوجد في حياتنا الواقعة أشخاص كهؤلاء يتحدثون كما يتحدث هؤلاء الناس ويعملون كما يعمل هؤلاء الناس، وأكاد أعتقد أن الكاتب لم يحاول تصوير ما هو كائن في الارض وإنما استنزل المثل الأعلى من السماء فصوره تصويراً متقناً ثم عرضه على الناس ليهيج شوقهم إليه ورغبتهم فيه. ولعله حاول مع هذا أن يحل هذه المشكلة العويصة، مشكلة الجهاد العنيف المتصل بين عقل الرجل الكبير وشعوره

فهل وفق إلى هذا الحل؟ أعتقد أنا أنه لم يحل

المسألة ، ولعل هـذه المسألة لا تحل . وحسب الكاتب مجدا ، وحسبه من الفوز العلمى أنه قد استطاع أن يظهر لك بطريقـة لا تحتمل شكا ولا ريبا أن أشـد الناس نبوغا فى العلم وتفوقا فى حل معضلاته ، وأشدهم مضيا فى الإلحاد وإنكار الإله والدين خاضع كما يخضع أشـد الناس جهلا وأكثرهم إغراقا فى الغفلة والذهول لهـذه العواطف التى تحمل على الخوف والإشفاق ، والرحمة والحنان ، والأمل فى المستقبل ، والطمع فى حياة أخرى بعد الموت ، بل فى جزاء للأعمال التى نأتيها فى هـذه الحياة ، خاضع لهـذه العواطف التى ينشئها الدين فى نفوسنا فهو مجتمع شيئين متناقضين : عقـل ملحد كل الإلحاد ، وقلب مؤمن كل الإيمان

نعم وفق الكاتب إلى عرض هذه المسألة وإيضاحها . وسواء علينا أوفق إلى حلها أم لم يوفق ؛ فذلك شىء فى نفسه ليس بذى خطر . وإنما الأمر كل الأمر أن نعرف أن أشـد الناس ذكاء وأكثرهم إلحاداً مؤمن سواء أراد أم لم يرد ، مؤمن لأنه إنسان ليس غير ، ثم قد يكون إيمانه واضحا ، وقد يكون غامضا ؛ وقد يكون موضوع هـذا الإيمان جليا ، وقد يكون خفيا ولـكنه مؤمن على كل حال ، يحتاج حين يغلب قلبه على عقله إلى أن يلجأ

إلى قوة قاهرة يستمد منها الغوث والمعونة . فلننظر بعد هذه المقدمة إلى القصة .

قلت إن أشخاص هذه القصة ليسوا عاديين والحق أنهم جميعا ممتازون ، فأولهم « البير دونا » طبيب قد نبغ فى فنه وأصبح موضع إعجاب قومه بل موضع إعجاب العالم كله ، تفاخر به فرنسا كما تفاخر بنابغتها «باستور»، والثاني « لويز » امرأة هذا الطبيب ، بارعة الجمال شديدة الذكاء ، رقيقة القلب ، حادة العاطفة . والثالث « موريس كورميه » نابغة فى علم النفس يعمل فيه عملا لايعرف الملل ، يستخدم التجربة ويصل إلى نتائج عظيمة القيمة ، ويحاول أن يجعل علم النفس علما حقا ينتج كما تنتج العلوم الاخرى التى تم تكوينها ، والرابع « انطوانيت ميلا » فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها فقيرة معدمة يتيمة جميلة جداً شديد التأثير فى نفس من يراها ، ولكنها مريضة قد ألح عليها السل فجزم الاطباء بأنها ميتة وهى تستعد لحياة الراهبة

* * *

فاذا ابتدأت القصة رأينا « لويز » جالسة فى لبسة المتفضل مرسلة الشعر تكتب ، فتدخل عليها أختها « جان » التى لم نسمها لأن أثرها فى القصة قليل ، تنبىء « جان » أختها « لويز » بنبأ

عظيم ، بخطب جلل يوشك أن يدك حولها كل شيء ، وهو أن زوجها الطبيب متهم يراد أن يقبض عليه ، وأن الناس جميعا يتحدثون بذلك ، فاذا سألت « لويز » عما يتهم به زوجها فان التهمة شنيعة ولكنها تشرف المتهم ، تشرفه أمام العقل وأمام العلم ، وتجعله مجرما أمام القانون وأمام الضمير . وإذن فقد خلق الموقف العسير الذي تدور عليه القصة ، موقف التناقض بين العقل والعلم من جهة وبين القانون والضمير من جهة أخرى . ذلك أن « البيردونا » الطبيب قد اتخذ المرضى موضوعا لتجربة مهلكة فهو يبحث عن مصل يداوى به السرطان ، وقد اضطره هذا البحث إلى أن يلقح « بميكروب » السرطان بعض المرضى ، فنجحت التجربة وأصيب هؤلاء المرضى بهذه العلة المهلكة ، فالتجربة في نفسها خير ، بل هي واجب علمي ، بل هي واجب خلقي إنساني ، لأنها وإن ضحت بطائفة من الناس فستضمن البرء والعافية للناس جميعا ، فهي من هذه الجهة خير ، ولكنها قتل ، فهي جريمة ينكرها الضمير والخلق والدين ، ويعاقب عليها القانون . هذا هو الموقف ، أو هي العقدة كما يقول الممثلون . وليس لهذه العقدة حل إلا أن تتطور الانسانية فينتصر العقل انتصاراً مطلقاً يخضع لسلطانه

القوانين والاخلاق والعرف والاديان ، أو ينتصر الضمير انتصاراً مطلقا يمحو العقل ويزيل آثاره .

ولكننا الآن فى شغل عن هذه المسألة التى سندرس فيما بعد . ذلك أن هذا الحديث بين الأختين قد أظهر أن « لويز » لا تحب زوجها أو أنها شقية كل الشقاء مع هذا الزوج لأنها كانت تحبه الحب كله فلم تظفر منه بما يرضى قلبها وعواطفها لأن هذا العالم شغل بعلمه وبحثه وبره بالمرضى والضعفاء عن امرأته وعما يحتاج إليه قلبها وعواطفها وحبها ، فعاشا معا عيشة أليمة لا يشعر الناس بما فيها من ألم بل لا يشعر الزوج نفسه بما فيها من ألم ، وإنما تألم هذه الزوجة المسكينة وتتعذب دون أن يشعر بها أحد أو يعطف عليها إنسان . وهى منذ عشر سنين فى هذه الحياة المرة تجل زوجها وتكرمه لأنه نابغة ، ولأنه خيّر ، ولكنها تشقى بجواره لأنها لا تجد عنده ما تريد ، وهى تضطرب بين شرين : أحدهما الوفاء لهذا الزوج المعرض اللاهى وما يستتبعه هذا الوفاء من ألم وضنك ، الثاني الحرية والاستمتاع بلذات الحياة وإرضاء قلبها وعواطفها وميلها القوى إلى السعادة وما يستتبعه هذا كله من الخيانة والغدر ومخالفة الضمير والخلق والدين .

موقف آخر عسير كالموقف الأول ، كانت « لويز » تحاول أن

تجد منه مخلصا لا سيما وأن هنالك شخصاً ثالثا يحبها ويكلف بها ويظهر لها هذا الحب والكلف ، وهى تميل إليه ولا تجد غضاضة فى مجالسته والتحدث إليه ، وهذا الشخص هو «موريس كورميه» النابغة فى علم النفس والصديق الوفى لزوجها . كانت إذن تنتهز الفرصة للتخلص من هذا الموقف ، فقد سنحت الفرصة ، أصبح زوجها مجرما وهى لا تحبه ، وإذن فستفارقه وتسترد حريتها وتشاطر صاحبها لذات الحياة . وإنها لتتحدث فى هذا كله إلى أختها إذ تدخل الخادمة فتنبىء بأن فتاة أقبلت تريد أن تلقى الطبيب لأنها منه على موعد ، فيؤذن لهذه الفتاة فى الدخول لأن « لويز » تفترض أن هذه الفتاة ضحية من ضحايا زوجها فتريد أن تتبين منها الأمر . تدخل هذه الفتاة وهى «انيا وانيت» ؛ فتقص على الاختين ما ذكرنا لك من أمرها وتنبئهما بأنها قد شفيت أو كادت لحسن علاج الطبيب ، وأنها أقبلت تستشيره بعد أن كتبت إليه فأذن لها فى ذلك . ويأتي الطبيب فتنبئه أخت امرأته بما علمت من أمره وتطلب إليه أن يحتاط وأن يخفى أوراقه قبل أن تأتي الشرطة للتفتيش ، وكانا يتحدثان فى ناحية فتعلم من حديثهما أمرين : الأول أن هذه الفتاة ضحية من ضحايا الطبيب لأنه واثق بأنها ستموت ، وإذن فقد اتخذها موضوعا للتجربة ،

الثانى أنه سيخفى أوراقه عند صديق أمين هو «موريس كورميه» الذى علمت من أمره مع لويز ما علمت ، ثم تخرج « جان » ويعنى الطبيب بهذه المريضة فيسألها عن أمرها وتجيبه بأن صحتها جيدة وأنها تحس كأنها تخلق خلقا جديدا ، ولكن دملا قد ظهر فى جسمها لا يريد أن يشفى ولا أن يفتح، ولهذا أقبلت تعرضه على الطبيب ، وقد علمت طبعاً أن هذا الدمل هو السرطان . يفحص الطبيب صدر المريضة فكلما تقدم فى الفحص اشتد خوفه وذعره واضطرابه ، ذلك لأنه يلاحظ أن هذه الفتاة قد برئت من مرض السل ، وإذن فهو قاتلها لأنها ستموت بالسرطان .

الطبيب واله جزع ، ولكنه يتجلد ويسأل الفتاة فى عنف عما اتخذت من دواء ،فتجيبه بأنها لم تتخذ إلا دواءه هو ، وأنها قد اتخذت شيئاً آخر تخشى أن تذكره فيغضب الطبيب ، شربت ماء « لورد » Lourdes (وهى قرية فيها ينبوع ظهر فى القرن الماضى فقدسه الناس وزعموا أن العذراء هى التى أخرجته الى آخر ما هو معروف من أمره)

إذن فلم يبق شك عند الطبيب فى أنه قاتل وفى أنه يستحق عقاب القاتل ، ذلك لأنه كان يعتقد أن تجاربه ليست شراً فهو لا يجربها إلا فى أشخاص لا يشك فى أنهم ميتون ، وإذن فهو

لم يكن يجني على الإنسانية ، بل لم يكن يجني على المرضى أنفسهم . أما الآن وقد برئت هذه الفتاة من السل فالأمر غير ذلك ، قد جنى على الإنسانية فأفقدها بعض أفرادها ، وجنى على هذه الفتاة فأفقدها الحياة ، وإذن فهو قاتل

تتفق « لويز » مع هذه الفتاة على أن تقيم عندها لتعالج فى البيت ، ثم تخرج الفتاة ويقف الزوجان وجها لوجه . فانظر كيف يبتدىء بينهما الحديث

« لويز » : إنك لقاتل !

« البير » — فى بطء — : نعم إنى قاتل !

« لويز » : لا أعرف جريمة أدنأ من هذه ! . . . فتاة بائسة ليس لها عائل وليس لها من يدفع عنها ! . . . .

« البير » : لقد كانت ميتة ! . . ولقد حاولت كل شىء فى إنقاذها . . . ولقد وصلت من الفناء الى حد أيأسنى من شفائها وأقسم لو أن طبيباً أقبل فتنبأ لنا بأن صحتها قد تتحسن لوصفناه بالحمق ! . . . لقد كنت أجرب فى جثة هامدة . . . فلم أزدها ألما ولا حزنا ، ولقد لقحتها ميكروب السرطان وهى فى إغماء فلم تشعر بشىء . . .

***

« البير » : أرى أني مجرم ولكني أرى ذلك لاول مرة . . .
لقد كنت مطمئنا الاطمئنان كله . . . إن الذين شهدوا مثلى احتضار كثيرين ثم فكروا لا يستطيعون أن يؤمنوا بحياة أخرى. نعم : إذا رأيت الكائن العاقل يفقد قليلا عقله وبهجته وشعوره وكل مايكون الشخص الانسانى حتى لا يبقى منه على سرير الألم إلا شىء تعس ذاهل يصيح . . إذا رأيت هذا شعرت بأ نك إنما تشهدين كائنا ينحل انحلالا مؤلما لا شخصا يبتدىء سفراً مجيدا ، واذن فنحن الذين يعلمون أن ليس بعد الموت حياة أخرى نجل الحياة ونقدسها أكثر مما يجلها ويقدسها مؤمن متعصب ، ونعتقد أن أشد الجرائم إنما هو أن نضيع ولو مخطئين على الحى دقيقة من حياته التى ينتظرها الفناء ، وان تستطيعى أن تتصورى ما كنت أتخذ من حيطة حتى لا تقصر تجاربى أجل المريض ولو ثانية واحدة . .

ثم يدور الحديث بينهما على هذا النحو شديدا قاسيا مؤلما حتى تبلغ « لويز » من لومها أن تنكر عليه ثقته بعلمه ، وترى أنه كان من الحق عليه ألا يجزم بأن مريضا سيموت فقد تشفيه معجزة وهنا ينكر الطبيب المعجزات ، ويشتد الجدال بينه وبين زوجه فى ذلك حتى تخرج لويز عن طورها فتقول له : وهما تضرع إلى

العلم هذا المعبود الجديد الذى يظلم العالم إن تقبل ضحيتك الدموية فان هذا العلم نفسه يظهر كراهية بشعة لهذه الضحية . . : حياة واحدة تملك تقديمها إلى العلم . . . هى حياتك ! »

فيدفع الطبيب عن نفسه بأنه كثيراً ما عرض حياته للخطر فى مكافحة الامراض المهلكة ؛ ويذكرها مرضاً أصابه وأشرف به على الموت ، وأنها قد عنيت به فى هذا المرض عناية ملؤها الاخلاص ؛ وينتقل بهما هذا الحديث إلى ما بينهما من صلة ، فيذكر الطبيب أن امرأته لا تحبه ، ويحدثها بذلك فيكون بينهما حوار مؤلم ؛ تذكر « لويز » أنها كانت تحبه ولكنه كان يزدريها ؛ ويذكر هو أنه كان يثق بها ويعتمد عليها ويعتز بعطفها فى جهاده العلمى . تذكر له أنها فقدت حبها إياه ولكنها كانت تجله إلى اليوم ؛ فيسألها عن رأيها فيه منذ اليوم ؛ فتجيبه أنها أصبحت تخافه ؛ لأنه كان ينكر على المؤمنين المتعصبين ازدراءهم حياة الناس فى سبيل الإيمان والعقيدة حينما هو يزدرى حياة الناس فى سبيل علمه دون أن يضمن لهؤلاء الناس ما يضمنه لهم المؤمنون من حياة أخرى فيها الأمل والرجاء ، وفيها السعادة والنعيم . ويستمر بينهما الحديث حتى يعرض الطبيب على امرأته أن تسترد حريتها فتقبل ذلك مترددة . وهنا تظهر عاطفة جديدة فى نفس هذه المرأة التى

تـكره زوجها وتخافه ؛ تظهر عاطفة الخير والرحمة ؛ ولـكنها ليست واضحة . تحس هذه المرأة فى أعماق نفسها شيئاً غامضاً يأمرها ألا تترك هـذا الزوج الذى ينصرف عنه الناس جميعا ويتركونه يعاني وحده سخط الجماعة ووخز الضمير . وإنهما لفى ذلك إذ يدخل « موريس كورميه » فينصرف الطبيب ليحضر الاوراق التى يريد أن يخفيها عند صاحبه ؛ وينتهز الصديق هذه الفرصة القصيرة ليتحدث إلى صاحبته فى الحب ، ولـكن هـذه الفرصة لاتطول فيعود الطبيب ويكاف صاحبه أن يعنى بما يدفع إليه من الاوراق ؛ وهنا ينتهى الفصل الاول وقد عرض فيه موقف الاشخاص جميعا أحسن عرض ؛ وفصل أدق تفصيل . فأما الطبيب فهو يرى نفسه مجرما أمام ضميره بعد أن استيقن شفاء « انطوانيت » من السل ، وهو جزع لهذا ؛ جزع لان امرأته تـكرهه وتخافه ، وهذه المرأة ترى زوجها مجرما وقد كانت تـكرهه وتخافه ؛ ولـكنها بدأت تعطف عليه دون أن تتبين ذلك من نفسها . فأما « موريس كورميه » فهو يجل الطبيب ويكبره وهو مع ذلك يحب زوجه ويدور حولها .

***

فإذا كان الفصل الثاني ازدادت هـذه المواقف وضوحا ؛

تذهب « لويز » إلى معمل « موريس كورميه » فيريد هذا أن يتحدث إليها فى الحب ، ولكنها تنبئه بأنها تحبه غير أنها جاءت لاجئة إلى العالم لا إلى الصديق ، جاءت تلتمس عنده شفاء نفسها المضطربة ، أليس نابغة فى علم النفس ؟ إذن فليشفها ، إنها مترددة بين الحرية التى هى حقها وبين العطف على زوجها ، هذا العطف الذى هو واجبها ، لقد لجأت إلى الصلاة فلم تنفعها ، فليشفها العلم إن لم يشفها الدين ، ولكن العلم عاجز عن شفائها لأنه لم يتقدم بعد وما زال ناشئاً ، وهو لا يعالج إلا المرضى و « لويز » ليست مريضة الجسم . وإنها لفى ذلك مع صاحبها إذ يقبل الطبيب فتستخفى حيث تسمع وترى دون ان يراها أحد . لذيذ جدا هذا الحوار القوى العنيف الممتع الذى يدور بين هذين العالمين ، لذيذ يستحق أن يترجم كله ، ولكنى مضطر إلى ألا أترجم لك منه شيئا إشفاقا من الاطالة التى بلغت حد الإملال .

فى هذا الحوار يظهر الجهاد بين العقل والقلب ، بين العلم والدين ، بين الذكاء والعاطفة ، وقد انتصرت العاطفة على الذكاء ، وقد انتصر القلب على العقل ، وقد ظفر الدين بالعلم ، فإذا الطبيب مؤمن بقوة لا يتبينها ، وإذا ضميره مقتنع بأنه مجرم . ولكن هذا الانتصار ليس باهراً ، لأنه نتيجة الضعف والاضطراب .

يتحدث الطبيب إلى صاحبه فما أسرع ماينتهى بهما الحديث إلى وجود قوة قاهرة تسمو إليها الانسانية كلها ، فيعترف الطبيب بهذه القوة وينكرها النابغة فى علم النفس ؛ ويشتد بينهما الجدال فبينما يستدل الطبيب بمظاهر الطبيعة المختلفة وميل الفطرة الانسانية والعقل الانساني إلى الخلود والإيمان بالخلود يجيبه صاحبه بأن هذا كله أثر من آثار الضعف ونتيجة من نتائج الاضطراب الذى هز قواه منذ أمس ؛ ذلك لأن أشد الناس قوة وأمضاهم بصيرة وأكثرهم إلحادا يلجأ إذا دهمته الداهمات وألمت به الملمات وأعوزه النصير من أبناء جنسه إلى قوة خفية يخلقها له الضعف ويستحدثها له الوهم ويصورها له حرصه على الأمل وجزعه من اليأس ، فما أسرع ما يعترف الطبيب بأن هذا حق ! ولكن هذا الاعتراف لا يحوله عن يقينه ، فهو يؤمن بأن هنالك قوة وإن شئت فقل حقيقة عليا عامة تشمل حقائق الحياة كلها ؛ هى الصورة المجملة المفصلة لكل ماهو كائن ، يؤمن بذلك وبأن الميل الطبعى للانسان إنما هو السمو إلى هذه الحقيقة العليا ، يسمو إليها بقلبه تارة فيؤمن دون بحث ولا تفكير ، ويسمو إليها بعقله تارة أخرى فيؤمن بعد البحث والتفكير ، يصل إليها الطبيب بواسطة طبه ، ويصل إليها الطبعى بواسطة بحثه الطبعى ، ويصل إليها كل عالم بواسطة العلم ،

الذى يشتغل به ، ولـكن العلماء يقصرون بحثهم وهمهم على ما بين أيديهم من حقائق الحياة الدنيا ، ولا بد لهم من أوقات الشدة والمحنة لينتقلوا من حقائق هذه الحياة إلى الحقيقة العليا التى ينتهى إليها كل شىء . ثم يصل بهما الحديث إلى ذكر امرأة مريضة كانت موضوع التجربة فى علم النفس فى هذا المكان فقدت هذه المرأة ابنا لها كانت تحبه تخيل اليها أنها قاتلة ابنها وضاقت عليها لذلك سبل الحياة فأقبلت الى صاحبنا العالم النفسى تلتمس لديه الشفاء ، ووجد هذا العالم وصاحبه الطبيب وسيلة إلى شفائها ، وهى أن أنامها العالم ووضع أمامها تمثالا يشبهها وأعطاها سكينا وأنبأها بأن شخصيتها مضاعفة تتألف من امرأتين مختلفتين : إحداهما أم تحب ابنها والاخرى امرأة غادرة قتلت هذا الابن ، ثم قال لها العالم دونك هذه القاتلة انتهزى نومها فاقتليها انتقاما لابنك ، ففعلت وكان ذلك شفاء لها

قال «موريس» لصاحبه الطبيب : إن وجهك الآن يذكرني وجه هذه المرأة فلك صورتها ونظراتها ، قال الطبيب : لم تخطىء لأنى قتلت اليوم رجلا ، وأنبأه بأنه فى صباح هذا اليوم لقح بمرض السرطان رجلا قويا صحيح البنيـة ليس بالمريض ولا المتعرض للموت ، وذلك لتكون تجاربه العلمية أصح وأصـدق

إنتاجا ، ثم دفع إليه ورقة فيها ذكر هذه التجربة ونتائجها الاولى ، وأنبأه بأنه سيدفع إليه فى كل يوم نتائج تجاريه ، وهنا اضطرب العالم النفسى ولم يتردد فى اتهام الطبيب بالاجرام ، فدفع الطبيب عن نفسه بأن هذا الرجل الذى قدم نفسه ضحية للعلم حر فى أن يحيا أو يموت ، وأنه قد اختار الموت لا مكرها ولا مخدوعا ولا مضللا ، وإنما اختار الموت رغبة فى العلم من جهة وفى الخير من جهة أخرى ، أراد أن يستفيد العلم وأن يستفيد الناس بعد ذلك ، ثم انصرف الطبيب وقد قال ذلك بصوت يملؤه البكاء .

فتخرج « لويز » من مخبئها مضطربة واجمة قد أخذها شيء يشبه شوق الصوفيـة ، فيحب « موريس » أن يتحدث إليها ، ولـكنها تأبى وتعلن إليه أن زوجها لم يقتل إلا نفسه ، وأن هذا الرجل الذى ضحى بنفسه للعلم والخير إنما هو « البير » ، وأن قربه من الموت هو الذى حبب إليه ذكر الخلود والحياة الآخرة ، وأنه جاء يلتمس معونة صاحبه وعزاءه فلم يجد إلا جفاء العلم وقسوته ، دعني ألحق بزوجى ! ! ثم تتركه ويلقى الستار .

فهذا الفصــل الثانى قد أوضح هــذين الشخصين إيضاحا كاملا ، فتم فى نفس الطبيب انتصار ضميره على عقله ، وتم الاتفاق بين علمه ودينه فهو مقتنع بأنه يجب أن يقتص من نفسه

لهذه الفتاة البريئة التي قتلها ، وهو يقتص من نفسه فيلقح نفسه مرض السرطان ويحقق بهذا التلقيح شيئين : الانتقام ، وتجربته العلمية ، فسيصبح منذ هذا اليوم موضوعا لهذه التجربة . وسيموت بعد أشهر وقد أرضى علمه فعرف نتيجة بحثه ، وأرضى ضميره فانتقم لتلك الفتاة البريئة .

وأما زوجه فكانت مترددة بين الحرية والعطف على زوجها لأنها كانت تجهل هذا الزوج ، فلما سمعت له وعرفت ما فعل بنفسه استقر رأيها وتم أمرها على أن تؤثر الواجب على الحق ، فنسيت حبها «لموريس» ونسيت حريتها ولم تفكر إلا في زوجها الشهيد فلحقت به تواسيه وتعزيه .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث تم التفهم والاتفاق بين هذين الزوجين ، فأنبأت « لويز » زوجها بأنها تحبه ، لأنها سمعت ماقال عند « موريس » ، وأن حبها إياه لا يعرف حدا ، فهي مستعدة لأن تتلقى مرض السرطان ، مستعدة لأن تتلقى شراً من هذا المرض ، لا تريد من ذلك إلا أن تشعر بأن زوجها يحبها

وقد نسينا الفتاة البريئة التي نجت من السل فوقعت في السرطان . تقدم هذه الفتاة فتنبيء الطبيب في لطف ورفق بأنها

تعلم ما أصابها وأنها سعيدة به وأنها لا تأسف على شيء لأنها كانت قد وهبت نفسها للخير ، كانت تريد أن تعطى حياتها قليلا قليلا للبائسين ، فستعطى حياتها للبائسين دفعة واحدة لا أقساطاً ، فهى لم تخسر شيئاً ولعلها ربحت شيئاً كثيراً ، وهى سعيدة بالموت لأنه سلمها إلى السماء .

وتنتهى القصة وهؤلاء الأبطال الثلاثة قد وصل كل واحد منهم إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البطل ، فأما الطبيب فقدم نفسه ضحية للعلم والضمير والعدل راضياً مختاراً ، وأما الفتاة فقدمت نفسها ضحية للإنسانية راضية مذعنة لحكم القضاء ، وكل ما بينها وبين الطبيب من الفرق هو أنها تثق بعدل الله فى الحياة الآخرة ، وأن الطبيب يحاول أن يثق بهذا العدل ، أو إن شئت فقل يؤمن قلبه بهذا العدل ويضطرب عقله فى ذلك ، وأما «لويز» فقد نسيت حريتها وميولها وأهواءها وعواطفها وحبها وقدمت نفسها ضحية للواجب ، وللواجب وحده ، تتمنى أن يكون نصيبها كنصيب زوجها وكنصيب هذه الفتاة البائسة ، تتمنى لو تموت فى سبيل الحب وفى سبيل الواجب .

فأنت ترى إلى هؤلاء الاشخاص كيف أحسن الكاتب

تصويرهم، وكيف بلغ بكل واحد منهم إلى أقصى مداه . ولكنك تستطيع أن تسأل عن « موريس » ، هذا النابغة فى علم النفس ماقيمته وما خطره فى القصة ؟ ليس له قيمة ولا خطر ، وإنما هو وسيلة اتخذها الكاتب ليظهر أبطاله ، فلولا «موريس» لما تكلمت « لويز » ولما تكلم زوجها الطبيب ، فهو إذن اختراع تمثيلى لا أكثر ولا أقل .

ولقد كنت أحب أن أظهرك بعد هذا التحليل الموجز على ما فى القصة من جمال اللفظ وحسن الاسلوب ودقة الحوار ، ولكن أين السبيل إلى ذلك والقصة مكتوبة بالفرنسية ، وإظهار هذا الجمال كله يحتاج إلى ترجمة دقيقة طويلة يضيق عنها وقتك ووقتى وصحيفة السياسة

نشوة الحكيم

L'vresse du Sage

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « فرنسوا دى كوريل »

حدثتك مرة عن الكاتب الفرنسى « فرنسوا دى كوريل» (Prançois de Curel) وعن قصصه التمثيلية ، ولعلك تذكر أنا رأينا لهذا الكاتب ميزتين : الاولى أنه ممثل فليسوف ؛ فالجهاد الذى تشتمل عليه قصصه التمثيلية لا يقع بين أشخاص بل لا يقع بين آراء عادية قد ألفها الناس ، وإنما يقع عادة بين آراء فلسفية يمثلها أشخاص القصة تمثيلا صحيحاً . الثانية ميزة فنية خالصة تذكرنا بكبار الشعراء الممثلين من اليونان ، و « بايسكيلوس » منهم بنوع خاص ، وتذكرنا أيضاً بقواعد الفن فى عصره اليونانى العظيم ، وهى أن الكاتب لا يكاد يبدأ الفصل الأول من قصته حتى يعرض عليك موضوع هذه القصة ويبين لك العقدة التى يجب أن يمضى جهاد الاشخاص والحوادث فى حلها ، فلعلك تذكر « أرض الجحيم » وانك لا تكاد تفرغ من الفصل الاول حتى ترى الجهاد قائماً عنيفاً بين هذه الخواطر الكثيرة المختلفة : بين الحب والواجب ، بين الخوف والرغبة ، إلى آخر ما تحدثت به

إليك حين حللت هذه القصة .

« فرنسوا دى كوريل » إذن ممثل حقاً ، وفيلسوف حقاً ، ولكن فلسفته كما قلنا غير مرة ليست فرحة ولا مبتهجة وليست تقطر بشراً وسروراً كما أنها ليست عابسة ولا محزونة وليست تقطر أسى ويأساً ؛ وإنما هى وسط بين الابتهاج وبين اليأس ، وهى إلى الحزن أقرب منها إلى السرور ، وان شئت فقل إنها فلسفة تأخذ الناس على أنهم ناس فلا ترفع قدرهم إلى حيث لا ينبغى ولا تحطه إلى حيث لا ينبغى ، وإنما تعرف للناس مكانتهم وتقدر لهم حظهم من الخير والشر ونصيبهم من الفضيلة والنقيصة ولا تحمد ولا تلوم ، أولا تسرف فى الحمد واللوم وإنما تسجل الاشياء كما هى ، وتريد أن ترضي عنها كما هى . هذه فلسفة « فرنسوا دى كوريل » تجدها واضحة جلية فى أكثر قصصه التمثيلية . ولكني أريد أن أحدثك عن قصة لهذا الكاتب مثلت فى بيت « موليير » آخر السنة الماضية وهى « نشوة الحكيم » (L'ivresse du sage) أريد أن أحدثك عن هذه القصة . ولكنى لا أدرى كيف أحدثك عنها وقد كان يخيل إلى أني قصرت وحدى عن فهمها وقدرها والحكم فيها ، ولكني لم أكد أقرأ آراء النقاد الفرنسيين حتى رأيت أن الله لم يختصني بهذا القصور ، وأن

أكثر النقاد إن لم أقل جميع النقاد قد وقفوا من هـذه القصة موقف الدهش الحائر الذى لا يدرى ماذا أراد الكاتب أن يمثل وماذا أراد الكاتب أن يعرض على الناس ، رأى كل ناقد فى القصة رأياً يخالف آراء النقاد الآخرين ، ولم توفق القصة من الفوز إلى ما وفقت إليـه القصص الأخرى ، ولـكنها لم تفشل ، فما زالت تمثل إلى الآن فى « بيت موليير » ، ولـكن النقاد يختلفون فى تأويل هذا الفوز القليل الذى نالته القصة ، فيلقى بعضهم تبعته على الممثلين ، وربما ألقى بعضهم تبعته على الجمهور . ومصدر هذا أن الـكاتب لم يحدد موضوع القصة ، ولم يبين الغرض الذى يسعى إليه بياناً واضحاً ، ولم يحاول أثناء القصة أن يجلو هذا الغرض أو يحدد هذا الموضوع ، وأكبر ظني أنه لم يرد إلا أن يتحدث إلى الجمهور حديثاً لذيذاً ممتعاً مفيداً مضحكا من حين إلى حين ، دون أن يكون قد قصد إلى خلق جهاد قوى عنيف بين فـكرتين فلسفيتين أو بين مؤثرين من هذه المؤثرات المختلفة التى تدبر الحيـاة ، وإن زعم لنا ناشر القصة أن المؤلف سيضع لهـا مقدمة تفسيرية تبين أغراضها وموضوعها بياناً مريحاً . فلنسجل منـذ الآن أن هذه القصة قد اختلف النقاد فى فهمها وذهبوا فى تأويلها المذاهب ، ورضى عنها الجمهور ولـكنه لم يعجب بها إعجاباً لاحد

له ، وأعلن المؤلف أن من أراد أن يتبين غرضها وموضوعها فلينظر المقدمة التى سيضيفها إليها يوم بنشرها مضافة إلى قصصه المختلفة ، وليس هذا كله مما يحمل على الاعتقاد أن هذه القصة قد كانت آية من آيات الفن أو أثراً خالداً من آثار هذا الكاتب العظيم .

على أني أتعجل فاثبت أنك لاتكاد تقرأ فصلا من هذه القصة حتى يتنازعك شيئان مختلفان : أحدهما الاعجاب الشديد بجودة اللفظ وبهذه الثروة الضخمة التى امتاز بها هذا الكاتب من الآراء الخصبة المغنية المغذية التى تجدها فى كل حوار بل فى كل جزء من حوار ، والآخر هذه الحيرة التى تحملك على أن تسأل نفسك: ماذا يريد وإلى أين يريد ؟ فليس الجهاد قائما بين رأيين وإنما هو قائم بين آراء ، وليس هذا الجهاد عنيفا ولا حاداً بحيث يحملك على أن تتوقع الشر وتستعد لهذه الهزات القوية التى تستأثر بك أمام كل جهاد عنيف ، وليس هو من الفتور واللين بحيث يحملك على أن تستسلم للمثلين وتستعد للضحك واللذة ، هو بين بين ، يحملك على أن تضحك ويخيفك من أن تبكى ، وهذه ميزة يجب أن تقدر ، ميزة ترفع القصة عن الفتور وإن لم تصل بها إلى الحدة والعنف اللذين يميزان كبار القصص التمثيلية .

* * *

« بول سوترو » (Baul Sautereau) رجل غنى ضخم الثروة له أرض واسعة ومعامل كثيرة يعمل فيها عمال كثيرون تكاد تبلغ ثروته المليارات ، وهو قد نشأ فقيراً معدماً ، فتعلم من الفقر الصبر واحتمال المكروه، وتعلم من الفقر أيضاً كيف يقدر الغنى ويحسن القيام عليه ، وتعلم من الفقر والغنى معاً كيف ينظر إلى الاشياء كما هى فلا يزدريها ولا يغلو فيها فهو فيلسوف ، قد بلغ الستين من عمره ولكن حياته المنظمة التى لم يفسدها إفراط ولا تفريط قد حفظت له صحة موفورة وقوة لا بأس بها . بلغ الستين ولكنه شاب ، وله ابنة أخت فقدت أبويها طفلة واضطر هو إلى أن يكفلها فأنشأها فقيرة أو خيل إليها أنها فقيرة وأخفى عليها ثروته وغناه وأخذها بما يأخذ به الفقراء أبناءهم من ضروب الشدة والقصد فى غير تقتير ولا حرمان ، وأخذ يطوف بها فى أقطار فرنسا أثناء الاجازات المدرسية فلا ينزلها إلا فى الفنادق المتوسطة ولا يظهر لها قليلا أو كثيراً من الثروة التى لا تكاد تعدلها ثروة فى فرنسا . فلما بلغت طور الفتاة وأتمت تعليمها الثانوى أرسلها إلى باريس لتدرس فى الجامعة وأرسل معها مربية ترشدها وتقوم منها مقام الأم . هذه الفتاة تسمى « هرتانس »

اختلفت « هرتانس » إلى السربون، واختلفت بنوع خاص إلى دروس أستاذ فى الفلسفة قد بعد صيته وكلف به الناس كلفاً شديداً فازدحمت غرفة درسه بالرجال والنساء وبالفتيان والفتيات على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ولاسيما فى هذه السنة لان موضوع الدرس كان غريباً ، وكان من شأنه أن يشوق الناس جميعاً ولاسيما النساء ، كان موضوع الدرس فى هذه السنة ! « لم نحب ؟ » واسم هذا الاستاذ الذى بلغ هذه المنزلة من بعد الصيت وهو بعد شاب لم يكتهل « روجيه برميلان » (Rrger Parmelins)

اختلفت « هرتانس » إلى درس الأستاذ فكلفت بالدرس وشغفت بالاستاذ، وحملها هذا الشغف وذلك الكلف على أن تلخص دروس الاستاذ ، وتبعث بطائفة من هذه الدروس الملخصة إلى الاستاذ ليرى فيها رأيه ، فأعجب الاستاذ بالتلخيص ، وكتب إلى الفتاة يحدثها باعجابه ويحثها على المضى فى العمل ، ويطلب إليها أن تعرض عليه عملها من حين إلى حين ، فكانت زيارات ومطالعات ومحاورات ، ثم كان الحب ينمو ويبسط سلطانه أثناء هذا كله على نفس الفتاة حتى تملك نفسها فى يوم من الايام أن تنبىء أستاذها بما يملأ قلبها من حب وكلف به ، فلم يتقبل الاستاذ هذا قبولا حسناً بل أظهر لها شيئاً من الجفاء أهانها وآلامها ؛

فانصرفت مكلومة ولكنها أزمعت أن تملك قلب الاستاذ ، وإذ كان الاستاذ فيلسوفاً فليس من سبيل الى امتلاكه إلا بالفلسفة وإذن فقد أخذت فتاتنا تضع كتاباً فى الفلسفة موضوعه « الحب وأثره فى الحياة » ، ثم كانت الاجازة ودعاها خالها إلى أن تلحق به فى بيته ، وكان بيته هذا قصراً فخما فى غاية واسعة بعيدة الأرجاء ، كان قصراً يلائم ثروته الضخمة ، فدهشت الفتاة حين رأت هذا كله ، وأنبأها خالها بما كان قد أخفى عليها وأعلن اليها أنها ستنوب عنه منذ اليوم فى تدبير ثروته الزراعية ، وأنه سيفرغ لتدبير ثروته الصناعية ، وعرف خالها ما كان بينها وبين الاستاذ فدهش لأن هذا الاستاذ صديقه ولان هذا الاستاذ سيصل إلى القصر فى اليوم نفسه واعتزم أن ينظر فى هذا الامر . وإنهم لفى ذلك إذ أقبل جار ينازع خالها فى حدود أرضيهما ، وهذا الجار شاب قوى جميل المنظر حسن الخلق منطلق المحيا يعجب النساء ويترك فى نفوسهن آثاراً حسانا . فكلف الخال ابنة أخته أن تناقش هذا الجار فيما بينهما من خلاف وتركهما منفردين ، وكان بين الفتاة والفتى حوار عادى ولكنه يدل على أن هناك ميلا ممكنا قد يخلق بين هذين الفتيين صلة ما .

وكان الاستاذ قد وصل وتحدث إلى صديقه ، وعرف منه هذا

الصديق أنه يحب فتاة كانت تختلف إلى درسه ولكن أسبابا مالية وفلسفية منعته أن يتقبل هذا الحب حين أعلنته الفتاة إليه، فسأله صديقه عما يصنع لو كانت هذه الفتاة غنية ، فأنبأه بأنه يتردد فى الاقتران بها لانه يخشى على فلسفته الفقر ثم يخشى على فلسفته الغنى ، يخشى الفقر الذى يحول بينه وبين التفكير ، ويخشى الغنى الذى يشغله بتدبير الثروة عن مشاهدة الفلسفة . ثم يتركه صاحبه فى هذا التردد ويدخل الاستاذ على الفتاة والجار وهما يتحدثان وهو لا يعلم مكانهما ، فيدهشه أن يجد هنا تلميذته وحبيبته ، ثم لا يلبث أن يعرف ثروتها وأنها وارثة خالها ، ثم يكون بينهما حوار فى الحب والفلسفة والثروة والغنى وما يمكن أن يحدث الزواج فى الفلسفة من أثر حسن أو سيء . . .

***

فإذا كان الفصل الثاني كانت الخطبة قد تمت بين الاستاذ وتلميذته الغنية الفيلسوفة ، ولكن الجار قد كلف بالفتاة ويظهر أن الفتاة لم تنصرف عن الجار ، فأخذ هذا الجار واسمه « البارون هوبير دى بيوليه » « Lubert de Piolet » يتكلف العلل والمعاذير ليتردد على القصر ، وأخذت الفتاة تستقبله استقبالا حسنا وتسمع لما يقول فى شغف وإعجاب ، وكان هذا الفتى على جمال خلقه ،

وقوة جسمه رجل عمل يكره التفكير الخالص والنظر العقيم ويريد أن يكون كل شيء منتجا إنتاجا عمليا وألا يتكلم الإنسان ولا يتحرك إلا كانت لكلامه وحركاته آثار عملية ملموسة نافعة . كان يحب الفتاة وكان رجل عمل بالمعنى الصحيح ، وكان الاستاذ يحب الفتاة وكان رجل تفكير بالمعنى الصحيح ، وكانت الفتاة تحب الرجلين ، أو يخيل إليها أنها تحب الفيلسوف لفلسفته وذكائه. وتميل إلى رجل العمل لعمله وحسن خلقه ، ولكن الفيلسوف كان بفلسفته وتفكيره فى شغل عن الفتاة وجمالها وقلبها وعواطفها ، كان يحبها حبا فلسفيا ، كان يحب عقلها أو كان يحب نفسه فى هذا العقل ، لأنه كان يرى الفتاة متأثرة بفلسفته ، وكان يراها ذكية فكان يحب فيها ذكاءها وكان يحب فيها صورته الفلسفية ، كان إذن مشغولا بالفلسفة عن الحب ، ولم يكن رجل العمل مشغولا بعمله عن الحب وإنما كان يحب لأنه رجل عمل ، وكان الحب عنده عملا من الأعمال ، وكانت الفتاة مضطربة بين هذين الرجلين ، فلم يكن بد من أن يجتمعا بحضر منها وأن يتحاورا فى الحب ، يجتمعان ويتحاوران ويحل الحوار المشكلة أمام الفتاة .

يسأل رجل العمل لم تحب ؟ فيجيب ، لنلد. يسخر الفيلسوف.

من ذلك فيشتد بينه وبين رجل العمل حوار ينهزم فيه الفيلسوف لأنه يكبر فلسفته أن يناقش فيها من لا علم له بها . ويخلو «هوبير» بالفتاة فيتحاوران ويتحدث كل منهما بحياته إلى الآخر ، فيظهر بينهما شيء هو الحب ، ولكن الفتاة لا تريد أن تسميه هذا الاسم ولا تريد أن تفكر فيه ، لأنها مخطوبة ولأنها قد وعدت بالوفاء لأستاذها الفيلسوف . تنكر حبها لهذا الشاب ولكن هذا الحب يملؤها ويتسلط عليها . فإذا أخذ الأستاذ يتحدث إليها في الفلسفة بعد حين انصرفت عنه قائلة في سخرية : دعني فاني أريد أن أجني بعض الأزهار . يظل الاستاذ متصلا بفلسفته وحبه الفلسفي ، ويعمل في نفس الفتاة رجل العمل وصورته وبلاؤه في الصيد وحياته المنتجة المملوءة ، وصحته القوية المعجبة، فلا تكاد تنام الليل ، أما رجل العمل فلا يذوق طعم النوم

* * *

فاذا كان الفصل الثالث ظهر ظهوراً جليا سأم الفتاة وانصرافها عن الحب الفلسفي لانها تشعر بعواطفها وميولها وشهواتها ، وترى أن الفلسفة والذكاء الخالص لا يرضيان هذه العواطف ولا هذه الميول ولا هذه الشهوات ، وهي في الوقت نفسه شريفة وفية لا تريد أن تغدر ولا أن تنكث ، فتحاول أن

تستصبي عاشقها الفيلسوف وتذكره أن الحب يستطيع أن يعيش على الارض كما يستطيع أن يعيش فى السماء ، وبأن العقل وحده ليس مصدر الحياة ولا غايتها ، وبأن فى الجسم وجماله مدعاة للذة والصبا . تحاول ذلك فتتكلف ما يصبي وتلقى بنفسها عارية فى فسقية فى الحديقة أمام الأستاذ يراها وتتجاهل أنه يراها ، فلا تكاد تفعل ذلك ولا يكاد الاستاذ يرى منها ذلك حتى ينصرف وجهه إلى كتاب فى يده ويولى مدبراً . . . فاقدر أنت ما يحدث هذا الانصراف فى نفس الفتاة من ألم وأسف ويأس ، ولكنها تخرج من الماء فتشعر بأن عينا مختبئة تلحظها من كثب فيملكها الحياء وتعدو إلى القصر حيث تجد مربيتها ، فتتحدث إليها بما فعلت وما حاولت وما رأت ، وتتحدث إليها بأنها تخشى أن يكون رجل العمل هو الذى كان يلحظها من كثب . وهما كذلك إذ يقبل رجل العمل ، فلا تشك فى أنه كان يلحظها فتوسعه لوما وتأنيباً ، وتظهر الحوادث أن الرجل قد كان بريئا مما اتهم به ، وأن الذى كان يلحظها إنما هى امرأة تعمل فى أرض خالها ، ولكن الحب بينها وبين الشاب يقوى وينمو ويشتد سلطانه وإن حاولت الفتاة أن تخلص من هذا السلطان .

يحس خالها ذلك فيحاول أن يلفت الاستاذ الفيلسوف وأن

يستنزله من سماء الفلسفة إلى أرض الحب ، فينزل ولكن قليلا ، ينزل ولكن ريثما يحس أن الحب والفلسفة شيئان لا يتفقان فلا يلبث أن يصعد الى السماء ، ولا يلبث أن يضحى بعواطفه وأهواء نفسه وحبه فى سبيل الفلسفة ، فيخطب الفتاة لهذا الشاب وتقبل الفتاة ويقبل الشاب ويرضى الخال ويسافر الاستاذ . . .

هذه هى القصة لخصتها تلخيصا شديد الايجاز مخلا بكثير من معانيها مضيعا لكثير مما فيها من الآراء القيمة ، فلم أترجم لك منها شيئاً ولم أتل عليك منها حوارا . وأحسب أنك قد ألممت بها إلماما ، وأحسب أنك تشعر معى بأن هذه القصة تبعث الحيرة فى نفس من يقرؤها ومن يشهدها ، فماذا أراد الكاتب ؟ أأراد أن يقارن بين الفلسفة والعمل ، وأن يفضل العمل على الفلسفة ؟ فان كان أراد هذا فقد ظلم الفلسفة لأنه مثلها تمثيلا سيئاً ووضع الاستاذ الفيلسوف موضعا مضحكا يشبه موضع الفلاسفة الذين يسخر منهم « موليير » وغير « موليير » من الممثلين المضحكين . وقد كان الإنصاف يلزمه أن يمثل الفلسفة تمثيلا صحيحا كما مثل العمل تمثيلا صحيحا حتى تكون نتيجة الخصومة بينهما ممتنعة للقراء أو للنظارة ، أم أراد أن يدرس نفس هذه الفتاة وأن يبين أن الحب الفلسفى الذى لا يطمع إلا فى الذكاء

ولا يرغب إلا فى اتحاد الميول العقلية الخالصة ضعيف الأثر فى نفوس النساء لأنه يهمل أشياء لم تهملها الطبيعة : يهمل القلب والعاطفة والحس ؟ فإن كان أراد هذا فليس هـذا بجديد ، وإنما هو شىء مألوف قاله الناس وأكثروا من الخوض فيه ، أم أراد الأمرين جميعا ؟ أم لم يرد شيئاً منهما وإنما حاول أن يعرض على قرائه ونظارته طائفـة من الخواطر والآراء ليست متسقة ولا متصلة فتكلف لها صورة القصة التمثيلية ليوجد بينها الاتساق والاتصال ؟ ذلك ما أظن ، وأرى أن الكاتب إن كان قد قصد إلى هـذا فقد وفق توفيقاً لا بأس به . ولـكنه لم يحسن إلى التمثيل ، فإن التمثيل لا يقصد به إلى عرض الخواطر والآراء وإنما يقصد به قبل كل شىء إلى تصوير الحياة الواقعـة ، أو إلى تصوير المثل الأعلى للحياة تصويراً يملك على الجمهور قلبه وهواه ، ويوجهه إلى الطريق التى يريد الكاتب أن يتجه إليها ، وليس من شأن هذه القصة أن تترك فى نفس الجمهور مثل هـذا الأثر ، ولـكن من شأنها أن تعجب القارىء وتلذه وترفه عليه ، وقد كان خليقا بها أن تبسط فى كتاب لا فى قصة تمثيلية

« بينيلوب » Pénélope

لم يطــل ليلى ولــكن لم أنم　　　ونفى عني الـكرى طيف ألم

ولـكنه لم يكن طيف هنـد ، ولا عبدة ، لم يكن طيف عربية ، ولا مصرية ، ولا أوربيـة ، وإنما كان طيف امرأة بقى اسمها فى ذاكرة الإنسانية وذهبت بشخصيتها الغير والأحداث . ولعلها لم توجد قط ، ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيراً ، ومع ذلك فقـد قضيت الليل أفـكر فيها بل أسمع إلى حديثها ومناجاتها ، هادئة مرة ، ثائرة مرة أخرى ؛ يملؤها الحنان حينا ، وتملـكها الوحشـية حينا آخر . قضيت الليل أفـكر فيها وأسمع لأحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث إلى خدمها ، وحين كانت تتحدث إلى عشاقها ، وحين كانت تتحـدث الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجى الآلهة متلطفة آنا ، ومحنقة آنا آخر ، ثم حين كانت تناجى خيال زوجها الغائب ، وتتحدث إلى زوجها وقد آب بعـد غياب طويل . قضيت الليل أفـكر فيها وأستمع لحديثها ، وأعجب بقـدرة الفن ، لا أقول على إحياء من مات وتجديد ما اندثر ، بل على خلق ما لم يوجد والتخييل إليك أنه قد

وجد وأثر فى الحياة آثارا أبقى من أن ينالها الفناء، لم يكن هـذا الطيف طيف عربية، ولا مصرية، ولا اوربية، وانما كان طيف يونانية، كان طيف « بنيلوب » زوج « اوليس » (Ulysse) بطل « الاودسا » (Odissée).

سمعتها أمس فى دار من دور الموسيقى، (فى الاوبرا كوميك) (Opéra-Comique) تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت وجزعها لقرب من كرهت. ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها طول الليل وجزءاً غير قليل من النهار.

لست أدرى أقرأت « الاودسا » أم لم تقرأ. وأنا أسمح لنفسى بهذا الشك لأني أعلم علم يقين وتجربة أن الادب اليوناني سيء الحظ فى مصر، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة إلى حيث لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة؛ نجهل الادب اليونانى، لا أقول جهلا تاما بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يليق بقوم يحبون الحياة ويطمعون فيها. نجهل هـذا الادب جهلا فاحشا بحيث نستطيع أن نحصى المصريين الذين يعلمون ما « الاودسا » وما « الالياذة » ومن « اوليس » ومن « بنيلوب »، ومع ذلك فقد كانت (الاودسا) و (الالياذة) وما زالتا وستظلان دائما ينبوع

الحياة للأدب والفن : للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقى . بليت القرون ولم تبل (الالياذة) (والاودسا) ، فنيت الامة اليونانية وفنيت الامة الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوربا فى العصر المتوسط وفى العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف وتظل آيات (الالياذة) و (الاودسا) جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث ، ولا نكاد نحن نفترض وجود (الالياذة) و (الاودسا) فاذا افترضناوجودهما فلا نكاد نعلم بشيء مما فيهما .

إلى هذا الحد وصانا من الجهل بمصدر الحياة للادب والفن؛ ويظهر أنا إذا لم نستطع أن نمعن النظر فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه، أقول إذا لم نستطع أن نمعن فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فيظهر أنا لانريد ولا نحاول أن نخلص منه قليلا أو كثيراً . يظهر أنا سنظل على ما نحن فيه من جهل الادب اليوناني والفن اليوناني ، لانا نرى كل شيء يتغير فى مصر ، ونرى الرقى يتناول كل شيء إلا التعليم ، فهو بحمد الله باق حيث كان لان المشرفين عايه لايفكرون فى تغييره ، ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا فى تغييره . سيظل تلاميذنا يخلطون بين أثينا وصقلية كما يخلطون

بين الاسكندر وهانيبال

ولكنى بعدت عن هـذا الطيف الذى أرقت له آخر الليل بعد أن طربت له أول الليل . . . قلت إن (الاودسا) و(الالياذة) كانتا وستظلان ينبوعا للحياة الادبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ؛ وألهمتا الفنيين من اليونان بل ألهمتا فلاسفة اليونان ، وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان وكذلك صدر عنهما وما زال يصدر عنهما شعراء الافرنج منذ القرن السابع عشر إلى ما شاء الله :

ولقد كانت القصة الموسيقية التى شهدتها أمس أثراً من آثار (الاودسا) اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلى فى التمثيل . فكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذى كان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يغلظ حتى يكاد يصم السامعين . وكنت تجد لذة لاتعدلها لذة حين تسمع هـذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متغنية بهـذا الشعر الجميل الرقيق الذى يمثل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص . وكنت تجد لذة لاتعد لها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر إلى مسرح التمثيل

فترى هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها (الاودسا) فى جمالها القديم الرائع الذى يزيده بهجة وسحراً ما اتخذ المثلون من أزياء وما اصطنعوا من آنية ومتاع. كنت تجد لذة حين كنت تسمع ما تسمع وترى ما ترى، ولم يكن ينقص عليك هذه اللذة إلا أنها كغيرها من جميع لذات الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين. ذلك فيما أعتقد أخص ما تمتاز به اللذة الحقيقية التى تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله. تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر حين تشعر بها بشىء من الحزن يصاحبها لأنها ستنقضى بعد حين طويل أو قصير. وأنت تحب ألا تنقضى وأنت تود لو كانت خالدة أو لو انقضت بانقضائها الحياة.

اشترك فى هذه القصة الموسيقى الفرنسى (جبرئيل فوريه) Gabriel Fauré والشاعر الفرنسى (رينيه فوشوا) Renée Fauchois ومثلت منذ عشر سنين فأعجب بها الجمهور وابتهج لها الناقدون ولكنهم لم يجرءوا على أن يحكموا لها أو عليها. ذلك لان فيها شيئاً من الغرابة كثيرا، فهى لا تمثل الحياة فى عصر نفهمه فهما يسيرا سهلا، وانما تمثل الحياة فى عصر بعيد منا كل البعد، بل لعل هذا العصر لم يعرفه التاريخ. وإذن فليس من اليسير أن

نحسها نحن كما نحس الحياة التى نحياها بحيث تتأثر بها نفوسنا وتهتاج لها عواطفنا فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التى تبعثها فينا الحياة الواقعة

تردد الناس فى الحكم لهذه القصة أو عليها، ولكن كانت الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف وسهلت على الناس فهم هذا الشعر القصصى القديم الذى مثل ما أصاب الانسان من محن فأحسن تمثيله، وصور ما اختلف على حياة الافراد والجماعات من أحداث فأجاد التصوير. فلما استؤنف تمثيل هذه القصة لم يتردد أحد ولم يشك إنسان وانما ظهر الاعجاب صريحا قويا لا يعدله إعجاب فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا.

عزيز على أن أجهل الموسيقى وأن يضطرني هذا الجهل إلى ألا أتحدث إليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية. ولكنى اذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها فانى أحسها وأشعر بها وأستطيع أن أعلم أني سمعت شيئاً طربت له أو سمعت شيئا نفرت منه. وأشهد أني لم أنفر أمس بل أنى لم أطرب أمس وإنما سحرت سحرا ليس فوقه سحر... أشهد

أني لم أ كن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أني في جزيرة « ايتاك » وأني بمحضر من أولئك الابطال القدماء ؛ بل أشهد أني حين كنت أسمع هذه الموسيقى لم أكن في حاجة شديدة إلى أن يصف لي واصف ما يمثله المنظر من هذه الجزيرة المشرفة على البحر التي يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف والتي تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط الى البحر متدرجة قليلا قليلا . نعم لم أ كن في حاجة شديدة إلى أن يوصف لي المنظر لان الموسيقى كانت تغنيني عن هذا الوصف . فكنت أحس في الموسيقى القرب من البحر ، وكنت أسمع في الموسيقى أمواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حينا كأنها حديث العاشقين ؛ غليظة حينا آخر كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد في الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت أسمع هذه الموسيقى فلا أشك في أن الجو كان صافيا رائقا أو أنه كان كدرا يهيء للعاصفة ، كنت لا أشك في شيء من هذا ، وكنت لا أشك في شيء آخر هو أجل من هذا خطراً وأعظم شأنا ، كنت لا أشك في أن هذه القطعة الموسيقية تمثل ما يحدث في نفسي الآن من اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع ومشادة ، وكنت لا أشك في أن هذه القطعة الاخرى تمثل الضعف الذي ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذي

يسلبك كل قوة على المقاومة ويجعلك غير قادر إلا على أن تفتح جفنيك لتسقط منهما قطرات الدمع متتابعة منهمرة ! نعم وكنت لا أشك فى أن هـذه القطعة الاخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذى تنقبض له أعصابك فاذا جبينك مقطب وإذا الدم يغلى فى رأسك وإذا أنت قد أطبقت يديك واذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذى يدفعك إلى أن تثب وتهجم على فريستك . لم أكن أشك فى شىء من هذا لاني كنت أحسه وأنتقل فيه من طور إلى طور . بل هناك ما هو خير من هذا ، هناك هذه القطع الموسيقية التى تبعث فى نفسك شيئا من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ولا يستطيع إنسان أن يصفه لان وصفه لم يتح للجمل والالفاظ وانما أتيح للانغام والالحان وحدها

ولكنى عاجز كما قلت عن أن أصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية، أفتريد أن أصف جمالها من الوجهة الادبية ؟ لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه. ولكن أليس خيراً من هذا الوصف الذى لا يمكن إلا أن يكون موجزاً مختصراً أن ترجع إلى هـذا الجمال فى أصله وأن تستقيه من ينبوعه فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الاودسا » ؟ تجد فى هذا النشيد قصر الملك « اوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لانه ذهب إلى

« ترواده » وانتصر فيها ، فلما أراد العودة إلى بلده عبث به وباسطوله (بوزيدون) إله البحر فأضله الطريق وأخضعه لطائفة من المحن. وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث (بوزيدون) وغيره من الآلهة كانت الملكة (بينيلوب) تنتظر زوجها في لوعة وحسرة وفي حب ووفاء ، وكانت طائفة من زعماء اليونان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأكل شاء الملك وثيرته كما تقول القصة وتشرب خمره وتعبث برقيقه وتلح على الملكة في أن تختار من بينها رجلا يكون لها زوجا فيخلف (اوليس) على ملك (ايتاك). كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم فلما أعيتها المقاومة أخذت تراوغ فأعانت إلى هؤلاء الزعماء أنها ستختار من بينهم زوجا إذا فرغت من نسج كفن أخذت نفسها بنسجه لابي زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك فأخذت تنسج الكفن يومها حتي اذا كان الليل نقضت ما أبرمت ثم تستأنف النسج إذا أصبحت والنقض إذا أمست ، والزعماء ينتظرون ويعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه

***

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهر خادمات القصر يغزلن ويتحدثن فيما بينهن وحديثهن لذيذ ، فهن يغنين ما هن فيه

من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء وترغب كل واحدة منهن فى واحـد منهم . وهن يرثين للملكة وينكرن عليها غلوها فى الوفاء . وإنهن لفى ذلك إذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا إلى الملكة وتأبى الخادمات إنباء الملكة بمكانهم لأنهن لا يستطعن أن يدخلن عليها إلا إذا دعين . وبينما الزعماء فى حوار مع الخادمات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ويكون بينها وبينهم حوار ومسابة . ثم تقبل الملكة فيشتد الخلاف بينها وبين الزعماء ، تهينهم وتنعى عليهم ، وهم يتملقونها ويتلطفون بها . تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها فى أن تسرع فتختار من بينهم زوجا . ثم يقدم شيخ رث فان يطلب الصدقة والمأوى ، فينبذه الزعماء وتؤويه الملكة . وهذا الشيخ هو « اوليس » قد وصل الى جزيرته وأمرته الالٰهة « اتينا » أن يتنكر ويحتال فى طرد الغاصبين والانتقام منهم . لا تعرفه الملكة ولكن المرضع تعرفه وتعاهده على أن تخفى أمره . ينصرف الزعماء وينصرف الشيخ إلى طعامه وتبقى الملكة وحدها فتنقض ما نسجت . ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها فيغيظهم ذلك ويعلنون إلى الملكة أن الغد لن ينقضى حتى تكون قد اختارت لها زوجا ، ثم ينصرفون . تخرج الملكة ومرضع الملك لتذهبا إلى شاطىء البحر كما اعتادتا منذ سنين

تترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ، ويتبعهما الشيخ.

* * *

فاذا كان الفصل الثاني رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ويتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيداً ويتغنون جمال الطبيعة وسحرها . ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها وبين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضمر الزوجان من حب ووفاء ومن لهفة ولوعة . ولكن الملك يخفى نفسه فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق ، واتخذ هذا الإخبار وسيلة إلى التغزل بزوجه من طرف خفى ولكن فى جمال ورقة وحسن مدخل . ثم تجزع الملكة إشفاقا من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن إلى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » . ثم تنصرف الملكة ويتعرف الملك بعد ذلك الى رعاته ويأمرهم أن يكونوا فى القصر غدا وأن يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام .

* * *

فاذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام . ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعاته أحاديث قصيرة . ثم يقبل الزعماء وقد تهيأوا للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو

لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه ويظهر الشيخ أنه سكران . وتقبل الملكة فتعلن إليهم أن من شد قوس « أوليس » ورمى عنها فهو زوجها . فيعجزون جميعاً ويتقدم الشيخ الفاني إلى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن فى صدر أحد الزعماء . هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة على هذا . ثم تنتهى القصة بظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى .

فانت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب وأنها من السذاجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام أنشئت « الالياذة » و « الاودسا » . ولكني أضمن لك لذة عظيمة إذا قرأت هذه القصة ، ولذة لا حد لها إذا قرأتها فى « الأودسا » . فأما إذا شهدت القصة الموسيقية فى « الاوبرا كوميك » فلست أدرى ماذا أضمن لك ، وانما أحدثك صادقا بأني قضيت ليلة سعيدة كنت أحسبني أثناءها فى عالم آخر ، ولم أتنبه الى أنى فى الارض إلا حين سمعت ابنتى تتغنى وتصيح ، ورأيت ابني يعبث بما حوله وسمعت أمه تزجره وتنهاه

الاستاذ «كلنيوف»

(Le Professeur Klenow)

قصة تمثيلية بقلم السيدة (كارن برامسون)

par Mme Karen Bramson

قصة مؤلمة مخيفة وهى مع ذلك ممتعة لذيذة، كتبتها سيدة دانماركية وترجمتها إلى اللغة الفرنسية، فمثلت بباريس ونالت فيها فوزاً عظيما وأجمع النقاد الفرنسيون أو كادوا يجمعون على الاعجاب بها والثناء عليها .

قصة مؤلمة مخيفة لانها تمثل لك تمثيلا واضحاً جليا بؤس الانسان وضعفه، وتمثل لك هذا البؤس والضعف من حيث هما متصلان بالنفس الانسانية، من حيث هما صادران عن هذه النفس، لا يأتيانها من الخارج وانما تتكشف عنهما النفس قليلا قليلا كلما عبثت بها الأهواء. فكأن النفس الانسانية طائفة من الأستار قد سدل بعضها من دون بعض، فلا تكاد تعبث بها الأهواء والعواطف فترفع منها ستراحتى تظهر من وراء هذا الستر خصلة مؤلمة أو خلق مرذول، ثم يشتد عبث الهوى والعاطفة فيرفع ستر آخر، وتظهر خصلة أخرى مذمومة وخلق

آخر بغيض ، وما تزال الأهواء والعواطف ترفع هذه الأستار ستراً ستراً وتظهر هذه الأخلاق خلقاً خلقاً حتى تظهر لك النفس الإنسانية فى أبشع مظهر وأقبح صورة ، تظهر لك هذه النفس مخيفة مؤلمة ، تظهر لك منها نفس حيوان وحشى لم تألفه ولم تسمع به ولم تكن تنتظر أن تراه لا نفس إنسان قد ألفته وأنست إليه . وأنت ترى هذه الأستار يرفع بعضها إثر بعض فيأخذك فى أول الأمر شىء من الضيق ، ثم من الألم ، ثم من خيبة الأمل ، ثم يملكك الهلع والجزع ، حتى إذا وصلت الى آخر القصة كنت متعباً محزوناً يائساً مستيقناً أن الإنسان دون ما كنت تظن وأن الأمد بينه وبين الكمال الخلقى والعقلى ، بل أن الأمد بينه وبين القوة الصحيحة المنتجة التى تعصم صاحبها من الاهواء لا يزال بعيداً . يجب أن نعترف بأن الكاتبة حين وضعت قصتها لم ترد أن تظهر ناحية من هذه النواحى التى تشرف الانسان وترفع قدره ، وانما أرادت أن تظهر الانسان كما هو ، بل نستطيع أن نقول إنها أرادت أن تظهر الانسان كما تصوره « نيتش » « Nitgche » وشوبنهور « Schaupenhauer » وأبو العلاء وغيرهم من المتشائمين .

أصادقة هى ؟ أمنصفة هى ؟ لا أدرى . ولكني لا أشك فى

أنها قد بذلت جهداً عظيما جداً لتكون صادقة منصفة ، وأنفقت مقداراً غير قليل من القوة العلمية لتحسن البحث وتتقن التحليل ، ووفقت من هذا كله إلي شيء لا بأس به . ولكني أرجو ألا تكون قد وفقت إلى الحق وألا تكون هذه الصورة الانسانية التي عرضتها لنا في هذه القصة صادقة مطابقة للأصل من كل وجه

الحق أنها عرضت صورتين : إحداهما تمثل القوة في أبشع مظاهرها وأقبح صورها : والأخرى تمثل الضعف الذي لا حد له . وقد تستطيع أن تسمى الصورة الاولى صورة الأثرة ، وتستطيع أن تسمى الصورة الثانية صورة الإيثار . بل تستطيع أن تسمى الصورة الاولى صورة الشر والصورة الثانية صورة الخير ، وإن كنت ستقتنع في آخر هذا المقال بأن هاتين الصورتين لا تمثلان إلا شراً ، وإن كنت أرجو أن ترى رأيي في آخر هذا المقال وهو أن الكاتبة قد أسرفت في تمثيل بطلي هذه القصة ولم توفق إلى الخير إلا في تصوير الأشخاص الآخرين

وسواء أوفقت الكاتبة الى الحقيقة الواقعة أم أخطأتها فليس من شك في أنها قد وفقت إلى الاتقان الفني وفي أن قصتها أثر إن لم يكن خليقا بالخلود فهو خليق بما نال من الفوز العظيم . نكاد نشعر بأن هذه القصة بناء محكم متقن قد روعيت

فيه كل أصول العمارة ، فهو متسق مؤتلف ليس فيه ما يزيد على الحاجة وليس يخلو من الزخرف والزينة ولكنه فى الوقت نفسه لا يخلو من الجفاء والقسوة

* * *

فاذا كان الفصل الاول رأيت الاستاذ « كلينوف » قد دخل غرفة عمله فاذا رجل قبيح المنظر سيء تكوين الجسم ضعيف مريض ، فى الخامسة والاربعين من عمره ولكنه يظهر أشد تقدما فى السن ، قد أخذ بصره يضعف فهو لا يكاد يرى ما أمامه ، ولكن فى عينيه بريق الذكاء والسخرية . يجلس إلى مكتبه وينظر فى طائفة من الرسائل والصحف فتلفته إحدى الصحف إلى صورة فيها يسخط فيلقى الصحيفة ، ثم يعيد النظر فيها ويضعها على مكتبه هازاً كتفيه فى شيء من السخرية . ثم ينادى باسم « ايليز » . فتدخل عليه خادمة وهى غير « إيليز » وتنبئه بأن « إيليز » قد ذهبت الى الدرس فيغضب لأنه كلف « إيليز » أن تكون فى البيت ما دام هو فيه وأن تنظم ساعات عملها وراحتها بحيث تلائم ساعات عمله وراحته . ثم يتحدث الى خادمه هذه وهى امرأة فى الاربعين قد طال عهدها بخدمته فارتفعت الكلفة بينها وبينه ، يتحدث إليها فى أمر « ايليز » فيذمها ويمقتها وينذر

بطردها . وتتبين من لهجته أن فى نفسه شيئاً غير قليل من الضجر مصدره الغيرة وشىء يشبه الحب . ويتحدث إلى خادمه عن نفسه وعن مرضه وعن ضعف بصره وعن قبح شكله فتتبين من حديثه أنه مقتنع بأنه قبيح الصورة بشع المنظر ، وأن الناس يعلمون ذلك فيتخذونه وسيلة إلى إيذائه والاستهزاء به ، ولكن الذى يؤلمه حقاً هو أن هذا القبح وهذه البشاعة قد حرماه لذات الحياة وحظرا عليه بنوع خاص أحب هذه اللذات إليه وهى لذة الحب . فهو كاره للناس ناع عليهم مزدر للمرأة يصفها بأشنع النقائص وأبشعها ، يكتب فى هذا كله الكتب ويذيع الأسفار حتى عرف الناس أنه أشد المتشائمين فى هذا العصر وأسوأ الناس رأيا فى الناس . وقدخيلت كتبه إلى معاصريه أن الفلسفة وحدها مصدر هذا كله ، وأنه متشائم منكر للانسانية لانه قد درس هذه الانسانية وعرف نقائصها ، ولكن الحق أن مصدر هذا التشاءم وسوء الظن إنما هو قبحه وشعوره بهذا القبح وما جر عليه من حرمان ، فهو حسود وهو فى الوقت نفسه ملحد ، حسود لأن فى الناس من ليس له حظه من القبح ومن لم يقدر عليه مثل هذا الحرمان ، ملحد لان الله قد خلقه قبيحاً وقدر عليه هذا الحرمان . هو إذن يحقد على الناس ويضمر لهم البغضاء ،

وهو لا ينكر وجود الله وانما يثور على الله فيزدريه ويسخر منه وقد ينذره ويهدده فيطالب اليه أن يمنحه عينين مبصرتين حقاً ، وينذره إن أبى عليه ذلك بأنه سيفقأ عيني جاره . هو اشتراكى ولكن اشتراكيته ليست ثورة على النظام الاجتماعى وانما هى ثورة على نظام الكون ، لا يعنيه أن يحسن تقسيم الثروة بين الناس وانما يعنيه أن يستوى الناس فى المواهب ، فلا يكون فيهم الذكى والغبى ، ولا يكون فيهم القبيح والجميل ، ولا يكون فيهم العليل والصحيح ، وانما يجب أن يكونوا جميعاً أذكياء أصحاء حسان الخلق . هو اذن ساخط على الله وعلى الناس . فمن « ايايز » هذه التى يناديها ويسخط دائماً ؟ هى فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها قد قدر لها أن تكون أجمل النساء وأفتنهن ، وأن تكون من الجمال والفتنة بحيث تغير رأى الاستاذ الفيلسوف فى النساء أو بحيث تظهر مصدر هذا الرأى ، وبحيث تثير فى هذا الاستاذ من الحقد والضغينة ما كان يضمره للناس ، هى فتاة حسناء وديعة ضعيفة فيها طهارة ذائب ولكن فيها حرصاً على الحياة وكلفاً بأن تستمتع بالحياة . أبوها خمار ولكنه سيء الخلق لا يكتفى بتجارة الخمر فهو يتخذ ابنته تجارة ايضاً . وقد سئمت هذه الفتاة حياتها المرذولة

فى بيت هذا الخمار ففرت وأرادت أن تلقى نفسها فى الماء ؛ ولكن حب الحياة ألصقها بالارض فهى كذلك فى الساعة الثانية صباحا إذ مر بها الاستاذ الفيلسوف فأنكرته وكرهت قبحه ؛ ولكنها عرضت نفسها عليه تريد أن تحيا . تلقاها الاستاذ فعطف عليها وآواها إلى بيته واتخذها قارئة كاتبة له، ثم لم يلبث أن كلف بها ولكنه أخفى هذه العاطفة وكظمها فى نفسه . فاذا دخلت عليه هذه الفتاة سألها فى غيظ وحدة أين كانت ، فتعتذر وتنبئه بأنها قد رأت أباها واستيقنت أنه يتبعها فأخذت فى طرق ملتوية تريد أن تستخفى عليه ولهذا وصلت متأخرة . يقبل الاستاذ معذرتها ثم يرفق بها ويترضاها بهدية كان قد أعدها لها : ثم يتحدث إليها فى جمالها وصورتها الفاتنة وقد وقفها أمام المرآة وأخذ يظهر لها أنها آية من آيات الجمال وضرب من السحر الفني . ثم يستأذن عليه رجل فلا تشك الفتاة فى أنه أبوها فتجزع لذلك ويملأ الاستاذ قلبها ثقة واطمئنانا ويأمرها أن تظل فى غرفتها حتى يدعوها فتجزع ويدخل المستأذن . فاذا رجل رث ولكنه ممتاز فيه لباقة وطلاقة لسان . يتحدث إلى الاستاذ فلا يخفى الاستاذ عليه من أمر الفتاة شيئاً . ينبئه بأنها عنده وبأنها تعمل فى بيته وبانه عاجز بحكم القانون عن أن يردها إلى تلك الحياة المنكرة ، فلا يخفى

الرجل على الاستاذ شيئاً من أمره بل ينبئه بانه كان يسخر هذه الفتاة لضروب الإثم والفحشاء وهو لايكره ذلك ولا ينكره لأن هذه الفتاة ابنته بحكم القانون لا بحكم الطبيعة ، ولانها مكلفة أن تحتمل تبعة الخيانة التى تورطت فيها أمها . وإذ كان النساء يطالبن بمساواة الرجال فى الحقوق فمن الحق أن يحتملن تبعة أعمالهن وأن يتعرضن لما يتعرض له الرجال من ضروب الإثم والشر والانحطاط ، وإذ كانت المسيحية تقرر أن الانسان يحتمل تبعة آدم حين أخطأ فيجب ان يحتمل النساء تبعه أمهاتهن اذا اخطأن كما يحتمل الرجال تبعة آبائهم اذا اخطأوا . وقد اخطأ أبو هذا الرجل فبدد ثروته واضطر ابنه الى هذه الحياة المنكرة ؛ وأخطأت أم هذه الفتاة فخانت زوجها فابنتها مكلفة أن تحتمل هذا الإثم ، والرجل فى حاجة إلى المال وقد كسدت بضاعته منذ تركته الفتاة ، فيجب أن تعود إليه لتنفق هذه البضاعة ، فيعطيه الاستاذ شيئاً من المال ويعده بان يستمر فى إعطائه المال من وقت إلى وقت ، ويرضى الرجل هذا وينصرف . ولكن فتى آخر يدخل على الاستاذ وهو صديق له ، فتى ينحت التماثيل جميل المنظر حسن الوجه خلاب العينين جعد الشعر فيتحدث إلى الاستاذ بأنه يحب وبأنه كان فى شك ممن يحب . يهنئه الاستاذ ساخراً

ويعزيه ساخراً لأنه يزدري المرأة ويزدري الزواج ويزدري الحب ومن يتعلق بالحب. ثم لا يلبث أن يعرف من صاحبه أنه يحب « ايايز » ويريد أن يقترن « بايليز » وأنه قد تحدث إليها وقصت عليه أمرها فنفر منها حينا ثم اطمأنت نفسه اليها ، فهو هنا الآن ليطالب إليها الزواج . هنا يظهر من نفس الاستاذ ما كان مكتوما . هنا يظهر الفيلسوف رجلا كغيره من الرجال . هنا تشعر في عنف وحدة بأن هذا الفيلسوف الذى سخر من الناس هذه السخرية المرة انما سخر منهم لأنه يحقد عليهم ، وهو انما عرف اخلاقهم المنكرة لانه عرف أخلاق نفسه المنكرة . هنا تشعر في عنف وحدة بأن هذا الفيلسوف إنما كان ينكر الحب لان الحب كان محظوراً عليه وانما كان يزدرى المرأة لان قرب المرأة لم يكن مباحا له . أما الآن وقد عرف هذه الفتاة وآواها ونالها بالمعروف فقد وجد الحب إلى نفسه سبيلا فهو كاف بالفتاة، وقد يحول قبح صورته بينه وبين هذه الفتاة ، ولكنه لا يريد أن يفارقها ولا يريد أن يكون لأحد غيره سبيل عليها . فهو اذن يزجر صاحبه وينكر ما بينهما من صداقة ويعلن أنه عدوه منذ الآن وأنه لن يرضى هذا الزواج ولن يأذن فيه وأن صاحبه لن يصل إلى هذه

الفتاة إلا اذا مات هو . تعلن العداوة بين الرجلين ويخرج الصديق مغيظاً مكلوما ، أما الاستاذ فيدعو الفتاة ويكذب عليها ، ينبئها أنه اضطر إلى أن يشتري أباها بالمال حتى لا يردها إلى ما كانت فيه . وينبئها بان أباها قادر بحكم القانون على أن يردها إلى منزله . وأنه كان قد خدعها حين حدثها بغير هذا ، وانما خدعها ليتيح لها الطمأنينة والهدوء . تجزع الفتاة وتعلن أنها لن تذهب الى بيت أبيها ، فيطلب إليها الاستاذ أن تختار بين اثنتين : إما ان تقترن به وأما أن تعود الى بيت أبيها ، ترفض الفتاة هذا الزواج وتتلطف في هذا الرفض فترى أنها ليست أهلا لمثل هذه النعمة ، ولكن الاستاذ يعلم حق العلم أنها انما ترفض لانها تحب صديقه «فيديل» (Vedel) ولانها تنفر من قبحه وسوء خلقه . فما يزال بها حتى تعلن اليه في تورط واستحياء انها لا تحبه

وما خطر هذا ؟ تستطيع ان تقترن به دون ان تحبه ، فهي انما تتخذ الزواج وسيلة لحماية نفسها من أبيها . وهذا الزواج لن يطول أمره فالاستاذ مريض ولن يعيش اكثر من سنة ، فهي اذن لن تكون زوجه وانما ستكون ارملته . وهذا الزواج لا شر فيه لانه زواج متكلف ، زواج على الورق لن يستتبع نتائجه

الطبيعية فتقتنع الفتاة أو تكره على هذا الاقتناع ، ويأمرها الاستاذ أن تستعد للسفر فتردد ولكنه ينتصر على هذا التردد كما انتصر على غيره . فما هى إلا ساعة حتى يكون الزواج أمراً واقعاً وحتى يكون الزوجان فى الطريق إلى سياحة طويلة .

فقد رأيت ان هذا الفصل أظهر لك أشخاص القصة جميعاً . أظهر لك الفيلسوف وحلل لك فلسفته ، وأظهر لك علام تقوم هذه الفلسفة ؟ أظهر لك الفتاة ونشأتها وسيرتها وضعفها وأنها طيبة القلب سهلة الانخداع ، وأظهر لك أبا الفتاة وما هو متورط فيه من سوء الخلق وقبح السيرة ، وأظهر لك خادم الاستاذ وعطفه عليه ، ثم أظهر لك صديق الاستاذ وعاشق هذه الفتاة ، ولم ينته هذا الفصل حتى وقفت بك الكاتبة عند عقدة القصة التى يجب ان تحل فى الفصلين الآخرين ، وهى هذا الجهاد العنيف المنكر بين عاشقين قوة أحدهما جمال الخلق وحسن الصورة وأنه كغيره من الناس ، وقوة الآخر سوء الخلق وبشاعة الصورة وأنه شاذ فى كل شىء . وموضوع هذا الجهاد فتاة بارعة الجمال طيبة القلب تحب الحياة فتكلف بعاشقها الجميل وتحب الخير فتعطف على الفيلسوف الدميم . وقد خدعها الفيلسوف فورطها فى زواج لا تحبه ولا

ترضاه . ومهما أقل ومهما أفصل فان أحسن تصوير هذه العاطفة العنيفة التى تهز الفتاة فتملؤها إشفاقا عليه وبغضاً له .

* * *

فاذا كان الفصل الثاني رأيت الزوجين وقد مضى على زواجهما شهران ، وقد انتهى السفر بهما إلى أحد الفنادق ، وقد برح الألم بهما جميعاً فذاقا من العذاب ضروبا فوق طور الانسان . أما الفيلسوف فمعذب لأنه يملك أطيب الثمار وألذها وأحبها إلى نفسه دون ان يستطيع أن يذوقه أو يمد إليه يده ، فهو يحب هذا الثمر ويكلف به ولكنه يشنؤه ويحقد عليه ، يحبه لأنه موضوع هواه ، ويشنؤه لأنه محظور عليه ، وهو بين هذا الحب الشديد وهذا البغض الشديد يتردد بين عواطف متناقضة ، بين اللين والغلظة ، بين الإنصاف والعسف ، ولكنه يمتاز بالإسراف فى الغيرة وسوء الظن ، يكره الناس كرهاً شديداً فيكره أن تكون بينهم وبين زوجه صلة ، بل يكره الطبيعة كرهاً شديداً فيكره ان تعجب زوجه بشىء من جمال هذه الطبيعة . يريد ان تكون زوجه وقفاً عليه وحده ، ويعلم انه لن يصل منها إلى شىء .

هذا ألم الفيلسوف ، أما زوجه فألمها ظاهر بيّن المصدر ، قد حرمت لقاء من تحب ، وكلفت الحياة مع من لا تحب ؛ ترى الناس

من حولها يلهون ويستمتعون بلذات الحياة ، وتحس من قوة شبابها وتوقد عواطفها واهتياج حسها مايرغبها فى هذه اللذات ، ولكنها لاتستطيع أن تنال منها شيئاً ، وهى بعد هذا كله تحتمل من سخط الفيلسوف ورضاه ، ومن لينه وقسوته صنوفا من الألم وضروبا من الشدة ، قد ملت الحياة لانها كلفة بالحياة ، عاجزة عن أن تحيا . تتحدث إلى زوجها فتنبئه بأنها كتبت إلى «فيديل» وتناولت رده على كتابها ، فيغضب الاستاذ ، ولا تفهم هى شيئاً من هذا الغضب لأنه أخفى عليها الامر كله ، ثم يأمرها أن تستعد للسفر ويخرج هو للتروض قليلا . ولكن « فيديل » قد عرف مكانها فأسرع إليها ، فاذا أذنت له فى الدخول كان بينهما حوار من أحسن ماتقرأ وتسمع . ينبئها بكل شىء ، ويعلن إليها حبه العنيف ، ويطلب إليها أن تتبعه ليفرا ، وأحبب اليها بأن تتبعه وأن يفرا ! ولكنها تعطف على الفيلسوف ، ولا تريد أن تتركه دون رضاه . وهى تخشى أن يكون الفيلسوف مظلوماً فتريد أن تنتظره ، وتريد أن تسأله ، وتريد أن تطالب إليه حريتها ، ويخشى صاحبها قوة الفيلسوف فيلح عليها فى الهرب . وهما كذلك إذ يقبل الفيلسوف فيعترف لخصمه بالمهارة ، ولا ينكر عليه من سيرته شيئاً ، ويعترف لزوجه بان صاحبها قد صدقها النبأ

وبأنه قد خدعها واختلس من سعادتها شهرين ، ويعلن إليها أنها حرة ، ولكن على ان تبقى معه ساعة واحدة لا يحضرهما فيها العاشق ، فتقبل «ايليز» على كره من صاحبها ؛ فاذا خلا الفيلسوف بزوجه أخذ يستعطفها حينا ، ويخدعها حينا آخر حتى اذا استيأس منها اعلن اليها فى صدق عنيف أنها مصدر حياته فاذا تركته فهو قاتل نفسه ، فلا يكاد يعلن إليها ذلك حتى تفقد كل مقاومة فتبقى لأنها لا تريد أن يموت !

***

فاذا كان الفصل الثالث رأيت الزوجين قد عادا إلى مدينتهما وقد فقد الزوج بصره واشتد تبريح الالم به وبلغ من سوء الظن بزوجه أقصاه ، وبلغت الزوج من الالم اقصاه ايضاً ، ولكنها بلغت من الضعف حداً عظيما ، فهى تكتب إلى صاحبها تترضاه وتدعوه فلا يجيبها ؛ وقد أحس الاستاذ هذا ثم استيقنه فان الخادم أنبأته به ، فيكون بينه وبين زوجه حديث ملؤه الحب والبغض ملؤه التملق والنذير ، ثم يذهب الاستاذ إلى الجامعة ، ويأتى العاشق فيعاتب صاحبته ويدعوها الى الفرار ؛ فتهم به ، ولكنها تخشى أن يموت الاستاذ فتبقى ، ويتركها صاحبها ، فهى محزونة باكية حين يعود الاستاذ . فما هى الا أن يسمع صوتها ويلمس يدها

وخدها حتى يستيقن بكل شيء ، على انها لا تخفى عليه شيئاً ، فاذا قضت عليه هذه الزيارة وعجزها عن ان تتبع صاحبها انبأها بانها لا تحب صاحبها هذا ، ولو قد احبته لتبعته . يثيرها هذا التحدى فتهم بالخروج ، ولكن الاستاذ قد صوب السدس إلى رأسه يريد أن يموت قبل ان تخرج ، فيسرع اليه زوجه فتأخذ منه السدس ، واذا هو يتحداها ايضاً : أرأيت انك لاتحبينه ؟ ولكن الفتاة قد صوبت السدس الى صدرها فاذا طلقة واذا جسم صريع ، واذا الاستاذ ذاهل يتخبط فى مشيته ، ثم يجثو امام هذه الجثة الهامدة ، واذا هو يصيح صيحة شيطانية منكرة :لقد ضحى الجمال بنفسه فى سبيلى ! ايها الخالق لقد عفوت عنك ! . .

ارأيت إلى هذه القصة ، وما مثلت من قوة الانسان وضعفه ، ومن بؤسه وشقائه ، ومن ذلته وكبريائه ؟ لا اشك فى انها قوية ، وفى ان اثرها فى النفس شديد ، وحظها من الصدق عظيم . ولكنى ارجو ان يكون الاستاذ الفيلسوف وقوته الشريرة ، وان تكون هذه المرأة الضعيفة التعسة أثرين من آثار الخيال لا فردين من افراد الانسان

الحظ

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي (الفريد كابو)

LA VEINE Par Alfred Capus

تبتدىء بالزهر الجميل وتنتهي بالقران السعيد ، ولكنها على جمال المبتدأ وحسن المنتهى لا تخلو من شر ونكر ، لانها تمثل نحواً من انحاء الحياة . وليس في الحياة جمال خلص وليس فيها خير خالص ، وانما جمال الحياة وخيرها رهينان بقبح الحياة وشرها . وربما مال الكاتب الذى أتحدث إليك عنه اليوم إلى ان عبوس الحياة أشد وأطول من ابتسامها ، أو الى ان طبيعة الحياة ان تكون عابسة ، فاذا ابتسمت فانما هي المصادفة رسمت على وجهها هذا الابتسام ، فهو اذن الى التشاؤم والابتئاس أقرب منه إلى التفاؤل والابتهاج . ولكنه مع ذلك يتشاءم مطمئناً الى تشاؤمه ويبتئس مبتهجاً بابتئاسه إن صح هذا التعبير . هو سيء الظن بالحياة والاحياء ولكنه مع ذلك يبتسم للحياة والاحياء . يقبل هذا الوجود على علاته ويطمئن اليه على ما فيه من ضروب السوء لانه عاجز عن إصلاحه ، عاجز عن ان يغير فيه كثيراً أو قليلا ، فهو بين اثنتين : إما أن يرى السوء فيستاء ويضيف بؤساً الى بؤس ؛

واما أن يرى السوء فيتعزى ويفتن فى العزاء حتى يطمئن وحتى يبتسم وحتى يخفف من آثار هذا فى نفسه وفى نفس الناس . وفى الحق أن التشاؤم والتفاؤل أمران يعودان قبل كل شىء الى المزاج والى النحو الذى فطر عليه الانسان . فهنالك أمزجة بائسة بطبعها تفتن فى البؤس وتغرق فيــه حتى لا تحس الا شراً ولا ترى الا نكراً ولا تبصر الا ظلاما . وهنالك أمزجة مبتهجة بطبعها لا تعرف الحزن ولا تسيغه ، وهنالك أمزجة متوسطة بين هــذا وذاك ، فرحة بالطبع ولــكنها ميالة الى الحزن أو محزونة بالطبع ولــكن فيها نزوعا الى الفرح والابتسام . وقد كان مزاج الــكاتب من هذه الامزجة ، كان يسىء الظن بالحياة مؤمناً بأن الشر فيها أكثر من الخير وبأن الشــقاء فيها أعم من السعادة ، وبأن الابتئاس هو القانون والابتهاج هو الاستثناء الذى يثبت صدق القانون ، ولــكنه كان مع ذلك يسخر بالحياة وبؤسها وشقائها ويتخذ من هــذه السخرية وسيلة الى احتمال الحياة والصبر على ما فيها من مكروه . كان مبتئساً ولــكنه كان يتخذ ابتئاسه وسيلة الى الابتهاج . أولست ترى فى هذه القصة إلا ابتئاساً يريد أن يبتهج وحزناً يريد أن يسر وتشاؤما يريد أن يتفاءل ؟ أولست ترى فى هذه القصة الا مبتئساً ينتظر المصادفة التى قد تحمل اليه شيئاً من الفرح فينتهزها ويستمتع بما

تحمل اليه فى غير تحفظ ولا احتياط ودون أن يضيع من هـذا الفرح قليلا أو كثيراً ؟ هو يصف فى هذه القصة نحواً من انحاء الحياة ، أو زاوية من زوايا الحياة الباريسية ليست فى نفسها جميلة ولا خلابة ولا مشرفـة ولـكنها مع هذا كله أو رغم هـذا كله لا تخلو من نفع ولا تخلو من عبرة . هو يتخير أبطاله وأشخاص قصته من بين طائفة من الناس معينة تراها فيخيل اليك أنها ليست شيئاً وانها عار أمتها وانها تمثل هذه الامة أقبح تمثيل ، فاذا فكرت وحققت النظر رأيت ان هذه الطائفـة هى كل شيء ، وانها على انحلالها وفساد أخلاقها وسوء تمثيلها للامة التى تعيش فيها هى التى تدير أمور هذه الامة وتشرف على حياتها العامة وترسم لها سبيلها الى الرقى أو الى الانحطاط . فلم يزدك هذا الا شكا فى الحياة وابتئاساً بها وايماناً بأن الشر فيها اكثر من الخـير وأن القبح فيها أعظم سلطاناً من الجمال

ينقسم أشخاص هذه القصة كاشخاص غيرها من القصص الى قسمين : الرجال والنساء . فأما الرجال فقد اختارهم الـكاتب من هذه الطائفة التى تصل الى كل شيء دون أن تعمل شيئاً والتى تهبط السعادة اليها من السماء أو تخرج لها من الارض دون أن تـكون قد نظرت الى السماء أو قد احتفرت الارض ، من هذه

الطائفة التى تسعد لان قوة خفية قدرت ان تسعد لا لان هذه الطائفة قد جدت أو كدت أو اجتهدت فى شىء من هذه الاشياء التى نعتقد نحن انها توصل الي المجد وتنتهى بصاحبها الى العظمة ، وهذه القوة الخفية هى المصادفة أو حسن الحظ يصيبك من حيث لم تكن تقدر وينالك من حيث لم تكن تحتسب . شخصان فى هذه القصة نالتهما هذه السعادة السهلة ، أحدهما ورث عن أبيه ثروة ضخمة لم يعمل فى تحصيلها ولم يكد فى الاستمتاع بها . والآخر محام خامل لا عمل له ولا ميل له الى العمل ، ولكنه أمسي ذات يوم فاذا هو صديق لهذا الغنى الوارث ، واذا هو بحكم هذه الصداقة غنى قوى يستطيع أن يتقدم الى البرلمان فيفوز ويستطيع أن يبحث عن الوزارة وان ينتظر الوصول اليها . فهذا هو قسم الرجال من أبطال هذه القصة . فأما قسم النساء فلم يختره الكاتب من الحرائر الشريفات اللاتي يؤثرن الجد ويحرصن على الكرامة ، ولم يختره من الضائعات اللاتي ليس لهن خلق ولا كرامة ولا اعتداد بالخلق والكرامة ، وانما اختاره من طبقة بين هاتين الطبقتين ، من طبقة تجدها ظاهرة قوية فى اوربا ، من طبقة لم تبلغ منزلة الحرائر ولم تهبط الى درك الضائعات ، وانما هى بين بين . وهذه الطبقة المتوسطة بين الشرف وفقدان الشرف هى صاحبة القوة والسلطان

لان الشرف يحول بينها وبين القوة والسلطان ، ولان الإسراف في فقدان الشرف يجعلها بمعزل عن الجماعة الانسانية العاملة . ثلاث نسوة في هذه القصة اختلف حظهن من الحياة . فأما أشدهن ذكاء وأحرصهن على الكرامة وأقربهن الى الشرف فكانت أسوأهن حظاً ، ان سعدت فلانها شقيت في سبيل هذه السعادة ؛ وان ظفرت بشيء من النعيم فهي معرضة لفقدانه معرضة لان تعود الى ما كانت فيه من بؤس ، وليس لهذا مصدر الا أنها أقرب الى الخير من غيرها . أما الاخريان فقد ورثت احداهما ثروة ضخمة عن زوج مغفل ، فهي تتخذ هذه الثروة الضخمة وتتخذ جمالها وقدرتها على الفتنة وسيلة الى الفوز والى علو المكانة في الحياة السياسية . وظفرت الاخرى بصديق غني فهي تعيش في جانبه سعيدة مطمئنة راضية لا تطمع في اكثر مما عندها ولا تريد أن تحس أن الناس من حولها سعداء . هؤلاء هم أشخاص القصة . فلننظر كيف ألف بينهم الكاتب .

***

«شارلوت لانييه» فتاة جميلة شديدة الذكاء شديدة الجهل . ولدت من أسرة فقيرة فلم تكد تبلغ العشرين حتى فقدت أهلها ثم استقبلت

الحياة فى جهل وفقر فأحبها غلام متوسط عاش معها خمس سنين ثم فارقها، فعادت الى العزلة جاهلة فقيرة، ولكنها ذكية قوية النفس ماضية العزم فأخذت تعمل لتعيش ولكن فى شرف وعفة، ثم ماتت قريبة لها وأورثتها مقداراً قليلا من المال ، فاستفادت من هذا الميراث واتخذت فى باريس حانوتاً لبيع الازهار. ولكنها كما قلنا جاهلة لم تحسن اختبار الحياة فأساءت تدبير أمرها حتى كثر الدين وعسر الأداء فهى مشرفة على الافلاس ، ولديها فى حانوتها فتيات ثلاث يعملن معها ، إحداهن فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها بارعة الجمال ولكنها غافلة أو تكاد تقرب من الغفلة لا تتصور الحياة ولا سيما حياة المرأة كما يتصورها أترابها فى العصر الذى تعيش فيه. وهو أول هذا القرن، وانما تتصور الحياة على نحو قديم اشتهر وعظم أمره فى القرن الماضى، تستمتع بلذاتها كلما أتيح لها ذلك غير راضية ولا مطمئنة بل ناظرة الى المستقبل فى أمل قوى واسع لا تدرى كيف السبيل الى تحقيقه . ولكنها تعلم أنه سيتحقق وتنتظر اليوم الذى يتحقق فيه ، لا تنتظر زواجا لانها تعلم أنها لن تجد زوجا يحقق أملها ، فهى ترجو الغني ونعيم الحياة ولن يكون الزواج سبيلها الى الغني ونعيم الحياة . فهى إن تزوجت فلن تجد إلا زوجا من طبقتها ، وهى تريد أن تفارق هذه الطبقة تريد أن

يكون لها قصر فخم وخدم وحشم ، وأن تخرج للرياضة في عربة جميلة تجرها خيل مطهمة تطمع في هذه الحياة وتنتظر ان تظفر بهذه الحياة . وهي أثناء هذا الانتظار تلهو وتعبث لتقطع الوقت، تنفق الليل في لذتها فاذا كان النهار ذهبت لبيع الازهار فأنفقت يومها في النوم أو ما يشبه النوم

***

فاذا كان الفصل الاول رأيتها قد جلست في ناحية من الحانوت وقد استأثر بها النوم وأخذت صاحبتاها تسخران منها ، فاذا أفاقت أنبأتهما بانها قضت الليل في لذة ولعب ، فتلومانها وتنصحان لها ولكنها لا تنتصح ولا تحفل بلوم وإنما تسخر من صاحبتيها في هدوء وتذكر لهما آمالها وأنها مؤمنة بتحقيق هذه الآمال ، فيضحكان منها ولكنها لا تحفل بهذا الضحك بل تجيب صاحبتيها بأن قراءة الصحف قد أفسدتهما حتى مالتا إلى الحياة الجديدة وأسرفتا في حب الاشتراكية ، أما هي فتحب الحياة القديمة ، تحب القصور الفخمة وضروب الزينة وألوان المتاع ، وستظفر بما تحب، ولن يكون هذا الظفر بعيداً فقد تبعها أمس رجل جميل الطلعة عليه آثار الثروة ، تبعها مسافة طويلة

ثم تنظر إلى الشارع فتتبينه فتضطرب وتنبيء صاحبتيها بمكانه فلا تزيد ان منها إلا سخرية ، ويتحدثن فيما بين الرجال والنساء من صلة ، فتزعم إحداهن أن قد مضى ذلك الزمن الذى كان الرجل الغنى فيه يضع ثروته ومكانته تحت قدمي المرأة الجميلة، وأصبح أهل هذا العصر رجلين : طالب فقير لا يكاد يدفع لمن يحبها ثمن العشاء ، او رجل غني يضع شرفه وكرامته فى أن يستمتع بجمال المرأة وشبابها دون ان يقدم لها قلنسوة ، وأن الخير قد أصبح فى التماس الحياة الشريفة التي تكتسبها المرأة من العمل الشريف ، وأن « جوزيفين » (Josephine) هذه لو أنصفت نفسها لقنعت بما هى فيه من بيع الازهار والعمل تحت إشراف امرأة ذكية حسنة الخلق كهذه المرأة التي تدير حانوت الازهار . وتقدم «شارلوت» صاحبة الحانوت فيستشرنها فيما كن يتحدثن فيه فتعلن اليهن أن الأمر دقيق يحتاج إلى كثير من التفكير وأنها ترى أن الفتاة يجب أن تحرص على شرفها ما استطاعت، فذلك آمن لها حتي اذا وجدت رجلا يحبها حباً صحيحاً قويا وآنست من نفسها أنها تحب هذا الرجل حبا صحيحاً قويا كان لها أن تطمئن إليه وتعتمد عليه وتعينه وتنتظر منه المعونة ، فإن خير حياة للمرأة فى هذه الايام هى أن تستمد فيها المرأة معونتها من الرجل . هى إذن تنصح

المرأة بالعمل والاعتماد على النفس ولكنها فى الوقت نفسه تشير على المرأة بألا تزدرى عشرة الرجل، بل بأن تطمح في هذه العشرة وأن تسمو اليها ، ولكنها لا تشترط بأن تكون هذه العشرة زواجا فقد يتاح الزواج وقد لا يتاح ، فهى تكتفى بالعشرة المتصلة سواء أكانت زواجا أم لم تكن. ثم يدخل رجل من رجال الاعمال المالية فيخلو الى « شارلوت » ويتحدث اليها فى أمر حانوتها ويبين لها أنها مشرفة على الإفلاس وأن امرها ان يصلح إلا إذا وجدت من يقرضها خمسة وعشرين ألف فرنك ، وهو مستعد لهذا الإقراض ولكن على أن تصبح له زوجا فهو يحبها ويعرف ماضيها ويرضى أن يتخذها له زوجا ، ولكنها هى لا ترضى لانها لا تحبه ولا تريد أن تكون زوجا ولا رفيقة إلا لمن تحب. يغضب الرجل لانه يعلم أنها تحب جارا لها محاميا يسمى « جوليان بريار » (Julien Bréard) فيحذرها عاقبة هذا الحب لان هذا المحامى كسل مفلس مدين يأبى أن يؤدى دينه . أما هى فتنكر هذا الحب وتأبى هذا الزواج وترد صاحبها فى لطف ، فإذا أنظرها بالافلاس ابتسمت وقالت سأدبر امرى . ولا يكاد يخرج رجل الاعمال هذا حتى يدخل المحامى فتكون بينه وبين هذا الرجل الفاظ جافة لان المحامى مدين لهذا الرجل ولان هذا الرجل يغار

من هذا المحامى. فاذا خلا المحامى إلى صاحبته واخذا يتحدثان تبينت من هذا الحديث ان المحامى يحبها وأنها تحبه وأنه يجهر بحبه وأنها تخفى حبها. ثم رأيت المحامى يعترف بانه فقير وبأنه مدين وبانه عاجز عن اداء دينه وبانه قليل العمل ولكنه مع هذا كله راض مطمئن بل طامع قوى الامل. فاذا سألته: لماذا لا يعمل؟ اجاب لان العمل لا يفيد ولان الذى يحقق آمال الناس ويسمو بهم إلى المجد والعظمة والسلطان ليس هو العمل ولا الجد وإنما هو المصادفة وحسن الحظ. فيكفى أن يكون الرجل ذكياً بعض الذكاء ملماً بشىء من العلم قادراً على أن يفهم الحياة ويتسرب فيها، فاذا تحققت له هذه الصفات فليس مكلفاً أن يعمل وإنما هو مكلف أن ينتظر وينتهز الفرصة وحسن الحظ. ولكل رجل من هذا النوع ساعة معينة لابد ان تدق فى وقت ما، فاذا هو سعيد وإذا هو متمتع بكل ما كان يريد، وهو ينتظر هذه الساعة. تسمع صاحبته لذلك فتجيبه بأنه قول سخيف مضيع للأمل موهن للعزيمة وبأنها تؤمن بالعمل ونفعه، ولو كان لها حظه من العلم والذكاء لاجتهدت أن تكون محامياً ذائع الصيت ثم عضواً فى مجلس النواب ثم وزيراً. فيقول سأكون هذا كله حين تريد المصادفة. ولكن هناك أمراً أجل من هذا كله فلنتحدث فيه. ثم يعرض عليها أن تسافر معه إلى

«الهافر» مساء اليوم ليقضيا نهار غد ويعودا بعد غد ، فتأبى وتتمنع ، ولكنه يلح ويعلن اليها أنها ستتبعه وأنه ينتظرها فى المحطة بعد ساعات وأنه مرسل اليها بعد حين حقيبة تضع فيها متاعها ثم ينصرف . وتخرج هى لتشرف على الفتيات ينسقن الأزهار .

وتدخل « جوزيفين» . واذا رجل جميل الطلعة عليه آثار الثروة والغنى قد دخل فالتمس زهرة يضعها فى صدره وأخذ يكلم الفتاة باسمها متلطفاً متحبباً والفتاة دهشة لان هذا الرجل هو الذى تبعها أمس وهو الذى رأته منذ حين . ثم يختصر الرجل الطريق فيعلن اليها فى لطف أنه يحبها ويكلف بها ويدعوها إلى العشاء معه الليلة وإلى أن تقيم عنده منذ غد فقد اتخذ لها قصراً جميلا فيه أحسن الرياش وسيختار لها غداً عربة وخيلا إن أرادت ، ثم يدفع اليها بطاقته وقد دهشت الفتاة وأصابها شىء من الذهول ، ثم يدفع اليها علبة صغيرة فيها هدية وينصرف على أن ينتظرها فى الساعة الثانية .

فاذا عاد النسوة إلى الحانوت وجدن الفتاة ذاهلة تقلب العلبة فى يدها فتقبل إحداهن وتفتح هذه العلبة فاذا حلية نفيسة فيهنئنها وفى بعضهن غيرة وحسد وفى بعضهن مقت وازدراء وفى صاحبة الحانوت عطف ورفق . ثم تنصرف الفتاتان وتبقى « جوزيفين » و « شارلوت » ، فاذا الفتاة تبكى فرحا وحيرة وإذا هى تقبل

«شارلوت» وتنصرف على ألا تعود إلى عملها . وتدخل صديقة لشارلوت اسمها «جنفييف» (Geneviéve) كانت معها في المدرسة فاستمرت حتى أصبحت معلمة وتركت شارلوت المدرسة قبل أن تتم تعليمها واحتفظتا بمودة قوية طاهرة ، فهما تلتقيان يوم السبت من كل أسبوع وتتعشيان معاً ، فاذا أقبلت هذا المساء وجدت صاحبتها مضطربة وما أسرع ماينتهي بهما الحديث إلى المحامي وإلى حبه وإلى قصته فتعلن شارلوت أنها تحبه ولكنها لاتريد أن تسافر معه وتلح في ذلك وتقرها صاحبتها وتدعوها إلى الخروج معها للترويض حتى يأتي وقت العشاء ، فتقبل . ولكنها تتلكأ . وهما كذلك إذ يقبل حمال ومعه الحقيبة التي وعدبها المحامي فلا تكاد تراها شارلوت حتى تفقد صوابها ويتغير في نفسها كل شيء فتعتذر عن الخروج وتعتذر عن العشاء وتطلب الى صديقتها أن تستوقف لها عربة لتدرك القطار وتخرج وتترك لصاحبتها العناية بإقفال الحانوت .

* * *

فاذا كان الفصل الثاني فقد تم إفلاس شارلوت فأقفلت حانوتها وتم الحب بينها وبين « جوليان » فهي تعيش معه وهما سعيدان بهذه الحياة . ولكن «جوليان» مازال بائساً ينتظر حسن الحظ ، وتراه في اول الفصل يخاصم دائنه ويدفعه دفعاً عنيفاً ، وتسمع هذا

الدائن ينذره بالحجز والمحضر. وتدخل شارلوت فيتحدثان في هذا .
وينبئها بأن قد بقيت له أرض في الريف فهو يريد أن يبيعها ليخلص
من هذا الدين ، فتتمني لو امسك هذه الارض ليأوى اليها من
وقت لوقت حين يحتاج الى الراحة . ثم يتحدثان في حبهما فاذا
هو قوى ، ولكنها قد أخذت تشك في صاحبها وتتوقع منه السأم
واذا هي تنبئه في لطف بأنها سعدت بهذا الحب ستة أشهر وأن
الحوادث مهما تحدث فلن تنسيها هذه السعادة وأنها لن تثقل عليه
ولن تكون عقبة في سبيل لذته أو سعادته وأنها تفهمه حقاً، وستشعر
بانصرافه عنها يوم ينصرف عنها فتتركه في لطف دون أن تضطره
الى أن يسلك معها تلك الطرق الملوءة بالنفاق والخداع ، يهون
عليها ويتلطف بها ويسلى عنها بالآمال فيذكر أنه لا يخشى شيئاً
وأنه تعود دائماً أن يخرج من كل ضيق مهما استحكم هذا الضيق،
وهو يخرج من ضيقه دائما بمعجزة لايدرى ما هي ، وهو ينتظر
هذه المعجزة ، ثم ينصرف ليذهب الى المحكمة ، وتأتى صديقتها العاملة
فتفهم من حديثهما أن « شارلوت » أحست أنها جاهلة وأن كرامتها
وكرامة صاحبها تكلفانها أن تزيل هذا الجهل ، فهى تتلقى من
صاحبتها دروسا في الإملاء والجغرافيا والتاريخ والكتابة حتى
إذا ألمت من هذا بشىء استطاعت أن تتحدث الى صاحبها والى

أصدقائه دون أن تستخزى أو تخزى من تحب. ولا تكاد صاحبتها تسألها في الجغرافيا حتى تتبين أنها سريعة الحفظ متقنته، ولا تكاد صاحبتها تقرأ ما كتبت حتى تتبين أنها تتقدم في الاملاء والكتابة تقدما سريعا. وهي في ذلك إذ تقبل « جوزيفين » فاذا هي قد تغيرت تغيرا تاماً واذا عليها آثار النعيم والثروة واذا هي تتصرف في النعيم والثروة كأن عهدها بهما بعيد واذا هي لم تقطع الصلة بينها وبين صاحبتيها فتمد دعتهما الى الشاى منذ أيام وعلمت منهما أن « شارلوت » أفلست وأنها أحبت المحامي وعاشت معه وهي تتمني لهما السعادة، وهي لم تقبل عبثا وإنما أقبلت لان لها حاجة عند المحامي. ذلك أن صاحبها واسمه « ادمون تورنير » Edmond Tourneur يريد أن يقاضي أحد الصحفيين الذي يتناوله بالسب والقذف في صحيفته فأشارت عليه أن يلجأ الى هذا المحامي وهو مقبل بعد حين ليتحدث الى المحامي في أمره. ويقبل « ادمون » ويقبل المحامي. فلا يكاد الرجلان يخلو بعضهما الى بعض ولا يكادان يتحدثان حتى يكون بينهما شيء من المودة والإعجاب. ذلك ان « ادمون » ساخط على خصمه فهو يريد أن يؤذيه أشد الاذى وهو يعتمد على المحامي في ذلك وأصحابه جميعًا يشجعونه على هذا، فيشير عليه المحامي في هدوء بأنه مخطىء وان الخير في أن يقاضي

الصحفى ولا يطالب منه تعويضاً الا فرنكا واحداً وأن يكون، حسن الخصومة مؤدبا لان خصمه قوى والخير فى أن يكتسبه لا أن يغضبه . فاذا ربح القضية فى أدب ولطف فسيلتقى الخصمان ويتصالحان وسيكون بمأمن من شر الصحافة . فلا يكاد يشير عليه بذلك حتى يفتنه فاذا هما صديقان قد ارتفعت بينهما الكلفة واذا هو يدعو المحامى وصاحبته للعشاء معه ومع صاحبته ، واذا هو قد تحققت المعجزة التى كان يطمع فيها للخلاص من دينه والانتقال من الفقر الى الغنى.

* * *

فاذا كان الفصل الثالث فقد توثقت الصلات بين المحامى وصاحبه حتى أصبح وكيلا له فى أعماله كلها وحتى أصبح غنياً فأدى دينه وأخذ يقرض الدائنين، وحتى أخذ يفكر فى أن يرشح نفسه للبرلمان فى الأرض التى كان يريد أن يبيعها : وهو وصاحبته فى مدينة على ساحل البحر قد نزلا ضيفين على « ادمون » و « جوزفين » ومعهما قوم آخرون. فاذا ابتدأ الفصل رأيت طائفة من هؤلاء الضيوف الى مائدة من موائد اللعب، فتفهم من حديثهم كل ما قدمت وتفهم منه أيضاً أن « جوليان » قد أخذ ينافق ويراوغ صاحبته لانه ابتدأ يحب امرأة أخرى « سيمون بودران »

(Simone Bodrin) وهى امرأة جميلة فتانة ضخمة الثروة ورثتها عن زجل مغفل تزوجها سنة أو نحو السنة . وهى شديدة الطمع متهالكة على السلطة تتقرب من النواب والوزراء واشباه النواب والوزراء لتسخرهم بجمالها وثروتها فيما تحب وترضى ، وقد أنست من جوليان ذكاء ومستقبلا باهراً فأخذت تتاطف له ، وفتن بها الشاب فهو يحبها وهى تطمعه . ثم يقبل ادمون وجوزفين ويقبل جوليان وشارلوت فيتحدثون ، وتفهم من الحديث أن ادمون قد كسب القضية وانه قد صالح الصحفى بعد أن انتصر عليه وان هذا الصحفى سيتناول العشاء عند ادمون آخر الليل ومعه خلق كثير منهم « سيمون » هذه . فلا يكاد اسمها يذكر حتى تغضب جوزفين وتنالها بألوان من الأذى لانها مفسدة تطمع فى نفسها الناس جميعاً وتصرف الناس جميعاً عن واجباتهم وعشيقاتهم . ثم يخلو جوليان الى صاحبته شارلوت فاذا هى قد لاحظت ميله الى سيمون وإلحاحه عليها وإلحاحها عليه واذا هى تشعر بالغيرة واذا هى تريد أن تنصرف فى هدوء ، وهى سعيدة لانها عرفت صاحبها فقيراً بائساً وستتركه غنياً سعيداً . فينكر جوليان هذا كله ويترضى صاحبته ويقنعها أو يخيل الى نفسه أنه أقنعها بانه صادق وبأنهما يستطيعان أن يعيشا معاً . ويجتمع القوم وتقبل سيمون

لان لها حاجة عند ادمون فيحيلها هـذا على وكيله جوليان فهو ليس له من أمره شيء وانما الامر كاه الى هذا الوكيل الجديد. فاذا خلت سيمون الى جوليان أرادت أن تعرض عليه حاجتها فينبئها بأنها مقضية وأن الخير فى أن يتحدثا فى الحب. ثم يعلن اليها حبه ويلح عليها فتتمنع ولكن مطمعة، وكلما زاد إلحاحا زادت تمنعاً وإطماعا. وإنهما فى هذا اذ تقبل شارلوت ملتمسة معطفها فتلحظ عليهما ما هما فيه فتنصرف ويعودان الى الحديث ـ فتطالب سيمون الى جوليان فى صراحة أن يطرد صاحبته اذا كان يريد أن يتخذها له خليلة لانها لا ترضى هذه الشركة. وهنا يأبى جوليان ويظهر عليه التردد الشديد فهو يحب سيمون ولكنه يعطف على شارلوت. ولا تنس أنها كانت صديقة أيام الشقاء فوفت له وعطفت عليه وكانت مصدر نعمته فهو لا يريد أن يسيئها ولا أن يؤذيها، ولكنه متناقض فهو يسيء شارلوت ويؤذيها اذا أحب غيرها أو مال إلى سواها. وانظر الى هذا الموقف بينه وبين شارلوت بعد أن انصرفت سيمون ... تسأله شارلوت: أرى أنك قد قضيت لها كل ماتريد فيجيبها: نعم. وكانت النتيجة أنى أصبحت عضواً فى مجلس النواب لان فلاناً يستقيل من النيابة وأتقدم مكانه فلا شك فى أني فائز، واذن فانا عضو فى مجلس النواب. فتنبئه بأن هذه خطوة عظيمة.

وان حياته قد تغيرت تغيراً عظيما . ويحاول هو أن يرد ذلك كله الى المصادفة فهو نائب لان جوزفين لقيت ادمون فى شارع باريس ولو أنه أحسن الى بلده وأدى اليه خدمة فلن تكون فرنسا مدينة له هو بهذه الخدمة وانما هى مدينة بها لجوزفين . تغضب شارلوت لهذه الفلسفة لانها تراها خطرة فهى تضيف كل شىء الى المصادفة وتجعلها صاحبة السلطان فى الحياة ؛ واذن فهو قد أحبها مصادفة وهو يعيش معها الآن مصادفة وهو قد يتركها غداً مصادفة وهو قد يحب غيرها مصادفة فهو غير مسئول عن شىء والمصادفة هى المسئولة عن كل شىء . فاذا أنبأها بأنه لايحب غيرها قالت ولكنك قد تحب بل أنت تحب ، تحب سيمون ! فينكر ويلح فى الانكار فتعلن اليه أنها رأت أعينهما متلبسة بالجريمة فهى لا تشك فى هذا الحب وهى لا ترضاه وهى تريد أن يكون بينهما حديث صريح ينتهى معه كل شىء . أما هو فيراوغ وينكر ويزعم أن حياته الجديدة حياة الثروة والغنى والمركز السياسى العظيم ستضطره الى أن يغير سيرته بعض الشىء ، والى أن يتلطف بقوم ويتودد الى آخرين ، وفى هؤلاء القوم نساء فلا ينبغى أن تأخذه شارلوت بكل نظرة أو بكل ابتسامة . أما هى فترى ان هذه الحياة الجديدة المعقدة قد تكون فى نفسها خيراً ولكن مكانها

هي من هذه الحياة قد أصبح ثقيلا . فهي ستكون مصدر ضيق لصاحبها ، واذن فالخير في ان تنصرف ولكنه لا يريد أن تنصرف وانما يريد توسطاً في الامر يلائم هذه الحياة الجديدة، يريد ألا يعيشا معاً وأن تعيش هي في بيت خاص يزورها فيه . فلا تكاد تسمع هذا حتى تجزع ويملكها الغضب فهي لا تريد أن تكون كهؤلاء النساء اللاتي يتخذهن الرجال متعة وزينة ، وهي لا تريد أن تتقبل الكرم والعطاء وهي لا تتصور حياتها كذلك وانما تريد أن تكون صديقة وعوناً على الحياة. ثم تقول له وفي الحق أنك لا تريد إلا شيئاً واحداً ولكنك لا تستطيع أن تجهر به ، تريد أن تجمع بين خليلتين ، ولن أقبل هذا الجمع . فيجيبها بأن النساء مسرفات دائماً فهن يردن كل شيء أو لا يردن شيئاً . وهو لا يطلب اليها الا شيئاً من التنزل تحتاج اليه حياتها الجديدة . وهو لا يستطيع أن يتركها لأنه في حاجة اليها في حاجة الى حبها وصداقتها ومعونتها . تجيبه :هذه أثرة !تريدني لأنك في حاجة اليّ واذن فعلي أن أستخفي كلما مال بك الهوى الى امرأة ، فاذا أرضيت هؤلاء واحتجت إلى صاحبتك القديمة عدت أنا اليك . ولكنك لا تفكر فيّ فلو أني نحوت في الحياة هذا النحو أفترضاه ؟ فيجيب :لا أفكر فيك لأننا نتحدث عني لا عنك . ثم يشتد بينهما الخصام فتعلن إليه أنه

الأمر بينهما قد انقضى وأنها كانت قد أنبأته بأنها ستنصرف متى أحست منه الميل إلى غيرها ، وهي تحس هـذا الميل فستنصرف فيأبى . وتلح فى أن تنصرف الآن لان الخير حين يفترق المحبان أن يفترقا فى ساعات الفرح والابتهاج وتحت الأضواء وألوان الزينة ، لـكنه يريد أن يؤجل ذلك إلى غد وأن يتما المناقشة متى انفردا فى غرفتهما . نعم ! حتى إذا خلونا أسرعت فضممتني إليك وانحلت قواى وارادتي بين ذراعيك . سأنصرف الآن . ويقبل القوم وهو يجذبها إليه يريد أن يدفعها بين المحتفلين

* * *

فاذا كان الفصل الرابع فقـد تمت القطيعة بين العاشقين وتم لجوليان الانتخاب للبرلمان . ولـكن الصلة لم تتم بينه وبين صاحبته الجديدة لانها تراوغه وتمانعه وتتأبى عليه حتى ضاق لذلك وسئمه. وهو فى أول هذا الفصل ينتظرها وقد وعدته بالزيارة وانقضى الميعاد ومضت عليه ساعة ولم تجىء . ثم ينظر فى صحيفة فاذا هو يقرأ خبراً فيه أنه سيتزوج هذه المرأة ! فما أسرع ما يفهم أن هذه المرأة لا تريد أن تتخذه خليلا وإنما تريد أن تتخذه زوجا لا لانها تحبه وتكلف به بل لأنها تتوسم فيه استعداداً للفوز والمستقبل الباهر فتريد أن تستغل هذا الاستعداد .وهو بعدُ يحب شارلوت

ولم ينسها وما زال عليها آسفاً وبها كلفا . وهو لا يحب سيمون هذه وإنما يشتهيها ، وقد أثقلت عليه بتمنعها وتأبيها ، وقد أسخطته الآن بسعيها في هذا الزواج الذى لن يرضاه . وتدخل خادمة سيمون ومعها كتاب من سيدتها تعتذر فيه بالصداع وتدعوه إلى زيارتها . فلا يكاد يسأل الخادم حتى يتبين أن هذه المرأة تكيد لتتخذه لها زوجا . فيرد عليها معتذراً قاطعاً ما بينهما في عنف . وهو تعس مفكر نادم اذ تدخل جوزفين وصاحبها أدمون فلا يكادون يتحدثون حتى تتبين الغضب في جوزفين لأنها مشفقة على شارلوت حانقة على جوليان ما قرأته من عزمه على أن يقترن بسيمون . ولكن هذا ينكر ويقنعها بصدقه ويقنعها بأنه لم يكن عاشقاً قط لهذه المرأة ولم يكن بينه وبينها خيانة لشارلوت . بل يقنعها بأكثر من هذا بأنه نادم على ما فعل وأنه لا يتمنى الا أن تعود الصلة بينه وبين شارلوت وأنه يتوسل إليها في أن تعينه على ذلك . فتتركهما جوزفين حيناً وهما يتحدثان في أمور مختلفة وإذا شارلوت قد أقبلت نحلت إلى صاحبها وأنبأته بأن جوزفين زعمت لها أنه في حاجة إليها لأمر ذى بال . فقد أقبلت تعينه على ما يريد . فينبئها بأن الأمر ذا البال إنما هو استئناف الحياة القديمة . تأبى ويستعطف . تغلو في الاباء ويلح في الاستعطاف . وهى تحبه وهو

يحبها . فما أسرع ما تضعف عزيمتها وما أسرع ما تميل إلى استئناف الصلات القديمة . أنى لا أعلم إنى سأ ألم كثيراً ولكني محتملة هذا الألم راضية به مستعدة لفراقك كما فارقتك حين شعرت بأنك فى حاجة إلى هذا الفراق . ويتصالحان وإذا هو يقول : ما ترين فى أن نتزوج ؟ لا تصدق ولكنه يقنعها بأنه صادق وبأن هذه المحنة التى مرت بهما قد طهرت حبه ورفعته وإن كان فى نفسه طاهراً رفيعاً . فسيقترنان على بعد ما بينهما من أمد وسيقترنان رغم ما سيقول الناس فى هـذا الزواج وسيعقدان هذا الزواج فى تلك الأرض التى كان يريد أن يبيعها ليؤدي دينه والتي كانت هى تود لو أمسكها ، وسيشهد على هذا الزواج جوزفين وادمون وآخرون من أهل القرية ، وسيقدس هذا الزواج فى الكنيسة التى يشرف عليها قسيس شيخ شهد الاسرة منذ نشأتها ، وسيخرجان بعد هذا للتروض فى بحرية قديمة بالية كانت تصطنعها الأسرة أيام عزها ، ثم يعودان إلى باريس لاحتمال أعباء الحياة الجديدة وانها لثقيلة . يعتنقان ويدخل أدمون وجوزفين فلا يكادان يريان ذلك حتى يملكهما السرور فيهنئا هذين العاشقين اللذين يستأنفان الحياة صافية طاهرة

شبيبتنا

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « الفريد كابو »

Notre Jeunesse par Alfred Capus

حدثتك منذ حين عن هذا الكاتب ولكني لم ألخص لك من قصصه الا قصة واحدة هي قصة « الحظ » ، وقد رأيت في هذه القصة قدر المقام الذى انابه الذى فرضه الكاتب للمصادفة فجعلها قوة عظيمة مدبرة للحياة وما يقع فيها من خير وشر واعتمد عليها في فهم الحياة وصروفها ، ولم أكن قد اخترت هذه القصة عبثا وانما اخترتها لأبسط لك رأى الكاتب في أكثر قصصه التمثيلية . فهو كاتب المصادفة يكبرها ويقدسها ويكاد يراها كل شيء في هذه الحياة . وليس من شك في أن كاتبا يرى المصادفة أساساً لحركات الناس وما يصيبهم من خير وشر متشائم سيء الظن ، ولكنى قلت لك إن التشاؤم يختلف باختلاف الأمزجة والطبائع ، فهنالك التشاؤم المبتسم المبتهج ، وهنالك التشاؤم المكتئب المبتئس ، وتشاؤم صاحبنا حلو يسر ولا يحزن ويضحك ولا يبكى . فهو يستقبل الحياة كما هى مبتهجا بها قانعا بما تقسم له المصادفة منها .

لا يلوم ولا ييأس وانما يغتبط إن ناله الخير ويسخر إن أصابه المكروه، ويرى أن من الحمق وإضاعة الوقت أن يلوم غير ملوم. وكيف تلام المصادفة وهي لا تعقل ولا تفكر ولا تفقه لوما ولا حمداً؛ وما الفائدة من لوم لا يجدى وحمد لا يفيد؟ فاستقبل الدهر اذن مزدريا له ساخراً منه مستمتعا بما يهبك من خير محتملا ما يصيبك به من شر، متعزياً عن الشر بأنه لم يقصد اليك وانما أصابك عفوا، واحذر أن يبطرك الخير أو تطغيك النعمة فهما لم يقصدا اليك وانما أصاباك عفواً أيضاً. فكما أن المصادفة ينبغي أن تعزيك عما يصيبك من المكروه فالمصادفة ينبغي ألا تبطرك ولا تطغيك بما يصيبك من الخير ولين العيش. ولكن ماهذه المصادفة التي يرد اليها الكاتب كل شيء في هذه الحياة؟ وكيف تتفق هذه المصادفة التي تقسم الحظوظ على الناس دون بصيرة ولا روية ودون تعمد ولا قصد مع ما نعلم من نظريات العلم وقوانين الفلسفة؟ كيف يستطيع الانسان بعد ما جاهد في استكشاف الحق ووصل الى أن هذه الحياة ليست لونا من ألوان العبث وانما هي آثار لازمة لطائفة من القوانين المحتومة، كيف يستطيع الانسان بعد هذا الجهاد المتصل وبعد هذا الاستكشاف أن يؤمن بالمصادفة أو يطمئن اليها والمصادفة عدو القانون العلمي وخصم النظرية الفلسفية؟

نحن بين اثنتين : أما أن نؤمن بالعلم فنجحد المصادفة ، وإما أن نؤمن بالمصادفة فنجحد العلم .

هذا كله حق لو أن العلم قد أحاط بكل شيء وكشف لنا عن الحقائق كلها ، ولكن العلم بعيد جدا أو ما زال الى الآن بعيداً جداً عن أن يحيط بكل شيء أو يكشف لنا عن كل شيء ، فهو قد أحاط بأشياء وكشف عن أشياء ، ولكن هناك أموراً أخرى ما زال العلم قاصراً عن أن يبلغها أو أن يزيل عنها الستار . فليست هناك مصادفة فيما نعلم من أمور هذا الكون ، ولكنا نجهل أكثر مما نعلم ، واذن فالمصادفة فى حقيقة الامر ليست إلا رمزاً لجهلنا وقصور عقلنا عن فهم الاشياء . واذن فنحن أمام حقيقتين يظهر لك أنهما متناقضتان مع أنهما متفقتان الاتفاق كله : الاولى أن المصادفة ضرب من السخف لا يستطيع العقل أن يقبله أو يطمئن اليه، وذلك حق فى نفسه ، حق فى كل ما وصلنا الى العلم به . الثانية أن المصادفة حقيقة واقعة تؤثر فى حياتنا تأثيراً قويا جداً فنحن مضطرون الى أن نحسب لها حسابا . وهذا حق أيضاً فى كل ما لم نفهمه ولم نصل الى استكشافه . ومعنى هاتين الحقيقتين واحد وهو أن العقل الانسانى مضطر الى أن يعترف بأن الحياة كلها أثر لازم لطائفة من القوانين فلا مصادفة ،

ولكنه لم يستكشف هذه القوانين كلها وإنما المجهول منها أكثر من المعلوم، فهذه الآثار اللازمة لطائفة القوانين المجهولة نسميها نحن مصادفة لاننا لا نفهمها ولا نستطيع أن نردها إلى أصولها. فالمصادفة اذن حقيقة إضافية لا أكثر لا أقل، هي كأولئك الالهة الذين كانوا يعبدون في العصور الاولى فأخذوا يتفانون ويتوارون كلما نما العقل وانبسط سلطانه على الحقائق حتى توارو! جميعاً أو كادوا وكانت المصادفة أطولهم عمراً. فمتى تفنى المصادفة؟ ومتى يشعر الإنسان بالقوة التي تمكنه من أن يجحدها جحوداتاما؟ نستطيع أن نجيب ونعجز عن أن نجيب. نستطيع أن نجيب بأن المصادفة ستزول متى انبسط سلطان العقل الانسانى على كل شيء.. ونعجز عن أن نجيب لاننا لا نعلم متى ينبسط سلطان العقل على كل شيء. وهل يستطيع سلطان العقل أن ينبسط على كل شيء؟

كاتبنا اذن يكبر المصادفة، والغريب اللذيذ من أمره أن يكبر المصادفة في منطق صريح جلي لا مطعن فيه ولا غبار عليه. فقصصه التمثيلية التى تمثل عبث المصادفة بالحياة تخلو من كل عبث. وقد نسقت تنسيقا متقنا وركبت تركيبا بديعا بحيث تدعو كل جملة منها الجملة التى تليها وبحيث يتبع كل فصل من فصولها الفصل الذى سبقه لانه أثر لازم من آثاره وثمرة ناضجة من ثمراته. كاتبنا

يكبر المصادفة ولكنه يخضعها لعقله ومنطقه فيحصرها فى دائرة ضيقة ويكلفها أن تعمل وتتصرف لا كما تحب وتريد بل كما يحب هو ويريد. ومن هنا تشعر حين تقرؤه بلذتين غريبتين، تشعر بلذة العلم لانك ترى منطقا متقنا واستنتاجا صادقا وتشعر بأن المؤلف لم تصدر عنه قصته صدورا فطريا دون تكلف ولا تصنع وانما ألفها تأليفا وركبها تركيبا واصطنع شيئاً من الهندسة فى تأليفها وتركيبها. وتشعر بلذة الادب، فاذا عبارة جميلة رشيقة واذا معان قوية عميقة، واذ افتنان فى التصور وافتنان فى الاداء، واذا الكاتب قد اجتمعت له كل الخلال التي تكوّن الاديب والتى تحملك على أن تقرأ القصة كما تقرأ آية من آيات البيان مفتونا بها مقتنعا بانها بريئة من كل تكلف او تصنع. نعم تشعر بهذين الشيئين المتناقضين ؛ تشعر بأن الكاتب قد تكلف وتصنع ؛ وتشعر بأنه لم يتكلف ولم يتصنع. والحق أن الكاتب قد تكلف وتصنع حين فكر فى موضع القصة فركب أجزائه وكونه تكوينا تاما. فلما أراد أن يؤدى هذا الموضع وأن يخرج فكرته من العقل الى القرطاس لم يتكاف ولم يتصنع وانما أرسل طبيعته الخصبة الغنية فأدت ما فى نفسه أحسن الاداء.

قلت إن قصص هذا الكاتب متقنة التنسيق ، وآية ذلك أنك

تستطيع أن تقرأ هـذه القصص كلها فيدهشك فيها شيء واحد وهو أن الفصل الاول من هذه القصص جميعاً قدقصدبه المؤلف الى أن يقـدم اليك أشخاصه تقديما لا يدع شيئاً من الشك او الغموض يحول بينك وبين فهم هؤلاء الاشخاص بحيث متى فرغت من قراءة هذا الفصل كان التعارف قد تم بينك وبين أشخاص القصة فانت تشعر بأنك فى وسط قوم قد طال عهدك بهم وطال عهدهم بك فليس يخفى عليك من أمرهم دقيق ولا جليل .

فاذا قرأت الفصل الثاني لم تر فيه إلا نتائج لازمـة للفصل الاول ، لم تر فيه الا هؤلاء الاشخاص كلهم أو بعضهم يظهرون وينمون وقد أخذت طبيعة كل واحد منهم تؤتي ثمرها وتنتج ما كنت تنتظر منها ، فاذا قرأت الفصل الذى يليه أحسست هذا الشيء نفسه حتى تفرغ من القصة فاذا انت لم تتعب واذا انت لم تلق شيئاً من الجهد لانك انتقلت من معقول الى معقول ومن مقدمة الى نتيجة وسلكت طريقا سهلة واضحة لا صعوبة فيها ولا اعوجاج . واليك مثلا من امثال هـذا التأليف ، هو القصة التى أريد أن أحدثك عنها اليوم .

* * *

نحن فى مدينة « تروفيل » على ساحل البحر عند أخوين

موسرين يصطافان فى هـذه المدينة التى يصطاف فيها الاغنياء واصحاب المكانات الضخمة من الفرنسيين والاجانب . هذان الاخوان غنيان ولا تنس أنهما رجل وامرأة .

اما المرأة فقد قاربت الخمسين من عمرها ، واما الرجل فقد جاوز الاربعين . كانت لهما ثروة ضخمة ولكنهما فقدا معظم هذه الثروة، فقد الرجل واسمه « جاك . شارتييه » ثلاث ارباع ثروته لانه كان قد اتخذ له خليلة مسرفة فما زالت به حتى أنفق عليها معظم ما كان عنده ثم احست انه يدنو من الفقر فتركته إشفاقا عليه من جهة وطمعاً فى ثروة غيره من جهة اخرى . وأما الاخت واسمها « لور » فقد فقدت ثلاثة ارباع ثروتها لانها تزوجت رجلا شريفا ولكنه مضارب فما زالت به المضاربة حتى أتت على ثروته كلها فعمد الى ثروة امرأته فأتى على ثلاثة ارباعها . وكان المصادفة أشفقت على هذه المرأة من الفقر فخلصتها من زوجها بأن ارسلت اليه الموت . ترملت المرأة وقد بقى لها من ثروتها شىء قليل وتوحد اخوها وقد بقى له من ثروته شىء قليل فخالطا ما بقى لهما وعاشا معاً عيشة حلوة لا تخلو من فلسفة . يسخران من الحياة ويستمتعان بلذاتها المعقولة فى غير مشقة ولا إسراف . وهما فى هـذه السنة قد دعوا اليهما جماعة من اصدقائهما ليقضوا معهم اياما فى هـذا

المصيف ، وهؤلاء الاصدقاء ثلاثة كلهم خليق بالعناية ، أولهم رجل شيخ اسمه « بريان » عظيم الثروة يشرف على طائفة من المصانع الغنية القوية ولكنه ساخط على الحياة وما فيها لانه شيخ يؤمن بعصره القديم ويمقت هذا العصر الجديد ويرى الشر كل الشر فى التطور الذى تخضع له الانسانية فى أخلاقها وسياستها ونظمها الاجتماعية . يكلف بالقديم جداً ويسخر من الحديث جداً ، ولكنه مبتسم أبداً ابتسامة لا تدل على رضا وإنما تدل على الازدراء والسخرية . فاذا تحدث اليك آذاك حديثه لانه لا ينطق إلا عن سخط وسخرية ولانه يشعرك بأنه يزدريك ويكبر نفسه . وأما الثاني فابن هذا الرجل قد توسط فى عمره وكان فى شبابه فرحاً مبتهجاً سعيداً شديد الايمان بالحياة ولكنه عاشر أباه وشاركه فى العمل فتأثر به تأثراً شديداً حتى تغير ابتهاجه إلى نوع من البؤس واستحالت سعادته إلى شيء من الخوف والوجل فهو يتوقع الشر وينتظر الكارثة من يوم إلى يوم وقد فقد الثقة بنفسه واعتمد على أبيه فى كل شيء فلا يصدر إلا عنه ولا يقضى إلا بأمره واسمه « لوسيان » . وأما الثالث فامرأة هذا الرجل متوسطة فى عمرها أيضاً قد بلغت هذه السن التى تملأ النساء قلقاً وإشفاقاً وتشعرهن بشيء من الحسرة والحرص على اللذة معاً ، لانهن يكدن يتجاوزن الشباب

فهن يحرصن على مابقى منه ويردن أن يستمتعن به . وهن يشفقن من الشيخوخة ويحاولن تأخيرها ما استطعن إلى ذلك سبيلا . وهذه المرأة واسمها « هيلان » تحب زوجها حبا شديدا ولكنها تعسة لانها تحيا فى مدينة من مدن الاقاليم فلا تستمتع من الحياة بما يلائم اطماعها وثروتها وهى فى الوقت نفسه لا تجد من زوجها هذا النشاط والابتهاج اللذين تحب المرأة أن تجدهما دائما عند زوجها، ثم هى لاتشعر بما تحب المرأة أن تشعر به أبداً من ان زوجها قوى صادق الارادة يعمل بنفسه ويؤثر فى الناس دون ان يتأثر بهم. وإنما تجد زوجها ضعيفا مستكينا لأبيه وتجده مع ذلك مشفقا محزونا، فهى تعسة من كل ناحية وقد أسعدتها هذه السياحة لأنها نقلتها من مدينتها إلى مدينة كلها حركة وحياة وترف واستمتاع باللذات . ولذلك لم يكد مضيفاها يعرضان عليها ان تقيم عندهما شهرا حتى قبلت ذلك والحت فيه على زوجها الشاب وأبيه الشيخ . ثم يقبل قوم من الاصدقاء يزورون هذين الاخوين ويتعرفون إلى ضيفه وهؤلاء الاصدقاء ثلاثة أيضاً رجل شاب غني مشرف على طائفة من المصانع ولكنه مبتهج بالحياة مطمئن إليها لا يصرفه عمله الكثير عن اللهو واللعب ولكن فى قصد وحزم، واسمه «سركى». وقريبة له جميلة غنية تزوجت فشقيت بزوجها ففارقته وهى تريد

ان تتزوج من قريبها لانها تحبه ولانه يحبها واسمها « الين » . ورجل آخر نبيل من أصحاب الاسماء القديمة فى فرنسا ، كان عظيم الثروة. فقامر بعظم ثروته وما زال يقامر لا يحفل بشىء ، وهو يمتاز بانه فتان للنساء يفتنهن باسمه ويفتنهن بجماله ويفتنهن بسحر حديثه واسمه « دى كاينور » . يمر بك هؤلاء الناس جميعاً فى الفصل الاول وتعلم من أمرهم كل ما ذكرت لك، ولكنك تسمع فى هذا الفصل الاخت تنبئ أخاها بأن فتاة جميلة اقبلت فى طابه وهو غائب وأنها ستعود . وتعود هذه الفتاة وقد خلا الرجل إلى نفسه فتدخل عليه وتتحدث إليه ، فلا تكاد تبدأ معه الحديث حتى تشعر أنت بأن القصة قد بدأت تكون لذيذة محزنة . ذلك ان هذه الفتاة واسمها « لوسيين » وقد بلغت السابعة عشرة من عمرها هى ابنة طبيعية لصديقه « لوسيان » الذى يقيم عنده . كان صديقه هذا طالبا معه فى باريس وكانت له خليلة فى الحى اللاتيني عاش معها سنتين أو أكثر من سنتين ، كانت لها مكتبة صغيرة تعمل فيها نهارا فإذا أمسى المساء أغلقت بابها وقضت الليل مع صاحبها وربما حضرها فى بعض رياضاتها « شرتييه » هذا صاحب البيت . فلما أتم « لوسيان » دراسته فى مدرسة المناجم واضطر إلى أن يعود إلى بلده وإلى ان يتزوج كانت صاحبته هذه حاملا فأرضاها بمقدار

من المال على ان تتركه حراً ، وكانت هذه المرأة تحبه حقاً فضحت بنفسها فى سبيله وتركت باريس وذهبت إلى طرف من اطراف الاقاليم عاشت فيه حتى ولدت لها ابنتها هذه فقامت بتربيتها ما استطاعت وماتت وللفتاة اربع عشرة سنة . وكانت لا تحدثها عن أبيها الا بخير .وكانت توصيها بألا تزعج أباها وبانها إن تحتج إلى معونة فى الحياة كان لها أن تقصد إلى (شرتييه) صديق أبيها فسيعينها على الحياة ما استطاع. عاشت الفتاة ثلاث سنين ثم أحست الحاجة إلى المعونة وذكرت وصية أمها فقصدت إلى (شرتييه) فى باريس فانبئت بمكانه فى المصيف وقصدت إليه فيه. وهى الآن عنده تقص عليه أمرها وتسأله ان يجد لها عملا .وقد ذكر صاحبنا كل هذه القصة ولكنه كان يجهل ان تلك المرأة كانت حاملا وان صديقه اهمل ابنته هذا الإهمال . فانظر إلى هذه المصادفة التى جمعت هؤلاء الناس جميعاً للذتهم فى هذا المصيف ثم ارسلت اليهم هذه الفتاة لتشوب هذه اللذة بشىء من المرارة والاضطراب .. عنى (شرتييه) بهذه الفتاة وانبأها بمكان أبيها عنده فجزعت واستحلفته ان يخفى أمرها على أبيها لانها لا تريد أن تنغص عليه حياته فهى تعلم أنه متزوج وان ظهورها لن يكون إلا مصدر سوء لهذه الاسرة السعيدة ، حلف لها ووعدها بالمعونة وانصرفت ..

وهى منصرفة اذ يدخل أبوها فيراها وتراه،أما هو فلايعرفها وأما هى فتعرفه لان أمها قد تركت لها صورته الفوتوغرافية.

***

فاذا كان الفصل الثاني فقد أخـذ هؤلاء الاشخاص جميعاً يؤتون ما ينتظر منهم ، ترى (سركى) يتحدث إلى قريبته فى أمر الزواج يلح عليها وتمنيه،ثم ترى (كلينور) يتحدث إلى (سركى) فى أمر (هيلان) يراها جميلة ويذكر أنه مفتون بها ويذكر أنه يريد أن ينال الحظوة عندها ، وترى (شرتييه) يسعى فى أن يجد عملا للفتاة وقد وجد هذا العمل بالفعل فسيلحقها بسيدة غنية تحتاج إلى قارئة . ولـكن شيئين خطيرين يافتانك فى هذا الفصل: الاول أن « هيلان » هـذه المرأة القلقة التعسة قـد تأثرت بحياة الحركة والابتهاج فى المصيف فنسيت نفسها وواجبها وزوجها وكل شىء واندفعت فى اللذة حتى استمعت « لكلينور » ومالت إليه،وتراها فى هذا الفصل سعيدة بما يقدم إليها من الثناء مبتهجة بأنها ستلقاه وستلقاه كثيراً . هى إذن مندفعة فى سبيل الخطيئة . الثاني أن « لور » قد عرفت أمر الفتاة فسخطت وأخذها الحنق على هذا الأب الآثم الذى أهمل ابنته هذا الإهمال واندفع فى الحياة لا يبحث الا عن لذته وسعادته ، فذهبت إلى الفتاة فزارتها ثم أقبلت فأنبأت

الاب بمكانها وطابت إليه أن يؤدي واجبه . وهى تنبىء أخاها بهذا كله وأخوها يلومها لانها تدخلت فيما لا يعنيها فتجيبه : لو أن الناس جميعا لم يتدخلوا إلا فيما يعنيهم لفسد الامر ولما استقامت الحياة، فأنت تتدخل فيما لا يعنيك حين تعلم بمكان البائس فتحاول أن تساب عنه بؤسه ، فاذا ذكر لها أخوها انه لم يكن يستطيع أن ينبىء صاحبه بمكان ابنته لانها استحلفته فخاف أجابت بأن هذا سخيف فلو أن انسانا أنبأك بأنه سيقتل نفسه واستحلفك ألا تدل عليه فبررت بيمينك لكنت آثما لانك أعنت على قتل النفس. ومهما يكن من شيء فقد عرف الاب مكان ابنته فجزع لذلك جزعا لاحد له وشاور أباه ثم تم الاتفاق بين الرجلين على أن يرزق الاب ابنته رزقا يقوم بحاجتها ولكن على أن تستخفي وتعود إلى حيث كانت دون أن يعلم بمكانها أحد من الذين يتصلون بهذه الاسرة . فاذا عرض هذا الحل على الاخوين رضيه الرجل لانه حل لا بأس به ، فيه إصلاح أمر الفتاة وفيه الاحتفاظ بمكان الاسرة وشرفها وسعادة « هيلان » . أما الاخت فتشك فى هذا الحل ولا تقبله إلا كارهة، فاذا لامها أخوها أسرفت هى فى تأنيبه فيجيبها بأن الحياة لا تشتمل أبداً الا على هذه الحلول المتوسطة التى ليست خيراً خالصا ولا شراً خالصاً وإنما هى بين بين . ثم تخلو « لور » الى الفتاة

فتعرض عليها هذا الحل وتأخذها بقبوله ، ولكن الفتاة تسألها : ألم يفكر أبي فى أن يراني ولو لحظة ؟ كلا ! ... واذن فتستطيعين يا سيدتي أن تبلغيه أني أرفض حله هذا وأظن أنك ترين رأيي فانه حين لم يفكر فى أن يراني لم يفكر فى أني ابنته فهو يريد أن يتصدق علىّ وانا أرفض هذه الصدقة منه كما أرفضها من أى انسان ، وأريد أن أعمل لأعيش . تقرها « لور » على هذا الرأى وتحمد لها هذه الكرامة وتعدها بالمعونة . ثم تخلو إلى أخيها فتنبئه بهذا الرفض مغتبطة به راضية عنه لان فيه احتفاظ المرأة بكرامتها . أما أخوها فيسوءه ذلك ويحزنه لانه لا يزيد الامر إلا تعقيداً . ثم يقبل الاب فيعلم هذا كله فيزداد جزعه واضطرابه ولكنه يعتمد على صاحبيه فى إقناع الفتاة ويعتمد عليهما فى أن تجهل زوجه كل شيء ويسألهما وعدا بذلك . أما الاخ فيعد ، وأما الاخت فتتردد لانها كانت قد قالت لاخيها إنها لا تحفل بكامة الشرف اذا كان أثرها شرا . ولكن صاحبها يلح فتعده وهى تضمر الغدر . تقبل بعد ذلك «هيلان» مضطربة ثائرة لان زوجها وأباه قد أزمعا السفر غدا لامر ذى بال ، وهى تكره هذا السفر وتأباه وتريد أن تعلن الثورة والمعصية لانها لا تقبل هذا الاستبداد . أما (لور) فتفهم معنى هذا الاضطراب وهو أنها تحب (كلينور) وتريد أن تصل من الحب الى أقصى نتائجه

فتنصح لها بالسفر ثم تصارحها فاذا هى موفقة واذا (هيلان) مضطربة حقا بين الحب وبين الواجب، واذا هى لاتدرى أى سبيل تسلك واذاهى تذكرحياتها التعسة فى مدينتها وأنها وحيدة، واذا هى تأسف لانها لاولد لها وتود لواستطاعت أن تلتقط طفلا! هنا تنتهز « لور » الفرصة فتنبئها بأن ذلك يسير وأن الاطفال الاشقياء أكثر من أن يحصيهم العد وأن لديها ابنة لو شاءت أن تتبناها لأحسنت اليها ، فتسألها عن هذه الفتاة ما اسمها، فاذا سمعت الاسم ارتابت قليلا لانه يذكر باسم زوجها . ثم تلح فى المسألة فتنبئها « لور » بكل شيء . يقع النبأ من نفسها موقعاً مؤثراً ولكنها لاتستطيع أن تحدد هذا التأثر ، ثم تظهر أنها تريد أن ترى الفتاة وتحتالان فى ذلك فتدبران هذه الحيلة وهى أن تزعم « هيلان » للفتاة أنها هى المرأة الاجنبية التى تريد أن تستخدمها فاذا أدخلت الفتاة على «هيلان» كان بينهما حب فجائى غريب. أما الفتاة فتعشق المرأة وتلح عليها فى أن تستخدمها، واما «هيلان» فتهيم بالفتاة ولكنها تظهر شيئاً من التردد فى استخدامها فاذا رأت جزع الفتاة أعلنت اليها الامر فتجزع الفتاة وتهم بالانصراف. ثم يكون بينهما حديث موثر فاذا هذه المرأة التى كان ينتظر منها أن تنكر هذه الفتاة لانها ابنة خصيمتها قد أحبت هذه الفتاة وعطفت

عليهاوهى لا تريد أن تفارقها . وهى تضمها اليها وتعانقها والفتاة تبكى بين ذراعيها . هنا يدخل الزوج ! . . . ولم يعرف الفتاة أو تكلف أنه يجهلها ! فتقودها « هيلان » الى الباب وتخلوالى زوجها وقد اعتزمت شيئاً جديداً

يجب ألا تخدعنا هذه العاطفة فليس من شك فى أن مصدرها الحقيقى أمران : الاول أن هيلان وجدت فى هذه الفتاة شيئاً يصرفها عن حبها الآثم الذى كادت تتورط فيه. الثاني انهاوجدت فى هذه الفتاة أنيسا لعزلتها ومسليا عن عقمها. فاذا خلت الى زوجها حاول هذا الزوج أن يعتذر فتعفيه من كل اعتذار، ثم تعرض عليه أن يعترف بهذه الفتاة وأن يتخذاها لهما ابنة . وكلما حاول الزوج أن يلتمس مخلصا من هذا العرض وجدت جوابا حتى تفحمه أو تكاد ، ولكنه يجد جواباً خطراً وهو أنه لا يستطيع أن يعترف بهذه الفتاة حتى يقره أبوه على هذا الاعتراف . تثور زوجه لهذا الضعف وتلوم زوجها لانه يؤثر أباه على ضميره وعلى واجبه وعلى امرأته، فان ضميرة يكلفه أن يعترف بهذه الفتاة وواجبه يقضى عليه بان يصلح ما أفسد من أمر هذه الفتاة، وامرأته التى كانت خليقة أن تبغض هذه الفتاة تحبها وتعطف عليها وتريد أن تتخذها لها ابنة. ثم تدعو أبا زوجها وتعرض عليه الامر فلا يلقى هذا إلا بشيء حاد مؤلم.

من السخرية ثم يجيب: أن هذا نوع من المزاح السخيف وأنه لا يريد أن يضيع وقته في مناقشة وأنه كان يعتزم السفر غدا فيسافر هذا المساء. تثور « هيلان » وتعلن أنها لن تسافر، فيجيبها أنه مسافر وأنه لا يطالب منها الا شيء واحد وهو أن يبرقا اليه اذا أتما ما يريدان ليستطيع ان يترك لها البيت فهو لا يقبل أن يعيش مع هذه الفتاة غير المشروعة في بيت واحد. فاذا خرج واستأنفت البحث مع زوجها لم تجد منه الا إباء ورفضا لانه يستطيع أن يفعل كل شيء الا إغضاب أبيه. هنا ثورة مؤثرة، هنا تنهض « هيلان » وقد ملأها الغضب فتصيح بزوجها: أما وقد اخطأك الضمير واخطأك الواجب واخطأك الحب فجحدت بنتك التي تمثل شبابك والتي هي من لحمك ودمك وأخذت تتساءل هذا السؤال الذي يمثل الجبن والضعة فتسأل من يدري أنها ابنتي، اما وقد وصلت من الضعف والجبن الى هذا كله فانا التي كانت تستطيع أن تجحد هذه الفتاة وتتخذها لها عدواً أنا أعلن أنها ابنتي.

***

فاذا كان الفصل الثالث فقد وصل هؤلاء الاشخاص جميعاً من التطور الى أقصاه. أما « لور » فسعيدة مغتبطة لانها واثقة

بأن « هيلان » لن تترك الفتاة . وأما أخوها فسعيد مغتبط أيضاً لانه لم يكن ينتظر من « هيلان » هذا العطف على هذه الفتاة، فلما رآه اطمأن اليه وأخذ نفسه بتشجيعه وتأييده . وأما « هيلان » فلم تزدد الا إصراراً وحباً للفتاة وثورة على زوجها وأبيه وقد نسيت حبها وأعرضت عنه وأخذت لا تذكره إلا مع ابتسامة هادئة، وهى تقول فى لطف لصاحبتها : إنها رأت الخيانة الزوجية شيئاً يشبه مايراه المسافر حين ينظر من نافذة القطار السريع وأنها لم تقترف من هذه الخيانة الا أنها قبلت الثناء وضغطت على يد صاحبها ضغطا فيه شىء من القوة . وأما الشيخ فقد ازداد إصرارا وعناداً واعتزم السفر فى المساء وأخذ يلمح ويشير الى ما كان من « هيلان » ليوغر عليها صدر زوجها . وأما الزوج فهو أسوءهم حالا لانه مضطرب بين زوجه وابنته من ناحية وأبيه من ناحية اخرى . فهو لا يدرى ماذا يصنع وهو يلقى من تنازع العواطف فى نفسه عذابا شديداً، وكل شىء يدل على أنه سيذعن لزوجته وواجبه . وقد اجتمع الى أبيه وصديقه فهم يتحدثون ، أما الاب فساخط كل السخط ولكن فى سخرية لانه يرى من فساد الحياة ما يقضى على الفضائل القديمة ، ألم يصبح الابناء الطبيعيون موضع العطف والرحمة !وليس لذلك من أثر الا إضعاف الحرص

على الزواج وإضعاف مكانة الابناء الشرعيين . وهو يعلم أن القوم يحكمون عليه بالقسوة والعنف ولكن ماذا يصنع ؟ لقد جاوز السن التي يستطيع أن يغير فيها رأيه، فان يكن على حق فهو خليق أن يمضي في عناده وإن يكن مبطلا فهو عاجز عن أن يعدل عن باطله . وهو واثق كل الثقة بان ابنه سيذعن لزوجه فيعترف بالفتاة ثم لا يستطيع أن يعود الى المدينة إشفاقا من اللوم فيعيش في باريس ويبيع مصانعه ولا يرى أباه الا مرة قبل أن يموت. يمانع ابنه ويزعم أنه سيسافر معه وأنه لن يذعن لزوجه. ثم ينصرف أبوه وصديقه ويخلو الى زوجه فيحاول أن يقنعها بالسفر فاذا هي مصرة على الثورة واذا هي تعلن اليه أنها لن تعيش منذ اليوم تحت سلطان أبيه واستبداده وأنها تحبه الى حد أن تستطيع أن تعيش معه حرة لا رقيقا

فاذا ذكرت الفتاة أعرضت هيلان عن ذكرها وقالت إنها مجتهدة في أن تجد لها عملا

— ولكن ماحاجتها الى العمل وقد ضمنت لها الحياة ؟

- وبأي حق تضمن لها الحياة وأنت تجحدها ؟

هنا يطلب الزوج أن يرى هذه الفتاة ليتحدث اليها ويتفق معها ، وفي نيته أن يقنعها بالسفر وقبول ماعرض عليها . ولكن «هيلان» مطمئنة لانها تعلم أن الرجل قد تطور وأن إذعانه للحب

والواجب قريب . ترسل اليـه الفتاة فاذا رآها اضطرب ثم أخذ يتحدث اليها محاولا أن يقنعها بما عرض عليها، وهو فى أثناء الحديث الى ابنته يرق شيئاً فشيئاً والفتاة ترق شيئاً فشيئاً حتى إنها لتأخذ يد أبيها غير شاعرة ثم ينفصلان وقد أقنعها كارهها بقبول ماعرض عليها فاقتنعت لانه اعترف أمامها بأنه أبوها فاكتفت منه بذلك . تهم أن تنصرف فيجذبها اليه قائلا : انظرى إلىّ قليلا لتذكريني . .

ـ لست فى حاجة إلى ذلك فعندى صورتك

ـ عندك صورتي ؟ كيف ذلك ؟ !

ـ تركتها لى أمى وانت فيها شاب ولكنك لم تتغير كثيراً.

ـ أحب أن أرى هذه الصورة ! . . .

ثم تخرج له الصورة . فاذا نظر فيها دهش لانه يرى شابا ضاحكا ممتلئاً حياة وابتهاجا . ثم ينكشف له الأمر عن هذا الفرق العظيم بين حياته الباسمة أمس وحياته العابسة اليوم ، ثم يذكر صاحبته التى ماتت ويذكر اليوم التى اتخذت فيه هـذه الصورة فيكفكف عبرته ، ثم يريد أن يخفى الصورة فى جيبه فتمنعه الفتاة .

ـ دع لى هذه الصورة .

كلا ! لا أستطيع أن أدعها ثم ينفجر

ـ لقد سئمت هذا الجهاد العنيف العقيم أحارب به شبابي

وشبابك وحياتى وحياتك! سأحتفظ بهذه الصورة وسأحتفظ بك أنت أيضاً !. . . ويضم ابنته إلى صدره وتدخل زوجه ثم يدخل أصدقاؤه، وهم فى فرحهم وابتهاجهم إذ يقبل الشيخ وفى يده حقيبته يريد أن يسافر فيودع القوم جميعاً . فاذا رأى ابنه سأله ساخراً :

ـ ألم أتنبأ لك بكل هذا ؟ ألا تظن أنى أعرفك ؟ إن هذه المعرفة لتعزينى عن كل شىء فى هذا الأمر ! .

يحاول الزوجان أن يستعطفاه فلا يعطف . يحاول ابنه أن يقدم اليه حفيدته فيأبى :

ـ ستقدمها إلى حين أصل الى أقصى الشيخوخة فلا افكر ولا احكم

ثم ينصرف فيمر فى طريقه بالفتاة فينحنى أمامها انحناء الاحترام لفتاة أجنبية منه ، وإنه لمضطرب وإن الحنان ليغالبه على نفسه، وإنه ليود لو استطاع أن يضمها اليه ! ولكنه مستمسك بحماته القديمة محتفظ بآرائه القديمة ، فيكظم عواطفه ويمضى مسرعا . وتسأل الفتاة « هيلان » :

ـ من هذا الشيخ ؟

فتجيبها هو جدك !...

السارق

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسى (هنرى برنستين)

Le Voleur
par Henry Bernstein

حدثتك عن كاتب فرنسى يحلل العواطف ويصبو الى المثل الاعلى فى قصصه وهو « بول جير الدى ». وحدثتك عن كاتب فرنسى آخر يعرض للعواطف من وجهة علمية فلسفية ، فهو يضع العقل والعاطفة والحياة العملية موضع البحث والتحليل . وهو « فرنسوادى كوريل »

وأريد اليوم أن أحدثك عن كاتب فرنسى آخر ، يذهب فى التمثيل مذهبا غير مذهب صاحبيه . لا يهمل العاطفة ولا المثل الاعلى ، ولكنه لا ينظر إليهما من وجهة الحس والشعور وحدهما ، ولا ينظر اليهما من وجهة العلم والفلسفة ، وانما ينظر اليهما من وجهة الحياة العملية ، أو قل إن موضوع بحثه هو الحياة العملية . فاذا تعرض للعاطفة وللمثل الاعلى فانما يعرض لهما من حيث هما زهرتان من أزهار هذه الحياة العملية ، ونتيجتان من نتائج هذا الجهاد العنيف الثقيل الذى تكرهه النفس ويعافه الطبع ، والذى يمتاز به رجال الاعمال المادية والقائمون على تدبير الاموال .

تستطيع أن ترى فى هذا الكاتب رجلا يستخلص الخير من الشر، ويستنبط الفضيلة من الرذيلة، ويريد أن يثبت لك أن النفس الانسانية مهما تنلها الشرور وتترا كم عليها الادران ففيها جزء من الخير والفضيلة، وأن هذه الشرور والادران أعراض يجب على الجهاد فى الحياة أن يزيلها ويبرىء النفس منها ويظهر هذه النفس صافية نقية كما هى قبل هذه الحياة المعقدة المملوءة شروراً وآثاماً، ويظهر هذه النفس كما تحب أن تكون . بل قل إن خلاصة البحث عن مذهب هذا الكاتب فى قصصه التمثيلية أن المثل الخلقى الاعلى الذى نطلبه ونسعى اليه ليس شيئاً بعيدا عنا نجد فى تحصيله ونتكلف كسبه وانما هو شيء موجود فينا حجبته عنا ضرورات الحياة وآثامها . وعمل الجهاد العنيف الذى يملأ حياتنا انما هو ازالة الحجاب الذى يحول بيننا وبين أنفسنا ويخفى علينا ما فطرنا عليه من خير .

هذا مذهبه فى المثل الخلقى الاعلى . وإذن فلاجل إثبات هذه القضية وإظهار أن هذا المثل جزء من انفسنا فلا بد من تمثيل الحياة العملية كما هى دون أن يضيف اليها الكاتب ماليس فيها، أو دون أن ينقص منها ماهو متصل بها . يجب إذن أن تمثل الحياة العملية كما هى . فاذا كانت للكاتب مهارة فنية فانما هى فى التوفيق بين الظروف المختلفة والاطوار المتباينة لينتج منها ما يسعى الكاتب

الى إثباته وهو أننا قد نـكون أشراراً وقد نـكون آثمين ولـكن لنا من الخير نصيباً فطرياً كثيراً ما يورطنا فى الشر والاثم .

أريد أن أحدثك عن هذا الكاتب وأن أحدثك من قصصه التمثيلية اليوم عن قصة مثلت سنة ١٩٠٦ فأعجب بها الناس اعجاباً شديداً ، ثم أعيد تمثيلها بعد الحرب فازداد الاعجاب بها شدة ، وأحسب انها قد تمثل بعد سنين فلا يزداد الناس بها الا إعجاباً وكلفاً ، لانها جمعت بين خصلتين خليقتين بالـكلف والاعجاب احداهما الصدق ، فالـكاتب لايتـكلف ولا ينتحل ولا يصف الانسان بما ليس فيه . والثانية الرقى الخلقى ، فالـكاتب يمثل لك الرذائل والجرائم فى أشنع صورها وأبشع مظاهرها ، ولـكنه يتخذ هذه الرذائل والجرائم وسيلة الي أرقى المثل العليا التى يطمح اليها الانسان ويجد ما استطاع فى أن يبلغها .

هو صادق وهو طامح الى الخير . فهو يمثل لك نفسك كما هى ، ويمثل لك نفسك كما تحب أنت أن تـكون

وله مزية أخرى ليت ضئيلة ولا قليلة الخطر : مزية لفظية ولـكن لها أثرها فى هز العواطف واستهواء الالباب . ذلك أنه رجل قوى عنيف فهو لايتخير من الالفاظ والجمل أرقها ولا ألينها ولا أدناها إلى الفتور ، وانما يتخير منها أغلظها وأعنفها وأشدها

وقعا فى النفس وتحريكا للقلب ، يتخير الفاظا ضخمة ولـكنها غير جوفاء بل ممتلئة بالمعنى أشد الامتلاء ، الفاظا وجملا تسمعها فتبهرك وتروعك ، لانها عظيمة غليظة لا لأنها هينة لينة ساحرة ، الفاظا وجملا تمثل الشعب الفرنسى القوى العامل الذى نسى ذلة الهزيمة وبرىء من هذه الحياة الشعورية التى كانت تظهره مظهر المريض فى أواخر القرن الماضى ، وامتلأ حياة قوية صحيحة، حياة لا تميل الا إلى الجهاد ولا تصبو الا اليه . ومن هنا كان إعجاب الناس بهذه القصة وأمثالها صحيحا صادقا لأنهم كانوا يرون فيها رذائلهم وفضائلهم ، كانو يرون فيها حياتهم الحاضرة وحياتهم المستقبلة ، كانوا يرون فيها آلامهم وآمالهم معاً .

اذا ابتدأت القصة رأيت فى غرفة الاستقبال وهى غرفة فخمة فى قصر فخم أشخاصا ستة لـكل واحد منهم مكان فى القصة، أولا « ريمون لاجارد » وزوجه « ايزابيل لاجارد » وهما صاحبا القصر ، لهما ثروة ضخمة جداً مصدرها مزارع البن فى البرازيل. ثانياً « ريشار فوازان » وزوجه « مارى لويز فوازان » و« ريشار » هذا صديق صاحب القصر ومدير ثروته الضخمة وهو يحب زوجه « مارى لويز » حباً شديداً . أما زوجه فقد بلغ كلفها بزوجها أنها تعبده ولا ترى شيئاً غيره فى الحياة . ثالثاً « فرنان

لاجارد » ابن صاحب القصر من زوج أخرى ماتت .وهو شاب في التاسعة عشرة من عمره يظهر عليه الحزن والضيق . رابعاً ضيف يسمى في أول الفصل « زامبو » وفي آخره « جندوان » وهو رجل غريب الاطوار ينكره كل من في القصر لانهم لا يعرفون من أمره شيئاً ، ولا يفهم علة وجوده في القصر الا صاحبه

اجتمع هؤلاء الاشخاص في غرفة الاستقبال لتناول القهوة بعد العشاء . فترى « مارى لويز » تداعب زوجها مداعبة الكلفة به المفتونة بحبه، تقبله وتمازحه وتاتى بنفسها عليه ، والقوم ينظرون ويعجبون ويمزحون ويتحدثون فيما تكلف هذه المرأة زوجها من نفقات الثياب والقلانس وما اليها إلا الشاب «فرنان» فانه منصرف إلى كتاب ينظر فيه. فاذا قضى القوم حظهم من القهوة والشراب والمزاح ذهبوا إلى غرفة اللعب وتبقى « مارى لويز » و«ايزابيل». أما الشاب فقد مضى إلى الحديقة يقرأ في كتابه . فيكون بين المرأتين حديث قصير موضوعه « زامبو » الذى لا يعرف أمره أحد . ثم تنصرف « ايزابيل» لتلحق باللاعبين وتبقى «مارى لويز» فلا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الشاب ، فتتحدث اليه «مارى لويز » في كتب غرامية يكتبها اليها، فاذا أتم كل كتاب منها صعد فتركه في غرفتها واضطرت هي الى أن تصعد فتأخذ الكتاب.

وتقرأه . وقد سئمت صاحبتنا عبث الاطفال هذا فهى تطلب إلى الشاب أن يكف عن هذا العبث وألا يكتب اليها بعد اليوم، وتأمره أن يذهب إلى مكان فى الحديقة ليرى رسائله فيأخذها . ويفعل بها ما يشاء ، وتعلن اليه أنها تحب زوجها ولا تستطيع أن تخونه ولا تستطيع أن تسمح لاحد بتتبعها أو الطمع فى شىء منها. يبكى الشاب ويتملق ويترضى فلا تسمع له ، وتلح فى أمرها فيأتمر ولكنه يطلب اليها أن تضرب له وعداً ليلقاها منفردة فتأبى عليه فيلح فتغلو فى الإباء ، فيعين هو الموعد وينبئها بانه ذاهب الى حيث يمزق الرسائل ولكنه سينتظرها فى ناحية من الحديقة ولن يبرح مكانه حتى يراها . ثم يمضى ... ويعود القوم جميعاً إلا « زامبو » فاذا عادوا أنبأهم صاحب القصر بموقف هذا الضيف الغريب . ذلك أن زوجه كانت تحتفظ بنفقاتها الخاصة فى درج من الادراج غير محكم الاغلاق ، وكانت لا تعد ما تلقى فى هذا الدرج من المال، ثم بدا لها فاخذت تحصيه فما هى الا أن تبينت أن هناك سارقا يختلس هذه الاموال شيئاً فشيئاً ، وقد بلغ المقدار المسروق فى أمد قصير عشرين الف فرنك . جزع الزوجان لذلك ولم يستطيعا أن يتهما احداً بعينه لانهما يثقان بخدم القصر جميعاً . وبينما صاحب القصر فى حيرة من أمره اذ دخل احد المصارف فى باريس فرأى

هنالك مسيو « زامبو » هـذا وعـلم أنه ماهر فى تتبع المجرمين واستكشافهم ، وأنهقد أدى إلي هذا المصرف خدمة عظيمة فرد اليه مقداراً من المال ضخما كان قد سرق منه ، فقص صاحبنا أمره على هـذا الرجل وسأله المعونة فى استكشاف السارق ، فقبل صاحبنا وأقبل إلى القصر على أن يكون ضيفا ، وعلى أن يظل أمره مكتوما ، وعلى أن تكون له الحرية المطلقة فى التجسس وتتبع من فى القصر جميعاً ، وعلى أن يكون اسمه (زامبو) وأن كان اسمه الصحيح (جندوان) . ولبث فى القصر ثمانية ايام يبحث ويحقق ، ثم أتم البحث والتحقيق ؛ وطاب إلى صاحب القصر مقابلة قصيرة ينبئه فيما بنتيجة بحثه فاراد صاحب القصر أن تكون هذه المقابلة القصيرة بمحضر من ضيفيه وابنه . وهو فى هذه القصة اذ يدخل (جندوان) . فيسأله عن نتيجة البحث فيظهر (جندوان) أسفه لوجود الضيفين والزوج ولكن « ريمون » يلح فى أن تكون هـذه المقابلة وما يقال فيها بمحضر من زوجه وضيفيه . فينبئه « جندوان » إذن بان السارق هو ابنه الشاب ، ويقص عليه تحقيقه وتتبعه ، ويثبت له بالبرهان القاطع أن السرقة محصورة فى اثنين هما اللذان يترددان فى اوقات خاصة الى غرفة زوجه : احدهما ابنه الشاب والآخر « مارى لويز » نزيلة القصر . ولـكن الشاب

يحب فتاة فى باريس وينفق عليها نفقات ضخمة لاتلائم مرتبه الشهرى وهو يحضر سباق الخيل ويخاطر فيه بمقادير ضخمة من المال واذن فهو السارق . يغضب الاب لهذا غضبا شديدا ويهين المحقق ويهم بإيذائه . ولكن البراهين قوية مقنعة . والرجل يريد أن يتثبت من براءة ابنه فيحاول أن يدعو ابنه وأن ينبئه النبأ . ثم يشعر بانه عاجز عن أن يفجأ ابنه بشىء كهذا ، وتشعر زوجه بمثل ذلك ، ويشعر « ريشار » نفس هذا الشعور ، وتتطوع « مارى لويز » بالبحث عنه وإنبائه بالامر . فتخرج وتعود فتنبىء القوم بأنها لم تجد « فرنان » فى الحديقة ، ولكنها رأت غرفته مضاءة . فيهم أبوه بأن يدعوه ، ولكن الفتى يقبل فى الوقت نفسه . وهنا موقف من أبدع مواقف القصة وأشدها إيلاما . لا يكاد الشباب يدخل حتى يبتدره المحقق فينبئه بانه مرسل من قبل النيابة ليحقق فى أمر سرقة وقعت فى القصر ، وأنه يتهم فى هذه السرقة صاحب المائدة . فيبرىء الشاب صاحب المائدة .

— واذن فانا أتهم فلانة الخادم !فيبرئها الشاب

- واذن فانا اتهم عشيقتك الباريسية فلانة ! فيغضب الشاب ويبرىء صاحبته .

ـ واذن فانت السارق! فيضطرب الشاب وما زال المحقق يلح عليه حتى يحمله على الاعتراف ، ويحمله على أن يدفع اليه آخر مقدار سرقه وهو ٤٥٠ فرنك من اوراق (البنكنوت) وقد وضع عليها علامات خاصة

ثبت اذن أن الشاب مجرم. فاما أبوه فذاهل، واما الاخرون فوجلون . ثم يأمر الاب ابنه أن ينتظره فى غرفته ، ويطالب إلى الآخرين أن ينصرفوا .

* * *

فاذا كان الفصل الثانى رأيت الضيفين فى غرفة نومهما قد عبث بهما الحب عبثاً شديداً . كل يشتهى صاحبه ولكن « ريشار » محزون لما رأى وسمع ، مشفق على صديقه من هذه النكبة التى أصابته فى ابنه ، فتحاول « مارى لويز » أن تصرفه عن هذا كله إلى الحب ولذاته ، فينصرف ولكن قليلا ... ثم يأخذ فى تجريد زوجه من ثيابها فيلاحظ أنها استخرجت فى سرعة محفظة صغيرة كانت تخفيها فى صدرها فألقتها فى درج ، وأغلقت الدرج وأخفت مفتاحه ، فيلفته ذلك ولكنه يستمر فى تجريدها من ثيابها . فيرى أن هذه الثياب فاخرة وأنها أغلى ثمنا وأعظم قيمة من أن تسمح حالتها المالية باقتنائها فيشتد شكه وارتيابه، ولكنه يخفى ذلك على

زوجه . ثم يريد أن يفتح هذا الدرج الذى أغلقته ، وأن يصطنع في ذلك سكينا صغيراً ليرى أحقاً ما كان يقول المحقق من أن الشاب كان يصطنع السكين لفتح الادراج . فتحاول زوجه منعه من ذلك، وكلما اشتدت محاولتها اشتد إصراره ولكن فى مزاح ودعابة . ثم يتأتي له فتح الدرج فيرى فيه ثيابا أنخر وأغلى مما رأى، فيبالغ فى إظهار الاعجاب بامرأته وقدرتها على الاقتصاد واشتراء الاشياء الفاخرة بالثمن القليل ، فتسرف زوجه فى ذكر هذا ومهارتها فيه ، ولكن الشك يقوى فى نفس الرجل . وإنه ليفتش وإنها لو جلة اذ يعثر بالمحفظة ... وكانت قد أنبأته بان هذه المحفظة تحتوى على صورته الفوتوغرافية ، فيريد أن ينظر الى مافيها ، فتغضب وتأبي وتنذر ، ولكنه يبحث فى المحفظة فيرى فيها ٦٠٠ فرنك فيدهش دهشا عظيما ، لانه يعلم أن مكانه من الثروة لايسمح لزوجه بأن تقتصد مثل هذا المقدار . يسأل زوجه فتتعثر وتغضب ولكنه يلح فى السؤال ويغضب هو أيضاً . وتحاول زوجه أن تصرفه من هذا فيأبى ، فلا تزداد هى إلا تعثرا وتكلفاً للمعاذير ، ولايزداد هو الاغضباً وإلحاحا. وما يزال بزوجه منذراً مرة، متلطفاً مرة أخرى ، ثائراً مرة ثالثة حتى تعترف بأنها السارقة : هنا لك يخرج الرجل عن طوره ولا يصبح الا ناراً من الغضب ، والا

شعوراً بالواجب ، فينصرف عن زوجه ويريد أن يسرع الى صديقه لينبئه الخبر . ولكن زوجه تعترضه ثائرة مرة ، ذليلة مرة أخرى ، تترضاه حينا ، وتطمعه حيناً آخر ، وتنذره مرة أخرى ، ثم تبكى وتجثو وتقدم جسمها وتتملق فى الرجل شعوره للواجب. فتعرض عليه ألا يقول شيئاً ، وأن يجتهد فى رد هذا المقدار المسروق قليلا قليلا . وما تزال به تتماقه وتترضاه وتثير فى نفسه عواطف الحب والشهوة واللذة حتى يميل اليها ويهم بها وقد كاد ينسى كل شيء . وإنه لفى شهوته ولذته اذ يخطر له خاطر فيسألها : كيف اعترف الشاب بأنه سارق؟ فتجيبه بأنه انما اعترف ليخلصها.

ـ وكيف ضحى الشاب بنفسه فى سبيل ذلك؟

ـ لانه يتتبعنى بحبه !

هنا يثور الرجل ثورة أخرى ، ولكنها أشد من الاولى حدة وعنفا . كان يرى زوجه سارقة فكان يزدريها ، وكان يشعر بأنه قد أهين فى شرفه الخلقى فكان يريد أن يغسل هذه الاهانة إما بالاعتراف وإما برد المقدار المسروق . أما الآن فهناك شاب يحب زوجه ويضحى بنفسه فى سبيلها ، وهذه الزوج هى التى كلفته هذه التضحية ، ولا بد لهذه التضحية من ثمن ! . . . فهى تخونه اذن ... لاحد لهذه الثورة...ولكن المرأة ثائرة ايضا لانها تعترف

بالسرقة ، ولكنها تشعر بأنها بريئة من خيانة زوجها ، وبأن زوجها يهينها أشنع إهانة حين يتهم حبها له وكلفها به . يقف الزوجان كلاهما من صاحبه موقفا ملؤه الاسى ، الزوج مزدرلزوجه ولكن الغيرة تحرقه فهو يريد أن ينتقم لنفسه . وامرأته مشغوفة به بريئة من الخيانة شاعرة بذلة السرقة ولكنها ممتلئة بعزة الامانة فى الحب. ولم سرقت ؟ انما سرقت لتعجب زوجها ، لتلبس له أجمل الثياب وأفخرها ، لتتزين له بأبدع الزينة. سرقت لانها تحبه وهو الآن يتهمها بالخيانة!... يحاول الزوج أن يخرج ليقص الامر على صاحبه ولكنها تعترضه مرة أخرى وتنذره بأنه إن يخرج فهى قاتلة نفسها ، فلا يحفل بذلك أول الأمر ، ولكنه يحب زوجه ويخشى الفضيحة ، فيعود ويقضيان الليل ساهرين هذا السهر المؤلم ! ...

* * *

فاذا كان الفصل الثالث رأيت هـذين الزوجين فى مكتبة القصر ينتظران صاحبه ، وقد أزمع « ريشار » أن يقص عليه كل شيء ، وما زال زوجه تتعطفه وتترضاه ... ثم تدخل « ايزابيل » وجلة فتنبئهما بأن زوجها قد اتخذ قراراً شديد الخطر ، فهو يريد أن ينفى ابنه الى البرازيل ، وتلح عليهما فى أن يحملا زوجها على أن يغير

هذا القرار . أما « ريشار » فلا يجيب، وكأن شيئاً من الشك أو قل من الجبن قد خامر نفسه ، فهو يرى خصمه سينفى . ثم لا يلبث هذا الشك والجبن أن يستحيلا إلى شجاعة ويقين ... فيؤثر الصمت ويقر صاحبه على ما فعل ، وتدهش إذ ذاك « ايزابيل » وتسأل « مارى لويز » عن رأيها ، فلا ترى شيئاً لأنها وجلة مضطربة لا تدرى ماذا يريد زوجها أن يفعل . ثم يقدم صاحب القصر فينبىء صديقه بما اعتزم . أما « ريشار » فيظل على ما كان عليه من إقرار صاحبه وتأييده . وأما « مارى لويز » فتظل فى وجلها واضطرابها . وأما « ايزابيل » فلا تزال تستعطف وتترضى . وقد أصر الرجل على نفى ابنه ليجد فى هذا النفى ما يصلح من خلقه ويباعد بينه وبين فساد باريس . وقد اعتزم الرجل أن يسافر ابنه فى هذه اللحظة نفسها . فيدعوه وينبئه النبأ فيجزع الفتى جزعاً شديداً ، ويريد أن يستعطف أباه فلا يجد من أبيه عطفا ، فيتوب ويطلب العفو ؛ ولكن أباه قد مضى فى عزيمته . فيودع الفتى من حوله وينصرف ... ولكن « مارى لويز » قد شهدت هذا كله ... فيأخذها جزع ثم ضعف ، فما هى إلا أن تصيح بالحق وتعترف بأنها السارقة ، وبأن الفتى برىء وتطلب إلى الرجل أن يذهب فيرد ابنه عن السفر . يسرع الاب إلى ابنه ، ويطلب « ريشار » أن يخلو إلى زوجه . فاذا كان له ذلك

تحدث اليها فى عنف وغلظة فزعم لها أن قد وضح له الامر الآن، وأنه لا يشك فى أنها خانته ، وفى أنها تحب هذا الفتى ، وانها لولا هذا الحب لما اعترفت بالجريمة وقد كانت تلح عليه فى أن يخفيها ، فهى إذن سارقة وهى إذن خائنة . وهو انما لزم الصمت ليبلوها ويمتحنها فان كانت خائنة له حقا محبة للفتى حقا فستأبى سفره إلى البرازيل وستعترف بجريمتها وقد فعلت .. ولكن « مارى لويز » قد أفاقت من ضعفها واضطرابها وشعرت بما يشعر به الانسان الخير بعد أن يكون قد اعترف وطهر ضميره من الشر ، شعرت بذلك فعادت إلى الهدوء والطمأنينة ، وأخذت ترد إلى زوجها ثقته وطمأنينته ، فتنبئه بأنها سارقة ولكنها ليست خائنة ... وبأنها لم تعترف ضنا بحبيبها على النفى أو محاولة للقرب بينها وبينه ...وانما اعترفت لان الحق والواجب كلفاها هذا الاعتراف ، اعترفت لتنصف مظلوما لا لتستبقى حبيبا ، اعترفت لتأمن وخز الضمير وآية ذلك أنها مستعدة لان تنفى هى . أليست هى التى سرقت؟ أليس صاحب القصر قد جعل النفى جزاء لهذه السرقة ؟ هى مستعدة اذن لان تنفى ، وهى اذا نفيت كفرت عن سيئتها ، وباعدت بينها وبين هذا الشاب ، واتاحت لزوجها أن يكتسب المال المسروق، وأن يرده الى صاحبه ، وأتاحت لحبها أن ينتصر وأن يطهر بألم

النفى من إثم السرقة . هى اذن مستعدة للسفر وزوجها مستعد للسفر أيضاً . فقد اقتنع بأن زوجه لم تخنه ، وقد عفا عن جريمة السرقة وأخذ نفسه بالتفكير عن هذه السيئة لانه يحب زوجه، ولانه رجل شريف ، ولانه يشعر بأن جريمة زوجه واقعة عليه.. ألم تسرق لانها كانت تريد أن تعجبه ؟ فهو الذي قد كلفها هذه السرقة لانه خيل اليها أن للثياب الفاخرة وللزينة البديعة فى نفسه تأثيراً عظيما . سرقت لانه أرادها على أن تكون سارقة . ولو أنه أخذ زوجة بالجد وبين لها أنه لايحبها لثيابها وزينتها ، وانما يحبها لنفسها وأخلاقها لما سرقت . هو اذن شريكها فى الاثم فيجب أن يشاركها فى الجزاء .

ينبىء بهذا كله صاحبه ويطلب اليه أن يعفو عنه وعن زوجه، وأن ينفيهما الى البرازيل وينبئه بأن ليس عن هذا النفى منصرف، فلا يجد صاحبه مايقول . ولكن (ريشار) يريد أن يرى هذا الفتى قبل سفره ، فيدعو الشاب ويهم بان يتحدث اليه فى عنف. لانه أحب زوجه وتتبعها بعشقه ، ولكنه قد عفا عن زوجه واعتزم أن يشاركها فى التفكير عن السيئة . وهو واثق بامانة زوجه فما له لايعفو عن الغلام؟! بل ماله لايرقى الى منزلة أخرى من طيب القلب وصفاء الضمير ورحمة المعذبين ؟ إن هذا الشاب

يحب زوجه ويألم لهذا الحب ، وقد ضحى بنفسه في سبيله . وامرأته أمينة وفية . أفلا يحسن أن يرحم هذا الشاب ولو قليلا ؟ اذن فلم يعنف (ريشار) هذا الشاب ، بل لن يبخل عليه بلحظة يقضيها مع زوجه ويتاح له فيها أن يودع من يحب ، فيترك هذا الشاب ويطلب الى زوجه أن تودعه . وهنا موقف مؤلم ، موقف شاب يحب ولكنه يائس من حبه ، وموقف امرأة تحب زوجها ولكنها مدينة لهذا الشاب بما ضحى في سبيلها . وهي بعد تعطف عليه وترثي له من ألم الحب ، وهي تخشى عليه عواقب اليأس . فما تزال تترضاه وترفق به حتى يقسم لها بأنه لن يتعرض بعد سفرها لهذه العواقب السيئة التي يجرها اليأس . هي اذن مسافرة مع زوجها آمنة على حياة من أحبها قد اقترفت الاثم ولكنها محته بالاعتراف وستبالغ في محوه بالتكفير عنه . هي اذن سعيدة !!

* * *

أرجو أن يقرأ الرجال والنساء هذه القصة وأن يتفهموها ويحسنوا الاعتبار بما فيها من عبرة والانتفاع بما فيها من عظة .

البطولة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى برنستين »

L'ELEVATION
Par Heniy Bernstein

كتبت هذه القصة ومثلت فى فرنسا أيام كان الفرنسيون كلهم أبطالا ولذلك سميتها البطولة ، وإن كان هذا الاسم لا يترجم عنوانها الصحيح . فعنوانها « السمو » يقصد به الكاتب إلى سمو النفس الإنسانية ومجاوزتها طور الإنسان فيما ألف من حياته أيام السلم إلى مالم يألف من المعجزات فى التضحية وتقديم الاشخاص أنفسهم وأهواءهم وعواطفهم ومنافعهم وحياتهم قربانا للوطن المقدس حين يغير عليه العدو ويتعرض لغزو الفاتحين

كتبت هذه القصة ومثلت فى فرنسا أيام كان الفرنسيون كلهم أبطالا ، أبطال الحرب فى الميدان يحتملون المكروه ويتجشمون الهول الذى لم تسمع بمثله الانسانية وهم باسمون وهم مغتبطون وهم سعداء بالتضحية . وأيام كانوا أبطال السلم ينزلون عن أموالهم لمعونة الجيش ، وينزلون عن صحتهم وقواهم ولذاتهم لعلاج الجرحى من الجيش ، وأيام كانوا أبطال السلم يلقون من ضروب الحرمان مالم يألفوا فيطوون أحشاءهم على الجوع .

لا يطعمون فى يومهم وليلتهم إلا ما يقيم الأود، وأيام كانوا هادئين منصرفين إلى اللهو واللعب والحرب من حولهم ضروس تتناولهم وتتناول أعز الناس عليهم فلا يغير ذلك من فرحهم واغتباطهم بالحياة، وأيام كانت تزورهم طيارات العدو تحمل إليهم الموت فى أبشع صوره وأقبح مظاهره فيلقون هذا الموت غير حافلين به ولا مكترثين له وينحدرون إلى أنفاق البيوت ينصرفون فيها إلى لعب النرد والشطرنج والورق وإلى الغناء وألوان العبث حتى تمر العاصفة . وأيام كانت المدافع الضخمة تنالهم بقنابلها وهم فى مدنهم يعملون فلا ينصرفون عن عمل ولا يلجئون إلى مأمن، وإنما يمضى الاستاذ فى درسه والممثل فى تمثيله والموسيقى فى إيقاعه، والعامل فى عمله . وأيام كانت تكره الزوج على أن تحتمل أشد أنواع الفراق تمزيقا للقلب وتفريقا للنفس ، فلا ينال ذلك من قوتها ولا من عفتها ولا أمانتها للزوج الغائب ، وإنما يصرفها هذا كله إلى تدبير أمورها والقيام بعمل الرجل وعمل المرأة فى وقت واحد .

كتبت هذه القصة ومثلت فى فرنسا أيام كان الفرنسيون كلهم أبطالا ولذلك لا تجد فيهم إلا أبطالا . كاتبها نال حظه من من البطولة فأدى واجبه الوطنى وعرف آلام الحرب وأهوالها وأهدى هذه القصة إلى رفاقه فى الميدان. وكان قبل الحرب موضع

الشك من مواطنيه يتهمون إخلاصه وصدق وطنيته ويكرهونه الكره الشديد ويغلقون فى وجهه ملاعبهم الكبرى . وممثلوها أبطال أدوا واجبهم فى الحرب فتألموا وفقد بعضهم الحياة ، وأدوا واجبهم فى السلم فسلوا الناس وعزوهم بآيات الفن . وأدوا واجبهم فى الميدان فمثلوا للجند تحت القنابل والرصاص آثار « موليير » و « راسين » وغيرهما من الكتاب والشعراء . وسامعو هذه القصة أبطال كانوا يختلفون إلى ملاعب التمثيل فيتعامون ويضحكون ويبكون ويلهون ، وإن فى قلب كل واحد منهم للوعة ليس فوقها لوعة وحسرة ليس دونها حسرة . كانوا كذلك فى ليلة من الليالى وهم فى لهوهم وإذا نذير الخطر ينبىء الناس بان الطيارات الالمانية قد أقبلت إلى باريس تحمل الموت فتقدم « سايفان » إلى جمهور النظارة وقال : «أيها السادة سيستمر التمثيل ولمن أشفق على حياته أن يلجأ إلى النفق » . فلم يلجأ أحد إلى النفق لان أحداً لم يكن يشفق على حياته ! فى هذا الوقت كتبت هذه القصة ومثلت هذه القصة فلم ينكرها أحد ، ولم يدهش لها أحد ، وانما رأى الناس فيها أنفسهم فأعجبوا بها واطمأنوا اليها .

ولقد تشك فى أنها صادقة لان عهدك بوقتها بعيد ؛ ولان الحرب قد وضعت أوزارها ، ولان الابطال قد أصبحوا ناسا من الناس.

نعم قد تشك فى أنها صادقة ، ولكني عشت هذا العصر فى فرنسا وخالطت الفرنسيين وبلوت سرهم وجهرهم،وأقسم ما جاوزت هذه القصة حد الصدق ،وأحسب أنها لم تبلغ ما كان ينبغى لهؤلاء الناس يومئذ .

هى إذن قصة من قصص الحرب . صادقة ولكنها عرضة للشك اذا انقضت الحرب . تمثل الواقع ولكنها تحث الناس على المثل الأعلى . هى خليقة بالخلود ولكن الخلود لم يقدر لها لان النسيان سريع إلى ذاكرة الجماعات ؛ وهى فى الوقت نفسه لاتخالف مذهب الكاتب الذى بسطته لك فى الاسبوع الماضى . فهى تستخلص الفضيلة من الرذيلة . وهى ما تزال بالنفس الانسانية تفتنها وتمتحنها بل تعصرها عصراً حتى تستخرج منها خلاصتها الصافية النقية ، وهى الخير والبر والوفاء والبراءة من الدنيات .

***

« اديت كوردلييه » امرأة فى ريعان شبابها تكاد تبتدىء العقد الثالث من حياتها ، قوية المزاج ، حادة العاطفة ، خصبة الحس والشعور ، كلها حياة ، وكلها شوق إلى الاستمتاع بالحياة ولكنها شديدة الحياء ، يكاد يكون حياؤها خوفا فهى قليلة الكلام، ضعيفة الصوت، مترددة اذا تكلمت، مترددة اذا أرادت أن تقدم على

شيء. بل قل إنها أشد خوفا وحياء من أن تقدم على شيء . هي اذن نار ملتهبة ولكنها لا تحرق الا نفسها ، كان أبوها استاذاً من أكبر أساتذة الطب وأنبغهم ، له شهوته في علمه وله فلسفته وله إلحاده . وكانت ابنته ملحدة مثله . وكان له تلاميذ نبغ منهم الكثير وامتاز منهم بنوع خاص (اندريه كوردلييه) فاحبه الاستاذ وشغف به وزوجه ابنته قبل أن يموت . ولكن (اندريه كوردلييه) هذا على نبوغه وتفوقه في التشريح متقدم في السن قد بلغ الخمسين أو كاد ، فالفرق اذن بينه وبين زوجه عظيم . وهو يحب زوجه ويجلها ولكنها تجله ولا تحبه . تجله لعلمه وخلقه ومكانته من ابيها . ولا تحبه لانه أشد تقدما في السن وأكثر هدوءاً وانصرافا الى علمه من أن يلائم شبابها الغض ويرضي عواطفها المتأججة . ونحن في هذه الايام العصيبة التي عاشتها أوروبا سنة ١٩١٤ متعرضة لخطر الحرب . فالناس جميعاً قلقون وجلون يخشون النازلة ويتوقعونها

* * *

فاذا كان الفصل الاول من القصة رأيت هذه المرأة الشابة أمام التليفون تتلقى نبأ من الانباء وهي جزعة حينا مطمئنة حينا آخر . فاذا فرغت من حديثها عرفت من تحدثها الى الخادم انها مطمئنة لان محدثها في التليفون قد أنبأها بأن الحرب قد تتقى ،

وبأن مؤتمر لوندره قد يلتئم ثم تدخل عليها صديقة لها جزعة لان زوجها ضابط فى الجيش ولان الامر قد صدر الى فرق الجيش أن تستعد للسفر فتهون عليها الخطب . وتدخل أم زوجها فاذا تحدثت اليها (اديت) بما سمعت دهشت العجوز لانها لم تكن تعهد هذه المرأة الشابة قوية جريئة تتحدث الى الناس فى التليفون. ولانها لاتفهم إشفاق هذه المرأة الشابة من الحرب فزوجها قد كاد يبلغ الخمسين وهو طبيب فلن يتعرض اذن لاهوال الحرب. ولن يترك باريس . وهن كذلك اذ يدخل فتى كاد يجاوز الثلاثين اسمه « لويس دى جنوا » فينبئهن بان الامر قد صدر بالتعبئة العامة وأنه قرأ هذا الامر معلقا على الجدران . وأنه مسافر الليلة ليلحق بفرقته فى (فردان). فلا تسل عن جزع النسوة وهلعهن . أما الصديقة فتنصرف مسرعة لترى زوجها فى (فرسايل) قبل أن يسافر . وأما العجوز فتنصرف مسرعة ايضاً لانها تشرف على مدرسة للبنات وتريد أن ترى تلميذاتها واساتذتها فى هذا الوقت العصيب. وتبقى (اديت) (ولويس) فاذا بينهما حب !!! واذا هذا الجزع التى كانت تظهره المرأة الشابة لامصدر له الا حبها لهذا الفتى . فهى تشفق عليه . يحاول الفتى أن يهون الامر على صاحبته فلا تسمع له وتلح فى أن يقبل مايعرضه عليه عمه وهو

أحد القواد من أن يكون ضابطا فى أركان الحرب . ولـكن الفتى مشوق الى الحرب شاعر بواجبه الوطني حريص على أن يثأر لفرنسا . وهوضابط فى إحدي فرق الخيالة (بفردان) فيأبى أن يقبل مايعرض عليه ويحرص الحرص كله على أن يقتتل . تلح عليه صاحبته» باكية ضارعة فلا يسمع لها . ثم تطلب اليهأن يهبها ساعة من وقته قبل سفره فيأبي لأن وقته أضيق من ذلك . هنا تجزع المرأة فتجثو ضارعة مستعطفة ويدهش الفتى لانه لم يكن يظن بصاحبته مثل هذا الحب ولانه كان عابثاً فى حبه . يؤثرهذا كله فى نفس الفتي فيرفق بصاحبته ويعطف عليها . وهما كذلك اذ يسمعان اصواتا فيفزعان وتحاول المرأة أن تصلح من أمرها فلا توفق بل تصيب يدها المضطربة نظام شعرها فتفسده ، واذا شعرها قد استرسل على كتفيها فتسرع الى غرفتها، ويظل الفتى وحده حتى يدخل الزوج ومعه صديق له طبيب شيخ يصحبه ابن له فى التاسعة من عمره قد تطوع فى الجيش وأقبل يودع (اديت) قبل سفره وهو سعيد بهذا التطوع يبسم للحرب وأهوالها ويغتبط لانه سيلقى اخاه غداً وأخوه فى الجيش ! ! ا- تقبل (اديت) فما أسرع مايلاحظ زوجها وصاحبه أنها مضطربة هلعة ولـكن تفسير ذلك يسير . فليس إعلان الحرب بالشىء الذى

يهون احتماله. يودعها صاحبها فى أدب واحتشام وينصرف. ولكن عليها اضطراباً ظاهراً ماكان ليخفى على أحد لولا أن الناس فى شغل باعلان الحرب . ثم يودعها الغلام ويريد ان ينصرف فترغب المرأة الى الله فى حفظ الشباب الفرنسى . هنا يسخر صديقهما الطبيب من هذه المرأة التى أبوها ملحد وزوجها ملحد وهى ملحدة ولكن هذا الإلحاد الكثير لم يمنعها من أن تذكر الله حين عصفت العاصفة . ذلك أن هذا الطبيب الشيخ مؤمن واثق بالله واثق بفظاعة الحرب وبأنه سيفقد ولديه جميعاً ولكنه راض مطمئن متخذ من ثقته بالله وحبه للوطن وسيلة الى العزاء عن هذا الخطب الذى سينزل به بعد حين .

انصرف « لويس » وترك عشيقته جزعة مدلهة وانصرف الغلام وترك أباه راضيا مطمئناً . ولكن تأثر المرأة أشد من قوتها فما أسرع مايصيبها الإغماء ويسرع اليها الطبيبان فاذا أفاقت انصرف الشيخ وترك الزوجين . فاذا خلا أحدهما إلى صاحبه أخذ « اندريه » يتحدث إلى زوجه فى أمر الحرب ويلقى تبعتها على امبراطور المانيا وينبئها بانه قد وقف نفسه على علاج مرضى الجيش وبانها ستساعده فى ذلك ، وهو يتحدث اليها ولكنها لا تسمع له . ثم يكاد يعاودها الاغماء فيشتد إشفاق الرجل عليها ورفقه بها ويريد أن يقبلها فتنفر

منه وتدفعه دفعاً شديداً . هنالك يتنبه الاستاذ ويشك ، فيسأل زوجه فى رفق : أتجزعين إشفاقا على أحد ؟ نعم ! أنت إذن تحبين؟ نعم ! ومن تحبين ؟ « لويس دى جنوا » ! ومتى كان عهدك بهذا الحب ؟ منذ فبراير ...

لا أصف لك غضب الاستاذ ولا أعلله ، فمن اليسير عليك أن تقدره وتفهمه . ولكن الحرب قد أعلنت . وهذه المرأة ابنة استاذه وهو يحبها حبا شديداً وعاشقها جندى فى الجيش قد يتعرض للموت غداً أو بعد غد . وللاستاذ بعد هذا كله كرامة يريد أن يحتفظ بها وشرف يريد أن يذود عنه . كل هذه الخواطر تجيش فى نفس الاستاذ وتملك عليه أمره . فما أسرع ما يكظم غيظه ويقف موقف المحب الكريم الذي يشعر بواجبه الوطني فيعرض على زوجه فى هدوء أن يظلا معا كصاحبين مادامت الحرب . فاذا وضعت الحرب أوزارها فلها حريتها ولها أن تلحق بصاحبها...

* * *

فاذا كان الفصل الثانى بعد عشرة أشهر لاعلان الحرب رأيت فى الغرفة نفسها نساء أقبلن يزرن (أديت) وهن مختلفات . أما أحداهن فمطلقة لا تأسى على أحد ولا تحفل باحد وانما تحفل بلذاتها. وأما الاخرى فتحب زوجها ولكنها لا تخشى عليه شيئا لانه يدير

أحد المعامل الحربية . وأما الثالثة فامرأة متقدمة فى السن مشفقة كل الإشفاق على ابنها لان أخباره قد انقطعت منذ أيام فهى تحس لذع الاشفاق وتحسد النساء الآمنات وتمقت منهن انصرافهن إلى اللذات . وأما الرابعة فهى الصديقة التى رأيتها فى الفصل الاول مشفقة ولكنها مطمئنة لانها قد تناولت من زوجها أربع رسائل وهو فى (الدردنيل) فهى آمنة ولكنها تخشى المستقبل ... لذيذ ما يدور بين هؤلاء الناس من الحوار الذى يمثل هذه العواطف المختلفة. ثم تقبل (اديت) فهى نحيفة جداً ، شاحبة جداً ، لانها منذ أعلنت الحرب قد انصرفت إلى العناية بتمريض الجرحى فهى لا تستريح ولا تبقى على نفسها حتى أشفق عليها الاصدقاء وزوجها بنوع خاص . ثم ينصرف صاحباتها ويقبل الزوج فيهنئها بأن صديقهما الطبيب الشيخ قد فقد ولديه جميعاً فلم يجزع ولم يقنط وإنما حمد الله لانه حفظ ولديه أكثر مما كان ينتظر . ويتحدث فى أمر صحتها ويلح عليها فى أن تستريح . وهما كذلك اذ تصل اليهما رسالة برقية فلا تكاد تقرأ (أديت) حتى يملكها جزع ليس فوقه جزع وحتى تعلن إلى زوجها أنها مسافرة ومسافرة هذا المساء . ذلك أن هذه الرسالة البرقية تنبئها بان صاحبها جريح وأنه يمرض فى إحدى المستشفيات العسكرية بمدينة (رين) فى اقليم (بريطانيا) . تلح

فى السفر ويحذرها زوجها عاقبة ذلك لانها إن فعلت قطعت صلة الزوجية قبل أن تنتهى الحرب، وهو مشفق عليها من هذا ، وهو لا يقبل بوجه من الوجوه أن يعرف الناس أن زوجه قد سافرت وحدها لترى جريحا فسيظهر مكنون أمرها للناس ويصبح الطلاق أمراً لا بد منه . ولكن (أديت) لا تحفل بشىء من هذا فهى تريد أن تسافر ولا بد من أن تسافر . وهى الآن تمقت زوجها وتزدريه وتتهمه باشنع الصفات . تتهمه بالغيرة وبان هذه الغيرة قد أنسته ما يجب للابطال المجاهدين . وتتهمه بالنفاق وبأن هذا النفاق يحمله على أن يتمني موت عاشقها . وتتهمه بالخيانة وبأن هذه الخيانة تحبب اليه أن يموت جنود فرنسا ليستبقى هو امرأته أسيرة فى بيته . يغضب الرجل غضباً شديداً لانه من هذا كله برىء . وتقبل أمه وتنصرف زوجه لتحتجز لها مكانا فى قطار المساء . فاذا خلا الابن إلى أمه فهناك موقف من أجمل المواقف فيه ضعف العاشق وقوة الوطني . وفيه رقة المحب وغلظة الشاعر بالواجب . ذلك أن هذا الاستاذ قد علم من أمر عدوه ما كان يجهل . علم أن هذا العدو لم يكن يحب (أديت) حقاً وانما كان يخدعها ويعبث بها عابثاً . وكانت له صاحبة أخرى فاجرة يلهو معها ويدخن معها الافيون . فلما سافر إلى الميدان أهملها فيئست وحنقت واقبلت إلى الاستاذ فعرضت

عليه رسائل امرأته إلى هذا الفتى وأنبأته بأن هذا الفتى كان يتخذ « اديت » موضوعا لعبثه ولهوه . فاشترى الاستاذ منها هذه الرسائل ضنا بكرامة امرأته ، وهو يحتفظ بها ، وهو اذا مانع فى سفر امرأته فمصدر هذه الممانعة ليس الغيرة وإنما هو يحتقر هذا الفتى ويضن بزوجه على العبث وسوء الحال ، ولا سيما وقد ائتمنه أبوها عليها قبل أن يموت فلا يريد أن يخون الامانة . وهو معتزم أن ينبيء زوجه بحقيقة الأمر ويرد إليها رسائلها التي لم يقرأ منها رسالة واحدة . ترثى له أمه وتعطف عليه وتنصح له فى إشفاق ولطف بأن يخلى بين هذه المرأة وبين ما تريد فهى خائنة آثمة لا تستحق عطفا ولا حبا . ثم تقدم « اديت » وتستخفى العجوز . فاذا « اديت » قد تغيرت وإذا هى ليست مغضبة ولا محنقة وإذا هى تعتذر إلى زوجها من تلك الالفاظ القاسية المنكرة وتلجأ إلى قلبه الكبير الرقيق فتسأله أن يعفو عنها وأن يتركها تسافر لانها تحب صاحبها حقاً ولانها لاتستطيع أن تعيش بدونه ولان صاحبها هذا مهما تكن سيرته قبل الحرب فقد طهرته هذه الحرب وسمت به إلى منزلة الابطال . ألست ترى أنه لما استيقن أن الحاجة إلى الخيالة قليلة فى هذه الحرب تطوع فى فرق المشاة فاحسن البلاء وتجشم الاهوال

واستحق أوسمة الدولة والقواد غير مرة ، وهو الآن جريح ولعله يموت ولعله قد مات . لا بد من أن تسافر فهى تحب صاحبها وتعجب به وقد اعتزمت ألا تحيا بعده ، وهى قد حاولت أن تحب زوجها فلم تستطع ، فهى تجل زوجها وتكبره ولكنها فى حاجة إلى الحب لتحيا، وقد أحبت هذا الفتي واحبها هذا الفتى . فلا بد من أن تسافر و. تسافر ولكنها تريد أن يعفو عنها زوجها .

يتأثر الزوج بهذا كله فيترك لزوجه حريتها ويودعها وتنصرف ولم يتحدث إليها من أمر صاحبها بشىء . ثم تقبل أمه فيدهشها ما تسمع ولكن الحرب قائمة وهذه الحرب قد طهرت نفوسا كثيرة وسمت بناس كثيرين إلى حيث الخير والبر والوفاء .أفلا يمكن أن يكون هذا الفتى من هؤلاء الناس ؟ أفلا يمكن أن يكون عبثه قد استحال إلى حب صحيح ؟ واذن فبأى حق يستطيع هو أن يعترض هذا الحب ؟ وبأى حق يستطيع هو أن يفسد رأى « أديت » فيمن تحب ؟ أليس الواجب الخلقى والواجب الوطنى يقضيان عليه أن يؤثر الصمت وأن يرد إلى هذه المرأة حريتها لتسعد ولتسعد من هو خليق بهذه السعادة ؟ نعم . إنه يألم وإن ألمه لشديد ولكن الناس جميعاً يألمون فى هذه الأيام والناس جميعاً يضحون فى هذه الايام . فليألم كغيره من الناس . .

***

فاذا كان الفصل الثالث رأيت «اديت» في المستشفى تتحدث إلى إحدى الممرضات وتتعرف منها أنباء صاحبها، وصاحبها طريح على السرير مستغرق في النوم. فتنبئها الممرضة بأن ليس على صاحبها بأس وأن الطبيب مطمئن، وهي تقص عليها من أمره حتى يستيقظ الفتى فتتركهما الممرضة. ولا أصف لك ما بينهما من حوار فيه أطهر الحب وأنقاه وأشده حرارة واتقادا، وفيه ذكر للزوج بالخير والمعروف والثناء الكثير. وفيه أن حب هذا الفتى قد تطور بعد الحرب وأنه لم يحب صاحبته حقا إلا في ليلة من ليالي الحرب منكره سمع فيها رفاقه يتحدثون ويذكرون زوجاتهم فخرج من الخندق وأمضى ليلة تحت السماء يفكر في صاحبته ويهيم بها. وفي هذه الليلة شعر بالحاجة إلى ان يتخذها له زوجا. من هذه الليلة أحبها ولم يكن أمره معها قبل ذلك إلا عبثا. فهو يسألها أن تنسى الماضي وأن تعتبر أول حبهما من هذه الليلة وهو يريد أن يدفع إليها ورقة فيها اعتراف، ثم يبدو له فيعدل عن هذا ويمزق الورقة. اذن فقد محي الماضي وابتدأ حبهما من جديد وهو حب نقي طاهر كله جد وكله وفاء

ولكن الفتى مشرف على الموت لان جرحه خطر ولان الطبيب وهو صديقه قد أنبأه بأنه ميت. وهو يحب هذه المرأة ولا

يريد أن تشقى ولا يريد أن تموت .

ـ أتحبينني حقاً ؟ أتريدين أن أموت سعيداً ؟ أتريدين أن أكون هادىء النفس مطمئن الضمير ؟

ـ وهل تشك فى ذلك ؟

ـ اذن فأقسمي بحياتي وحبنا على أنك لن تقتلي نفسك بعد موتي وعلى أنك ستحيين عاملة جادة .

تتردد المرأة تردداً شديداً لأنها تشعر بأنها لن تحتمل الحياة بعده وكانت قد أعدت السم الذى يدنيها إلى الموت اذا فقدت صاحبها . ولكن صاحبها يلح وهو يحتضر . فلا تجد المرأة بدأ من الاذعان فتقسم وتلقى بزجاجة السم فتحطمها ! ! !

اذن فستحيين ! إني بذلك لسعيد ولكن .. عودى إلى بيت زوجك ففيه السعادة وفيه الشرف وفيه الوفاء ! ! ! وتعده المرأة ذلك . وهما فى هذا الحديث اذ تقبل المرضة تدعوها إلى الخروج لأن موعد زيارتها قد انتهى ولأنها لا تستطيع أن تراه الا فى المساء .

تخرج المرأة وبها ما بها من حزن ويأس ومن قوة جلد .

ـ إلى المساء يا لويس . ! ! !

فيجيبها بخفض الرأس إلى المساء !!!

السر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « هنرى برنستين »

Le Secret

Par Henry Bernstein

قصد بها إلى الجدول لكن فيها لعباً كثيراً . أولها حلو يرضيك ويستصبيك ، بل ربما جاوز رضاك واستصباءك ، لان حظه من العبث عظيم ، ولأن فيه فكاهة قد تشق على المصرى الذى لا يأخذ من الهزل والعبث إلا بمقدار ... ولكن آخرها مر شديد المرارة ، مؤلم شديد الايلام !

هى ألذ شىء إذا قرأتها ، وأشد الاشياء إيلاما إذا فرغت من قراءتها . وهى صادقة فى جدها ولعبها ، ليس فيها للمبالغة حظ ولا للاسراف نصيب . وهى فوق هذا وذاك آية من آيات الوصف الخلقى الصادق ، فيها تحليل صورة من الصور النفسية الغريبة الشائعة . قد تنكر هذين الوصفين ، فليس الغريب شائعاً وليس الشائع غريباً ولكنهما مع ذلك وصفان صادقان . فهذه الصورة النفسية شائعة ، لأن ميل الانسان إلى الشر شديد ، وتورطه فيه أشد من ميله اليه . وهى غريبة لانا نعنى بآثارها وسيئاتها

اكثر مما نعنى بها نفسها . فنحن ننكر الشر ونمقته دون ان نعرف مصادره أو نتبين أسبابه الاولى . ومن هنا كانت هذه الصورة النفسية التى تمثلها هذه القصة شائعة مألوفة لانا نألم من آثارها فى كل يوم . غريبة نادرة لانا لا نحاول فهمها أو تحليلها ، أرأيت إلى هـذا الشخص من أصدقائك يحبـك الحب كله ويعطف عليك العطف الذى ليس فوقه عطف ، يعينك اذا احتجت إلى معونته ، ويأسى لك إذا نزلت بك النازلة ، ولـكنه يغضب إن رآك سعيداً ويحقد عليك إن جادت لك الحياة بشىء من المسرة ، يريد أن تسعد ولـكنه يكره أن تسعد . يريد أن تكون بمأمن من النوائب ولـكنه يحب أن يراك لعبة فى أيدى النوائب . يريد لك الخير ولـكنه يحب أن ينزل بك الشر ! لا تنكر هذه الصورة النفسية ولا تظنها غريبة . فتفسيرها سهل وفهمها يسير ... يحبك هذا الصديق ويعطف عليك . . . ولـكنه لا يحبك لنفسك وانما يحبك لنفسه ، لا يريد لك السعادة وانما يريد أن يشعر بانك تعس وبانه مشفق عليك راحم لك ، هو لا يحبك ولـكنه يحب نفسه ويحب أن يرى نفسه متصفة بالخير ، ويريد أن تـكون أنت وسيلة لاتصاف نفسه بالخير . وإنما تـكون أنت وسيلة لذلك إذا نالك الشقاء وأصابتك المحن فرثى لك ورأف بك وأحس أنه خير مشفق

رحيم بالبائسين . فاذا نالتك السعادة أو اخطأتك أحداث الدهر فلم تألم ولم تشق ولم تبعث فى نفسه عاطفة الاشفاق ولا الشعور بأنه خير منك وأحسن منك حالا لم تجد منه إلا حسداً وحقداً والا سعياً لانزال المكروه بك ليتمكن حينئذ من أن يرثي لك ويعطف عليك . أرأيت إلى هذا الصديق؟ تبين أصدقائك وحاول أن تدرس ما بينك وبينهم من صلة تنته إلى هذه النتيجه المؤلمة وهى أن الصداقة لا ينبغى أن تقاس بحزن الصديق لحزنك أو عطفه عليك فى أيام الشدة ، وإنما ينبغى أن تقاس بسرور الصديق لسرورك واغتباطه حين يراك سعيداً .

هذه الصورة النفسية التى وصفتها لك وصفاً موجزاً هى موضع هذه القصة ، وربما لم تكن وحدها موضع هذه القصة ، وربما كانت معها صورة نفسية أخرى ليست غريبة وهى صورة هذه النفس التى تحسد وتحقد لانها لا تستطيع أن تعيش فى غير حسد ولا حقد ... وربما كانت إحدى الصورتين مؤثرة فى الاخرى وربما لم تكن احداهما إلا مبالغة فى الأخرى .

ومهما يكن من شىء فأنت ترى أن هذه القصة التى أصفها بالعبث والدعابة والاغراق فى الفكاهة انما تتخذ هذا كله وسيلة

إلى هذا الجدالمر المؤلم الذى تنتهى إليه . وليس يتجاوز الكاتب فى هذه القصة قاعدته فى غيرها من القصص . فهو يمثل أشنع الرذائل وأقبحها وأبشع مظهر للطبيعة الانسانية حتى إذا بلغ بهذه الرذائل أقصى ما يمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر لك أن الانسان قد يكون شريراً وأن حياته قد تمتلىء بالآثام والمنكرات ، ولكن فى هذه الحياة أو فى هذه الطبيعة الانسانية قبساً من الخير، لا تكاد تختصم الرذائل وخصال الشر حتي يتولد هذا القبس من اختصامها . فما أسرع ما ينبعث منه ضوء هادىء مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام ، وإذا النفس الانسانية طاهرة قد فطرت على الطهر ، وخيرة قد بُرئت على الخير .

* * *

فإذا كان الفصل الأول من القصة رأيت زوجين يتحدثان فى غرفة من غرف دارهما . أما الرجل فاسمه « كونستان جانيلو » وهو مصور متواضع ، ولكنه غني ، وفيه شرف كثير ، وحب للخير عظيم . وهو يحب امرأته حباً جما لم تهدأ ثورته بعد وإن كان قد مضي عليه أكثر من عشر سنين . وأما المرأة فاسمها « جبرييل جانيلو » وهى بارعة الجمال خفيفة الروح متوقدة الذكاء ،

شديدة الحب لزوجها ليست أقل منه عشقاً ولا هياماً . وهما يتحدثان فى أمور مختلفة فيها الجد وفيها الهزل، فيها الاعمال المختلفة التي تشغل الناس فى الحياة وفيها دعابة العاشقين . يتحدثان فى ذلك ، وتفهم من اختلاف حديثهما أن لهما صديقة تسمى « هنرييت » وأن هذه الصديقة أرملة ، وأنها جميلة ، وأنها رقيقة العاطفة والحس ، وأن هذه الصديقة تحب رجلا يقال له « دنيس لى جين » وهو يحبها حباً شديداً ، ويريد أن يتزوجها ، ولكنه لا يعلن حبه ولا يظهر رغبته فى الزواج . والناس من حول هذين العاشقين ينكرون هذا الصمت ويتعجلون هذا الزواج ، وهما فى هذا الحديث إذ تدخل عليهما قريبة لهما عجوز يخيل إليك أنها مريضة أبدا وأنها موضوع طائفة مختلفة متناقضة من العلل ولكنها مع ذلك قوية ، هى أقرب الى الجنون منها الى العقل ، وهى غنية ، وهى تحب الزوجين ، واسمها « كلوتيلد سافاجاه » . تمكث لحظة تشكو فيها عللها وأسقامها ويسخر منها الزوج ثم تنصرف ، وتتحدث « جبرييل » إلى زوجها « كونستان » بأنها تنتظر «هنرييت» وبأنها لا تشك فى أن لهذه الزيارة صلة بالزواج الذى يتمناه الناس جميعا . وهما كذلك إذ تدخل « هنرييت » وينصرف « كونستان » . فاذا خلت الصديقتان أعلنت «هنرييت»

الى صاحبتها مبتهجة مسرورة أنها تلقت من عاشقها كتاباً ، وأن هذا العاشق يسألها فى هـذا الكتاب أن تستأذن له صـديقتها « جبرييل » بأنه يريد أن يتحدث إليها . ولا تشك المرأتان فى أن الزواج سيكون موضوع هذا الحديث ، وأن هذا الفتى يريد أن يخطب « هنرييت » إلى صـديقتها . واذن « فهنرييت » تبيح لصديقتها أن تقبل الخطبة ولكن فى اعتدال . فلا تبين لهذا الفتى أنها تحبه أو تكلف به ، وانما تكتفى بانبائه أنها ترى هـذا الزواج راضية عنه مغتبطة به . ذلك لأنها تريد ألا تنبيء صاحبها بحبها إياه قبل الزواج . تريد أن تحتفظ بحبها فى نفسها حتى اذا تم الزواج أعلنته إلى زوجها ، فكانت هذه هدية نفيسة محببة إلى هذا الزوج . وهى متعجلة تريد أن يتم هـذا الزواج ، واذن فهى لا تريد أن تنصرف ، وانما تريد أن تستخفى فى غرفة من الغرف لتعلم علم هذه الزيارة بعـد انقضائها . فاذا أقبل الفتى استخفت «هنرييت» ودخل هذا الفتى فاذا هو شديد الحياء يتعثر فى كلامه ولا يستطيع أن ينطق بجملة دون أن يضطرب ويتلجلج ويظهر فى مظهر مضحك، وهو مع ذلك رجل من رجال السياسة الدولية فمن الحق عليه أن يكون جريئاً قوياً ، ولكنه شديد الاضطراب إذا تحدث إلى النساء ولا سيما إلى « جبرييل » ، ولا سيما فى امر

صاحبته « هنرييت » يريد إذن أن يتحدث فيعييه الحديث. وتساعده « جبرييل » فتنبئه بأنه أقبل يخطب صاحبتها، وأنها تقبل هذه الخطبة وأن صاحبتها تقبلها أيضاً. ولكن الفتى يقفها عند هذا ... فهو لم يأت خاطبا، وهو حين يريد الخطبة فسيقدمها إلى « هنرييت » نفسها. وإنما جاء مستفسراً مستشيراً . . . ذلك أن « هنرييت » بارعة الجمال شديدة الفتنة. وهو رجل شديد الغيرة ولا سيما بالقياس إلى الماضي، فهو يحب الفتاة ويكلف بها كلفاً شديداً، ولكنه يفكر أحياناً في ماضيها، ويخشى أن يكون غيره قد أحبها أو حاول التلطف لها. فتنبئه « جبرييل » بأن هذه الفتاة طاهرة نقية الحياة لم تعرف في ماضيها شيئاً ينال عرضها بالأذى، بل أنها لم تحب زوجها الأول، وإنما شقيت بعشرته الشقاء كله. وإذن فليس له أن يخشى أو يخاف ... ولقد يكون من الحق أن ناسا أعجبوا بهذه الفتاة ومالوا إليها ولكن ما ذنبها إذا كانت لم تتأثر بهذا الاعجاب ولم يستخفها هذا الميل ؟ يسر الفتى ويعلن أنه سعيد، وأنه واثق الثقة كلها بما سمع، مقدم على الزواج في غير خوف ولا وجل، واقف حياته كلها وقوته كلها على أن يجعل زوجه سعيدة ناعمة بالحياة : وهو يتعجل الزواج كما تتعجله « هنرييت » فتنصح له « جبرييل » بأن يخرج ويعود.

بعد حين ليرى « هنرييت » . فيتحدث إليها بما يشاء . ينصرف الفتى وتقبل « هنرييت » : فتنبئها صاحبتها بهذا الحديث ، وتلح عليها فى أن تظهر هذا الفتى على سرها . ذلك أن لهذه الفتاة سراً كتمته وتريد ان تكتمه على الناس جميعاً . وليس يعلم به إلا ثلاثة : هى وصاحبتها ورجل آخر . هذا السر هو أن هذه الفتاة أحبت بعد موت زوجها رجلا يقال له «شارلى بو نتا» واتخذته لها خليلا سنة وبعض سنة . ثم انقطعت الصلة بينهما لأنها أحست او أنبئت بأنه يحب امرأة أخرى ، وبأنه لا يستطيع أن يتزوجها . كتمت هذا السر وتريد أن تكتمه ولكن صاحبتها تلح عليها فى أن تنبيء به عاشقها الجديد . تأبى الفتاة وتلح فى الاباء لشيئين : الأول أن إباحة هذا السر ثقيلة عليها مذلة لها ، وهى واثقة بأن عاشقها لن يعلم من أمره شيئاً فلم تعرض نفسها لهذا الخزى والذل ؟ . الثاني أنها ان أنبأته بهذا السر آلمته إيلاما شديداً فهى تعلم أنه شديد الغيرة ، وهو لا يستحق هذا الألم وقد يبلغ به الألم والغيرة أن ينصرف عن الزواج فتهدم بيدها سعادتها وسعادة هذا الفتى الذى لا تشك هى فى أنه سيكون سعيداً بعد الزواج.

أضف إلى ذلك أن « هنرييت » كانت حرة طليقة غير مدينة لأحد بحساب قليل أو كثير عن حياتها حين أحبت ذلك

الرجل . وهى حين أحبته لم تكن تعرف عاشقها الجديد، ولم تكن تفكر فى أنه سيلقاها . وهى قد نسيت هذا الحب نسيانًا تامًا، وإذن فليس من حقها أن تتحدث عن أمره بشىء ، وليس من حق أحد أن يسألها من أمره عن شىء . ولكن « جبرييل » تلح عليها فى أن تظهر العاشق على سرها لأنها تخشى أن يفترض العاشق شيئًا من الأشياء فاذا بحث وتبين له الأمر كانت نتيجة ذلك شرًا ونكرًا . بل هى لا تشك فى أن شيئًا من الريب يخالج نفس الفتى ، وإذن فالاعتراف خير ، لأنه يزيل هذا الريب ، وهى تثق بأن الفتى يحب « هنرييت » فاذا أظهرته « هنرييت » على غلطتها الوحيدة استطاع أن يتجاوز عنها واستقبل الحياة فى أمن وثقة . ولكن « هنرييت » تأبى وتصر على الاباء . وما يزال الحوار بينهما فى ذلك حتى تقتنع «هنرييت» ضعفا وقصوراً فتعلن أنها ستنبىء صاحبها بكل شىء . فاذا أقبل صاحبها بعد حين وأرادت أن تبدأه بالحديث ألح عليها فى أن تسمع له أولا . ثم أخذ يعتذر ويستغفر ويتوب من هذا الشك الذى خامر نفسه ، ويعلن إليها أنه يؤمن بطهارتها وبراءتها ، ويطلب إليها أن تغفر له هذا الشك وأن تنساه . وكلما حاولت أن تتكلم مضى هو فى الاعتذار والاستغفار والضراعة حتى تقتنع «هنرييت» بأنه يجهل

كل شيء ، فتعلن إليه قبول معذرته والعفو عنه ، وتبالغ فتعلن إليه حبها إياه وكلفها به ، ولا تسل عن سعادة الفتى وسعادة الفتاة ، فاذا يد كل منهما فى يد صاحبه وإذا هما يتعانقان، وأنهما لفى ذلك اذ يدخل صاحب البيت فيعلنان إليه خطبتهما وأنهما قد اعتزما الزواج ، ويعلنان ذلك إلي «جبرييل» وتنبئها « هنرييت » سراً أن صاحبها ما زال يجهل كل شيء . فلا تظهر « جبرييل » الرضا عن ذلك ولا الابتهاج به . فاذا انصرف العاشقان وخلا الزوجان تحدثا فى امر هذا العشق وهذا الزواج . فأظهر الرجل ابتهاجه بهما وتكلفت ذلك المرأة . ثم أنبأت زوجها بسر الفتاة . فيغضب لأنها أخفت عليه هذا السر ويدهش لأنه كان يؤمن بطهارة « هنرييت » . ثم يتحادثان فى خصومة بين الرجل وبين أخته قد بلغت أقصاها ولا تزيد « جبرييل » هذه الخصومة الا شدة واستعاراً .

* * *

فاذا كان الفصل الثانى كان الزواج قد تم بين العاشقين منذ حين ، ورأيتهما ورأيت الزوجين ورايت « شارلى بونتا » على شاطىء البحر فى ضيافة المرأة العجوز التى ذكرتها لك فى أول هذا المقال وهم يلعبون الورق . ولكنك تلاحظ شيئاً جديداً

وهو أن « هنرييت » قد بلغت من الحـدة وسوء الخلق حظا عظيما . فهى سيئة الحديث إلى زوجها تدفعه وتنفر منه ، وزوجها بذلك شقى سىء الحال . وهـذا الزوج قد أحب « شارلى بونتا » وأكثر التودد إليه وكلما رأت زوجه ذلك ازداد مقتها له وحنقها عليه . فاذا خلت بصاحبتها « جبرييل » أنبأتها بأنها قد وصلت إلى حال لا تطاق ، وأنها لن تستطيع بعد اليوم أن تحتمل محضر هـذا العاشق القديم ، وأنها ما كانت تنتظر أن تجتمع به فى يوم من الأيام . ثم طلبت إليها أن تحتال فى أن يسافر هـذا الرجل، فتأبى « جبرييل » لأن ذلك ليس فى طوقها وتلح « هنرييت » ثم تنذر بأنها مسافرة هى وزوجها إذا لم يسافر هذا الرجل . وما تزال فى إلحاحها حتى تقبل صاحبتها ولـكنها تطلب إليها أن تهدئ من حدتها وتتلطف فى الحديث إلى زوجها حتى لا يشك ولا يرتاب . وهما كـذلك اذ يدخل العاشقان القديم والجديد ، كأسعد ما يكون الصديقان ، فاذا رأت « هنرييت » ذلك ازدادت حدة إلى حدة وسخطا إلى سخط ، وزوجها لا يفترض شيئاً من ذلك . فيعرض هذا الزوج على صاحبه وعلى السـيدتين أن يلعبوا الشطرنج على أن يكون هو خصم « جبرييل » وعلى أن يكون « شارلى » خصم « هنرييت » وعلى أن يلعب كل

خصمين فى غرفة منفصلة حتى إذا انتصر أحدهما أسرع إلى إنباء الآخرين بانتصاره وكان فى ذلك شيء من التسلية وإضاعة الوقت. ولكن «هنرييت» تأبى ثم تغضب ثم ينفجر غضبها فتثور وتصيح وتدفع زوجها وتنصرف باكية إلى غرفتها ... أما الزوج فيأخذه دهش لا حد له لهذا التغير الخلق الذى أصاب زوجه منذ ايام. فتحاول « جبرييل » أن تلطف عليه ، ثم تنصح له بأن يتبع زوجه ويتلطف لها فيفعل. فإذا خلت إلى «شارلى بونتا» ألقت عليه تبعة هذا كله وطلبت إليه أن يسافر إبقاء على الحياة الزوجية بين هذين الزوجين ، فيأبى إباء شديداً ، ويعلن أن « هنرييت » قد ظلمته حين قطعت ما كان بينهما من صلة وأنه كان يحبها حباً لا حد له وأنه قد تألم لهذه القطيعة حتى أشرف على الموت وأنه حاول أن ينسى وأوشك ان ينسى ثم رآها الآن فهو لا يريد أن يتركها حتى يبلغ منها مأربه. ذلك لأن هذه المحنة قد غيرت خلقه وأفسدت نفسه فهو يريد أن يجزى الشر بالشر، وهو يعلم أن هذه المرأة ضعيفة وان سلطانه عليها لا يزال عظيما ، فهو يريد ان ينتقم لنفسه. تجزع لذلك « جبرييل » او تظهر الجزع له ، وتلح على الرجل فى ان يسافر ثم تضرع إليه فى ذلك فيأبى ، ويعود الزوج مغضباً ساخطاً لأن زوجه أساءت لقاءه. ثم ينصرف «شارلي»

ويبقى الزوج « وجبرييل » فتحاول « جبرييل » أن تهون عليه وتنصح له فى أن يغير سيرته مع « شارلى » وفى أن يكون أقل لطفاً وتودداً ، وأن يبالغ فى الرفق بامرأته والتحبب إليها ، وتنكر عليه أن عرض على امرأته أن تلاعب « شارلى » لعبة الشطرنج ، وتوهمه فى لطف أن من الممكن أن يكون هذا الرجل قد حاول التقرب إلى زوجه فأغضبها ذلك وأساء خلقها ولا سيما وهى تشعر أن زوجها يحب هذا الرجل ويفنى فيه . هنا يسوء ظن الزوج ثم يهتاج ويريد أن يلقى « شارلى » وينتقم منه لأنه اجترأ على أن يتقرب من زوجه ... ولكن « جبرييل » تصرفه عن ذلك وتلح عليه فى أن يخرج لنزهة طويلة وألا يعود إلا فى المساء ، وترجو أنه إذا عاد كان الأمر قد تغير ولو قليلا . ينصرف الزوج على مضض ويأتي « كونستان » قرين « جبرييل » . فاذا هو أيضاً ساخط كاره لهذا الجو السيء الذى يعيشون فيه ، شاعر بأن مصدر هذا كله انما هو وجود هذين العاشقين بازاء هذه المرأة المعذبة بينهما وبأن فى هذا كله شيئاً من الجناية على الفضيلة والأخلاق . وتقص عليه زوجه كل ما كان فلا يزيده ذلك الاسخطا ومقتاً . ثم ينظر فإذا « هنرييت » « وشارلى » يسعيان فى الحديقة .

فيدهشه ذاك ، ولـكن ينصرف وتقبل «هنريت» يتبعها «شارلى» فتشكو إلى « جبرييل » تتبع هـذا الرجل لها وإلحاحه عليها . وتحاولان معا أن يقنعا الرجل بالسفر ، فيرضى ولـكن على شرط واحـد هو أن يخلو دقائق « بهنريت » . تمـانع « هنريت » و « جبرييل » ولـكن الرجل يلح ويعلن أنه لن يسـافر الا اذا خلا « بهنريت » فترضى ! فاذا كانت هذه الخلوة أخذ السر يظهر قليلا قليلا واستحالت القصة إلى جد شديد المرارة بعد أن كانت فى أولها حلوة وبعد أن كانت فى وسطها مزيجاً من الحلو والمر . . . نعم ! يظهر السر قليلا قليلا لان « شارلى » هذا ليس من الشر والإثم بحيث كنا نظن ، وانما هو رجل خير تألم كثيراً وما كان ليعرض « لهنريت » أو لينغص عليها الحياة لولا أنه دعى لزيارة هذا البيت وألح عليه من دعاه إلحاحا شديداً وخيل إليه أن « هنريت » نفسها تريد أن تلقاه . فمن الذى دعاه إلى هذه الزيارة؟ هى صاحبة البيت أى قريبة « جبرييل » . وما كانت لتـدعوه وتلح عليه لولا أن « جبرييل » طلبت إليها ذلك وألحت فيـه . واذن « فجبرييل » هى التى أرادت هذا المـكروه وهى التى جمعت بين هذين العاشقين حول هذه المرأة الضعيفة، على أنها تعطف على هذه المرأة وتتخذها صديقة ليس بعدها صديقة . ثم يستطرد

« شارلى » فى الكلام فيسأل « هنريت » : لم قطعت ما كان بينهما من صلة ؟ فاذا أنبأته بأنها إنما فعلت ذلك لانه كان يخونها ولانه لم يكن يريد ان يتزوجها بلغ منه الدهش مبلغاً لم تشك « هنريت » معه فى أنه صادق مخلص وفى أن من أنبأها بخيانته وعدوله عن الزواج انما غشها وأراد بها شراً ، ولم ينبئها بذلك الا « جبرييل » . اذن فصديقتها العزيزة التى كانت تحميها وتحنو عليها حنو الام على طفلها قد خدعتها مرتين وعبثت بسعادتها مرتين، خدعتها حين أنبأتها بأن « شارلى » لايحبها ولا يريد أن يتزوجها وأن الخير فى أن تقطع مابينهما من صلة ، ثم خدعتها أو عبثت بسعادتها حين دعت « شارلى » لزيارة هذا البيت وهى تعلم أنه سيلقى «هنريت» وسيلقى زوجها وهى تعلم ضعف «هنريت» وغيرة زوجها . وهما فى الحديث اذ يقبل «دنيس لجين» زوج «هنريت» فلا يكاد يراهما مجتمعين حتى يفسد أمره وتظهر له حقائق بشعة فيطرد « شارلى » فى تحير وبلا أدب وبلا لطف. ثم تتتابع الحوادث سراعا ، يسأل زوجه: فيم كانت تتحدث إلى هذا الرجل ؟ فتحاول أن تخفى عليه حديثهما وتحاول أن تكذب ولكنها لاتفلح، فما أسرع مايفجؤها زوجها بأنها تخونه مع هذا الرجل وقد استنبط هذه الخيانة مما يرى ومما أوهمته إياه « جبرييل » . هنا تضطر «هنريت»

إلى أن تعترف بالحق فتنبىء زوجها بأنها لم تخنه قط ،وتقص عليه ما كان من أمرها قبل الزواج وما كان من حب هذا الرجل إياها. ولكن زوجها لا يصدق شيئاً . ثم تقبل « جبرييل » فتنكر كل شيء وتزعم للرجل أن امرأته تكذب عليه لتهدىء غيرته . ولكن الرجل قد علم كل شيء ووثق بان المرأتين كاذبتان وأنه فيهما مخدوع، ثم أصبح لا يفكر الا في شيء واحد ولا يشعر الا بشيء واحد وهو الحاجة إلى الانتقام لشرفه . يعدو ليلحق بخصمه ، فتحول « جبرييل » بينه وبين ذلك. ويقبل « كونستان ». فيسأله « دنيس » عما يعلم من أمر « هنرييت ». و « كونستان » رجل شريف صادق يريد أن ينبىء بالحق فتشير اليه زوجه : أن اكذب . ولكن « دنيس » قد فطن لكل شيء فلا يسمع لشيء . وانما يعدو في طلب الانتقام ويتبعه كونستان ليحول بين الخصمين . هنا موقف مؤلم ، موقف الاعتراف بالخزى والعار . فان « هنرييت » تهم صاحبتها بالغش والكذب وما دبرت لها من سوء ، فتحاول « جبرييل » أن تدفع عن نفسها ولكنها لا توفق . فتعترف ، وتريد هنرييت أن تقص الامر على « كونستان » ، فاذا « جبرييل » ضارعة ذليلة مستعطفة تخشى أن يعرف « كونستان » سوء ما انطوت عليه نفسها فيموت حسرة أو ينقضى ما بينهما من الحب

وهى بعدُ تحب زوجها وتكلف به . ولكن « هنرييت » تلح فى أنها ستنبىء بذلك « كونستان » فتنذرها « جبرييل » بأنها قاتلة نفسها اذا فعلت !

ـ وما يعنيني ؛ لقد أفسدت حياتى وأضعت سعادتى ! ولكن « جبرييل » مستعطفة ضارعة منذرة متخذة حياة « كونستان » وسيلة إلى استعطافها ، فترق « هنرييت » وتلين !

ـ لن أكون مثلك ! لن أقول شيئاً ! ...

* * *

فاذا كان الفصل الثالث رأيت « جبرييل » مكانها آخر الفصل الاول وقد هزتها هـذه الصدمة هزة عنيفة ففنيت فى التفكير والاسف واللوعة وأقبلت قريبتها فأنبأتها بما كان من شجار بين الخصمين وما كان من تدخل زوجها بينهما . ثم يقبل « كونستان » فيقص الامر فى تفصيل وينبىء بأنهما سيقتتلان . وهو فى ذلك اذ امرأته قد عجزت عن الصبر وضاقت نفسها بآثامها وجرائمها فتعترف له بكل شىء . كانت تريد أن تخفى عليه كل شيء ، وكانت قـد وثقت من صاحبتها بالكتمان ، ولكنها ضعفت عن احتمال هذه الجرائم وحدها وضاق ضميرها بكل هذا الخزي فلم تجد بداً من الاعتراف . اعترفت ! وياشر ما اعترفت به !!! اعترفت بأنها سيئة

الطبع ، مجرمة النفس ، تحب الشر للشر ، وتجد لذة ليس فوقها لذة حين تفرق بين المتحابين !!! وهى مع ذلك خيرة تحب زوجها وتعطف على البائسين وتحب هنرييت هذه التى أساءت إليها . تحب زوجها وتحب «هنرييت» ولكنها أساءت إلى زوجها ففرقت بينه وبين أخته ، وأساءت إلى « هنرييت » فأضاعت سعادتها مرتين . لا تستطيع أن تعيش عيشة خيرة خالصة ، بل يجب أن تجني الشر وأن تسىء إلى من تحب لتعطف بعد ذلك على من تحب !!

لا أصف لك يأس « كونستان » وسوء حالته ولا ما يكون بينه وبين زوجه من حوار . ولكن (دنيس) يقبل مودعا ، فيمسكه (كونستان) ويعترف له بكل شىء ويطلب منه العفو عن زوجه والعفو عنه هو ، لانه يحتمل إثم زوجه ويريد أن يعفو عنها لانه يحبها ولانها فى حاجة اليه . ثم ما يزال (بدنيس) حتى يمحو من نفسه كل ضغينة على (هنرييت) . وتقبل (هنرييت) فيكون بينها وبين زوجها حوار كله صفو وعفو ويتفق الزوجان على أن يسافرا وعلى أن يجتنبا الناس حينا . وهما يريدان أن يخرجا وإذا (بجبرييل) قد أقبلت فجثت أمام (هنرييت) مجددة استعطافها طالبة لعفو صاحبتها ، مقسمة أنها ما قصرت فى حب صاحبتها حينما كانت تسىء إليها هذه الإساءات ، وأنها إنما كانت تنظر

إلى صاحبتها كما تنظر الاخت إلى أختها أو الام إلى طفلها .
فتجيبها (هنرييت) بأنها ستفكر فيها دون غضب وأنها لن تذكر
من أعمالها إلا الخير . وتنصرف ويقبل (كونستان) فاذا زوجه
جاثية قد أفناها اليأس والندم . فينهضها ويكون بينهما حوار لذيذ :

ـ أتظن أن من اليسير أن تتغير الانفس وأن تستحيل من
الشر إلى الخير ؟ لقد أريد أن أقلدك وأقفو أثرك وأتعلم منك الخير
كما يتعلم الطفل القراءة . أتظن هذا ممكنا ؟

ـ لا أدرى

ـ ولكنك ستعينني ، فلن أكون وحدى !
إني أحبك !

ثم يضمها إلى صدره فإذا شخصان بائسان قد شملها الشقاء ...

وقع أثناء الطبع بعض أغلاط مطبعية لا تعدو إعجام بعض الحروف ، ولما كانت من الوضوح بحيث لا تقف فكر القارىء أعرضت عن بيانها ، غير أن بضع غلطات لم أر بداً من بيانها لما قد يترتب على بعضها من ضياع المعنى .

المصحح

خطأ	صواب	صفحة	سطر
للاتينيين	للأتينيين	٢١	٨
اللاتينيين	الأتينيين	٢٣	١٤
يب		٢٧	٥
جثث	جثث	٢٧	١٧
الشفاء	الشقاء	٢٩	»
دون ذلك	ذلك دون	٦٥	٤
اختبار	اختيار	٧٧	١٣
والسهولةبحيث	والسهولة بحيث	٨٩	١١
L'YRSSE du SAGE	L'IVRESSE du SAGE	١٣١	٢
لاأكثرلاأقل	لاأكثرولاأقل	١٩٦	٤
إلا شيء واحد	إلا شيئاً واحداً	٢٠٩	٤


Bibliotheca Alexandrina
04437297